أنين

رواية

اسم الكتاب: أنين
تأليف: شريف ثابت
تصميم الغلاف :أحمد مراد
رقم الإيداع: 2012/3058
الترقيم الدولي: 978-977-6376-24-3

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01000405450 -01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من النـاشـر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

شريف ثابت

أنين

رواية

إلى ما تبقى..

شكر مستحق لـ..

د. أحمد خالد توفيق.. د. محمد المهدى..
أحمد العايدى.. تامر إبراهيم .. حسام دياب.. محمد الغزالى.. باسم شاهين.. طارق مصطفى.. محمد الدسوقى..

البحر غضبان مابيضحكش..
أصل الحكاية ماتضحكش..
البحر جرحه مابيدبلش..
وجرحنا.. ولا عمره دِبِل..

نجيب سرور

سر الحياة.. لو تعرفيه.. يا حبيبتى..
سر الحياة.. نبض الحياة.. أنا وانتى..

***

الكلمات تنبعث من السمّاعات المتصلة بـ dvd player.. وتكاد موجاتها الصوتيّة تتداخل مع سحب الدخان السابحة فى فراغ الغرفة..

العينان شاردتان تحدقان فى اللاشئ.. وكأنهما تخترقان ظلام الغرفة إلى خارجها، حيث يتألّق القمر الفضى كامل الإستدارة غامراً صفحة البحر بضوءه البارد المنعش..

الشفتان تطبقان بقوة على سيجارة ملفوفة بإتقان.. تسحبان نفساً طويلاً.. يتوهج طرف السيجارة فى ظلام المكان.. لحظة من السكون.. ثم تنبعث سحب الدخان من فتحتيّ الأنف..

الجسد مسترخ على الفراش.. عارٍ من أيّة ملابس.. ساكن تماماً وكأنّه جزء من الفراش.. اللهم إلا من حركة ميكانيكيّة ترفع الجوان إلى الفم ثم تخفضها..

الجسد الراقد بجواره يتقلّب.. يعتدل جالساً.. ضوء القمر ينعكس على استداراته البارعة..

- نائم..؟..

يهز رأسه ببطء نافياً.. ثم.. المزيد من السحب..

***

قلب الحياة جواه.. بنورة مسحورة..
قلب الحياة مليان.. أحلام صغيورة..

***

- Shower سريع ثم نأكل..

لا رد.. تنحنى لتطبع قبلة سريعة على شفتيه.. تغادر برشاقة.. صوت المياه المنهمرة قادم من الحمّام..

***

مش كل شئ بيفوت.. فـ عمرنا بيجرح..
قلب الحياة مليان.. حاجات وبتفرّح..

***

ينظـر بعينـين خاويتـين إلى سـيلويت جسـدها الواضـح مـن خلـف بـاب المسـبح الزجاجـى.. المياه السـاخنة تنهمـر عليـه بغـزارة..
طرف السيجارة يتوهج..
يدير عينيه.. ينهض.. يفتح النافذة الزجاجية العريضة..
الهـواء البـارد يندفـع ليجتـاح الغرفـة.. السـتائر الحريريّـة الرقيقـة تتطايـر بقـوّة..

***

نفتح بيبان الروح.. من تانى ع الآخر..
ادخل فـ قلبى بشوق.. مايكونش ليه آخر..

***

يتنفس بعمق.. يملأ صدره بالهواء النقى.. يسعل.. يسعل..
السـماء صافيـة تمامـاً.. حقـاً يبـدو القمـر مزهـوّاً ببهائـه وسـط النجـوم فى مثـل هـذه الليلـة الرائعـة..
صفحــة البحــر الزرقــاء اللامعــة تمتــد أمامــه إلى مالانهايــة.. أصــوات الأمــواج تداعــب اذنيــه برقــة..
يرنـو إلى أسـفل.. إلى قمـم الأشـجار الواقعـة أسـفل الجـرف.. حـتى فى ليلـة مقمـرة مثـل هـذه لا يسـتطيع بفعـل الإرتفـاع الشـاهق تمييـز قمـم الأشـجار مـن كتـل الصخـور المشرفـة عـلى سـاحل البحـر..
لدقائق ظل يرقب هذا المشهد الساحر ..

***

فساتين السما ألوان.. بتطفى و تنوّر..
و أنا و انت كلمة حزن.. جوّانا بتغيّر..

***

- (أحمد).. الشباك مفتوح..؟..
لا رد ..
- بيبى please الشباك.. سأصاب بالبرد..
لا رد..
- الشبااااااااك..
تخـرج مـن المسـبح غاضبـة وقـد أحاطـت جسـدها العـارى المبتـل

بمنشــفة بيضــاء عريضــة..

- ألا تسمع يا..

بــترت عبارتهــا وهــى تحــدق مشــدوهة فى الغرفــة الخاليــة.. النافــذة مفتوحــة تمامــاً.. ضــوء القمــر يغمــر الغرفــة.. الســتائر الرقيقــة تتطايــر بفعــل الهــواء..

- (أحمد).. أين أنت..؟..

هرعــت لتبحــث خــارج الغرفــة.. لا جــدوى.. البــاب الخارجــى موصــد كالعــادة مــن الداخــل، والمفتــاح موضــوع فى ثقــب البــاب..

- (أحمد)..

فتشت الغرفة بينما قلبها يخفق بقوة..

- (بصوت مرتجف): (أحمد).. please stop it..

وفى اللحظة التالية وقعت عيناها على النافذة المفتوحة..

وبخطوات واجفة تقدمت منها..

***

مش كل شئ بيفوت.. فـ عمرنا بيجرح..

قلب الحياة مليان.. حاجات وبتفرّح..

***

الجزء الأول

المشكلة

-١-

د. حازم أبو زيد

مرحباً بك فى (بارادايس هايتس) ..

هــى - كمـا تعلـم- تبعـد بضعـة أميـال فى عــرض البحـر عـن سـاحل (الإسـكندريّة).. وبالطبـع يمكنـك رؤيتهـا بسـهولة مـن علـى الشـاطئ إذا كان لديـك منظـاراً مقربـاً..

سيلفت إنتباهـك علـى الفـور ذلـك المسـطح الشاسـع مـن الخـضرة الّـذى يتكـون منـه حـزام الأشـجار المحيـط بالجزيـرة والملتـف -كأفعـى خـضراء هائلـة الحجـم- حـول الربـوة الشـاهقة الّـتى تتوسـط الجزيـرة..

لكنّـك بالطبـع مـن هـذه المسـافة لـن تتمكـن مـن ملاحظـة أيّـة تفاصيـل.. فمثـلا لـن تميّز القصـور الفاخـرة الّـتى يربـو عددهـا عـن خمسـمائة قـصر، والمتناثـرة وِفـق نسـق معمـارى بالـغ الروعـة والدقـة -خططـت لـه واحـدة مـن كبريّـات الـشركات الاوروبيّـة- فى أنحـاء الجزيـرة..

أعلـم الإجـراءات الأمنيّـة فى الميـنـاء مبالغــاً فيهــا، وبخاصــة بالنسـبة للزوّار.. أنـت تعلـم الشـخصيّات الهامـة الّـتى تقطـن هاهنـا.. ولكـن أعتقـد أنّ الأمـر يختلـف بالنسـبة لـك.. لقـد أبلغـت إدارة الميـنـاء بشـخصيّتك وموعـد وصولـك، لـذا لـم تسـتغرق إجـراءات مـرورك وقتـاً طويـلاً..

حسناً.. لتكن ضيفى.. و لأكونن مرشدك هاهنا..

هـل تزعجـك السرعـة الّـتى أنطلـق بهـا..؟.. نعـم..؟.. هـه.. سـيكون عليـك أن تبتلـع مشـاعرك يـا صديقـى.. طريـق الـ (high way) الممتـد مـن المرفـأ وحـتى قلـب الجزيـرة ويـدور حولهـا لا يسـمح بالسرعـات البطيئـة.. لـذا تجـدنى مضطـرّاً، فاعـذرنى..

بالطبـع لـدىّ سـائقى الخـاص، ولكنـنى أُحـب ممارسـة القيـادة بنفسـى مـن آنٍ لآخـر..

هـل تدخـن..؟.. إنـه سـيجار كـوبى فاخـر.. لا..؟.. كمـا تحـب .. فقـط إسـمح لى بـأن أفعـل .. ناولـنى قدّاحـة السـيّارة..

(نفس عميق ثم).. ووووووف..

هـل تـرى تلـك المسـاحات الخـضراء الواسـعة..؟.. إنهـا اشـهر و أفخـم أنديـة فى بـر (مـصر).. أنشـطتها يصعـب حصرهـا.. واشـتراكاتها خياليـة التكلفـة.. لـذا لـن تجـد مثلهـا فى (الإسـكندرية) أو أى مـكان فى (مـصر) ، لأن روّادهـا - القادريـن عـلى الاشـتراك بهـا - لـن تجـد أى منهـم فى (مـصر) سـوى هاهنـا..

مرحباً بك فى (بارادايس هايتس)..

الطريـق واسـع جـداً، ومـزدان بالشـجيرات.. كل طـرق (بارادايـس هايتـس) هكـذا.. بالتأكيـد لـن تعـانى مـن أزمـات مروريـة مـن أى نـوع.. الجزيـرة شاسـعة فعـلاً، وعـدد سـكانها محدود..كمـا أنّ التصميـم الحـضرى الّـذى وضعـه أحـد أشـهر مهندسـو (أوروبـا) محكـم بحـق، ولا يسـمح بأزمـات مـن هـذا الطـراز.. يمكنـك -عـلى فكـرة- إغـلاق النافـذة المجـاورة لـك اذا ماضايقـك الهـواء المندفـع بسـبب السرعـة.. سـتجد زر الإغـلاق فى المسـند بجـوارك..

(نفس من السيجار ثم).. وووووووف...

هـذا الكوبـرى الّـذى نصعـده هـو كوبـرى (السـلام) .. إنـه أكـبر كبـارى الجزيـرة.. ويعـبر مـا يقـرب مـن عرضهـا.. وهـو أهـم المنافـذ الّـتى تنتقـل بـك مبـاشرة الى المناطـق السـكنيّة..

هـل تـرى..؟.. توجـد بأسـفل الكوبـرى منطقـة الـdown town .. إنهـا تضـم أضخـم وأروع منطقـة تسـويقيّة وترفيهيّـة فى الـشرق الأوسـط .. وكـم المـولات فيهـا لا يصـدق..

السـاعة الآن الثانيـة عـشر ظهـراً.. لـن تجـد الكثـير مـن الـروّاد هاهنـا.. لـن تجـد أحـداً مسـتيقظاً مـن الأصـل.. الجميـع هاهنـا -وأغلبهـم من الشـباب- لا يسـتيقظون قبـل سـاعتين مـن الآن.. و..

فووووووووووووووووووو...

هـل لمحـت هـذا الوميـض..؟.. إنهـا سـيّارة (هـانى عزيـز) البـورش الجديـدة.. إنـه -الطائـش- لا ينطلـق بهـا بسرعـة أقـل مـن مائـتى كيلومـتر فى السـاعة.. وأكـم مـن حـوادث تسـبب فيهـا خـلال العـشرة أيّـام الماضيـة الـتى انقضـت منـذ شرائـه لهـا.. ولكـن مـن يملـك محاسـبته..؟.. مـاذا..؟.. ألا تعرفـه حقـاً..؟.. إنـه نجـل (حامـد عزيـز).. أكـبر رجـل أعمـال فى البلـد،

وأحـد الـرؤوس الكـبرى فى الحـزب.. فمـن يملـك أن يرفـع إصبعـا فى وجهـه فضـلاً عــن محاسـبته..؟..

(نفس من السيجار ثم).. وووووووف..

لا.. لـن نهبـط مـن هــذه التفريعــة.. إنهـا تـؤدى إلى واحــدة مـن أهـم المناطـق عـلى الجزيـرة.. المنطقـة الّـتى تضـم محطـات الطاقـة ولوحـات التوزيـع الّـتى تغـذى الجزيـرة كلهـا بالطاقـة.. كلّهـا بالطبـع تتبع شـركة (Egy – Nergy) كمـا تعلـم.. لـذا فمـن غـير المسـموح لنـا ولوجهـا..

مرحباً بك فى (بارادايس هايتس)..

بالفعـل ملاحظتـك سـليمة.. الطـرق والشــوارع تـكاد تكـون خاليــة مــن المـارة.. لـو ظللـت تراقـب سـتلاحظ أنّ هـذا يـكاد أن يكـون مسـتمراً طيلـة سـاعات النهـار.. اللهـم إلا مـن الدرّاجـات البخاريـة الـتى تقـوم بتوصيـل الطلبـات إلى المنازل..عـشرات الــ delivery boys يقطعـون الشـوارع ليـلاً نهـاراً حاملـين الأطعمـة والأدويـة وكافـة المسـتلزمات إلى الفيـلات والقصور..

لا.. ولا هــذه التفريعــة أيضـاً.. لأنهـا –لـو لـم تـكُ– تـؤدى إلى منطقـة معزولـة هادئـة تضـم مستشـفى (بارادايـس هوسـبيتال) العـام، إلى جانـب بعـض المستشـفيات التخصصيــة منهـا مستشـفاى الّــذى أنشـاته مؤخـرا لعــلاج الأمــراض النفسـيّة والعصبيّــة (و هــى الأمــراض الأكــثر شـيوعاً هاهنــا).. وهــذه ليســت وجهتنــا بطبيعــة الحــال..

النفـق الّـذى نعـبره الآن يمـر خـلال باطـن الجبـل.. وهـو يـؤدى مبـاشرةً إلى المربـع السـكنى الّـذى تقـع فيـه فيلّـتى.. دائمـاً مـا أسـتغرق ثلاثـة دقائـق بالضبـط فى عبـوره.. ألا تصدقـنى ..؟..

حسـناً.. لأهدئـنّ السرعــة لأننــا سـنهبط الكوبـرى مــن خــلال التفريعــة التاليــة..

كمـا تـرى.. الأرضيّـات والممرّات مرصوفـة بالأحجـار الفرعونيّـة.. الأشـجار الخــضراء والحمــراء والصفــراء فى كل مــكان.. مــاذا..؟.. هــذه الموسـيقى المنبعثـة فى كل مـكان..؟.. هـل تـروق لـك..؟.. إنـه النظـام الصـوتى الممتـد فى أرجـاء المـكان، والّـذى يبـث أروع المقطوعـات الموسـيقية طيلـة الوقـت.. إمـتزاج هـذه النغمـات الرقيقـة مـع خريـر شـلالات الميـاه الموزعـة بإحـكام عـبر الشـوارع والميادين يبعـث اسـترخاء غـير عـادى فى الأعصـاب..

مرحباً بك فى (بارادايس هايتس)..

***

تفضل.. البيت بيتك..

اقــدم لــك زوجــتى: الدكتــورة (نشــوى عبــد الظاهــر).. مرؤســتى – إحــم.. لنقــل زميلــتى– فى قســم الأمــراض النفســية والعصبيــة بكليــة طــب (الاسـكندريّة).. دعـنى أهمـس لـك بـألا تمـد يـدك لمصافحتهـا لأنهـا تؤمـن بعـدم جـواز مصافحـة الرجـل للمـرأة إتّباعـاً لسـنّة رسـول الله (صـلى الله عليـه و سـلّم) فـلا تحـرج نفسـك.. إنهـا مشـغولة اليـوم فى تشـذيب أشـجار الحديقـة – و هـى تعشـق أداء هـذه المهمـة بنفسـها –لأن جدولهـا اليـوم خـال مـن أيّـة محـاضرات أو أعمـال..

- (مبتسماً): هل لدينا طعام لضيفنا اليوم يا دكتورة..؟..

- (بمـرح وهـى تنفـض أوراق الشـجر الجافـة مـن عـلى معطفهـا): خـير ربنـا كتـير يـا (حـازم).. ماتقلقش..

ثم تستطرد بابتسامة ترحاب :

- تفضلا فى الـ reception ريثما أنتهى من إعداد الغداء

- (بينمـا نحـن نبتعـد) : عـلى فكـرة .. (مـودى) إتصـل مـن (كلـورادو) و سـأل عليك..

***

(مــودى) ..؟.. إنـّـه (محمّــد) إبــنى .. ألــم أخــبرك بشــأنه ..؟.. يحـضّر رسـالة الدكتـوراة فى الـ states.. فـى أى مجـال ..؟!!.. سـؤال غريـب.. فى مجـال تخصصـه بالطبـع.. جـرّاح مـخ و أعصـاب.. فيـم سـيقدم رسـالته البحثيّـة..؟.. فيزيـاء الصواريـخ مثـلا..؟.. هـه هـه.. لا تعبـس هكـذا.. أنـا أمـزح معـك فقـط..

نعـم.. لـدىّ إبنـة اخـرى هـى (آيـة).. طالبـة فى السـنة الثانيـة بكليّـة الاعلام بجامعـة (بارادايـس كولـدج).. وهـى –إبنـتى– شـيطانة حقيقيّـة.. عاصفـة مـن الحيويّـة والنشـاط وخفـة الـدم.. أيـن هـى..؟.. تعيـش حاليـاً مـع زوجهـا فى الخليـج..

أحمـد الله سـبحانه وتعـالى أن وفقـنى لتربيـة هذيـن العزيـزن وفقـا لمـا أنـزل عـلى نبيّـه الكريـم (صـلى الله عليـه و سـلّم) فى كتابـه الكريـم.. وإن

كان لا يخفى عليك مدى صعوبة ذلك، و خاصة فى مجتمع مثل مجتمعنا هنا فى (بارادايس هايتس)، حيث كل عوامل الإنحراف متوافرة وبغزارة.. وماعليك الا أن تهبط الى أى coffe shop أو أى night club بعد منتصف الّليل و سترى هولاً..

عندما تخلو حياة الفتى أو الفتاة من أيّة مصاعب أو احتياجات.. عندما يجد أمامه كل ما يشتهى بمجرد التفكير.. عندئذٍ يسيطر الفراغ على كيانه.. ويبدأ فى التفكير فى طرق غير شرعيّة لمقاومة هذا الفراغ.. وهو حال 90 % من الشباب على هذه الجزيرة..

ومن نعم الله تعالى علىّ أن رزقنى زوجة عاقلة مثقفة تدرك مهمتها، وتعرف جيّدا كيف تقوم بها خير قيام برغم مشاغل عملها..

***

الطقس حار قليلاً اليوم.. هل ترغب فى بعض المياه الغازيّة أم تريد شيئا معيّناً يعده لك الخدم ..؟.. خذ راحتك تماما كأنّك فى بيتك.. ماذا..؟.. مياه غازيّة.. أى نوع منها..؟.. (بيبسى)..؟.. أُعذرنى.. أنا مُقاطع للسلع والمنتجات الأمريكيّة.. ما رأيك فى (شويبس)..؟.. فليكن..

بففففففف (صوت فتح علبة الـcan).. تفضّل..

أعلم أن الفضول ينهشك يا صديقى لمعرفة الأمر العاجل الّذى ألححت عليك أن تأتى الى هنا لأقصه عليك.. هل تفضل أن نتحدّث الآن أم بعد تناول طعام الغداء..؟.. الآن ..؟.. حسناً.. كنت أتوقع هذا.. لحظة واحدة..

....

....

....

....

لا تؤاخذنى.. إستمع معى الآن إلى هذه التسجيلات الصوتيّة المطبوعة على هذه المجموعة من الديفيديهات.. إنها تسجيلات لبعض جلسات العلاج النفسى الّتى خضتها مع أحد مرضاى منذ مدة ليست طويلة.. لحظة حتى أااا.. play ...

ماذا..؟.. إصبر قليلاً يا أخى وستعرف كل شئ..

فقط أنصت..

***

(لحظات من الصمت المشوّب بخرفشة خافتة لوجود بعض الـ bytes التالفة على القرص المضغوط ثم)..

- هل تحب عملك..؟..

- (ضاحكاً): من منّا يفترض أن يسأل الآخر ..؟..

- من فضلك أجبنى..

- أعتقد أنه لم يعد هناك من يمكنه أن يقول بثقة أنه يحب عمله.. إنه عملى وكفى.. بدون حب أو كره..

- منطق غريب بالنسبة لطبيب نفسى..

- وما وجه غرابته..؟..

- وجه غرابته أنه لا يتفق وطبيعة عملك الّتى تتطلّب صبراً طويلا لدراسة ظروف وخلفيّات المريض النفسيّة للوقوف على أبعاد عقدته وأسبابها.. ومثل هذا الصبر لا أعتقد أنّه من الممكن توافره إلا لدى من يعشق مهنته ويستمتع بممارستها لأطول وقت ممكن..

- يمكننى أن أقول لك أن هذا الصبر يتحوّل بمرور الوقت والتجرب إلى جزء من إحترافيّة المهنة.. ولكن أخبرنى أنت.. هل تحب مهنتك..؟..

- أكيد.. رغم كل شئ..

- هلا شرحت لى أكثر..؟..

- (يزفر بحرارة): أغلب من أتعامل معه يكون محتفظاً فى ذاكرته بنماذج معيّنة من الديكورات سبق أن رآها فى أماكن اخرى وأثارت إعجابه، فيرغب فى الحصول على نماذج مثلها فى الفراغ الّذى يرغب فى تنسيقه.. بغض النظر عن مدى ملائمة تلك النماذج لطبيعة فراغه.. وهو ما أرفضه تماماً.. وفى أغلب الأحيان يحدث صدام عنيف بينى وبين العميل بخصوص هذه النقطة، وينتج عنه اعتذارى عن الاستمرار فى العمل..

- ألا يكون من الأفضل أن ترضى رغبة عميلك وتصنع له ما يشاء..؟..

- (بانفعال): وما فائدتى إذن..؟.. ولِمَ لا يقوم هو بهذا العمل بدلاً منى مادامت لديه تصوّراته الخاصة التى لا يرغب فى سواها..؟..

- هدئ من روعك يا باشمهندس..

- (يزفر بحنق) ..
- هل لهذا دخل بمشكلتك الّتى تعانى منها..؟..
- مُطلقاً..
- هلا شرحت لى ما هى مشكلتك بالضبط..؟..
- ....
- هل هى معقدة إلى هذه الدرجة..؟..
- لا أدرى..
- ....
- (لحظات من الصمت ثم بغتة): هل تؤمن بتناسخ الأرواح..؟..

***

-٢-

أحمد خشبة

- تناسخ الأرواح..؟!!..

- نعم..

صمت يشوبه أزيز غامض ثم..

- تناسخ الأرواح عقيدة بدائية تقوم على أن الروح عند موت صاحبها و مغادرتها جسده، تعود مرة اخرى وتحل فى جسد آخر.. وتتوقف طبيعة الجسد الجديد على مدى صلاح الروح فى جسدها القديم.. فاذا كانت شريرة فإنها تلقى عقابها بأن تحل فى جسد حيوان أو حشرة..

- أليس هناك تفسيراً علميّاً لهذه الظاهرة..؟..

- ليست ظاهرة.. إن هى إلا خرافة تحوّلت إلى عقيدة لدى البدائيين.. ولكن

- و لكن ماذا ..؟..

- هناك شواهد أو فلنقل قرائن تشير بوضوح إلى هذه الخرافة..

- ....

- ولكن لماذا تسأل عن تناسخ الأرواح..؟..

- (ببطء وبعد لحظات من الصمت): أعتقد أنّ روحى عاشت حياة سابقة لحياتى هذه.. وقد كانت نهاية هذه الحياة السابقة شنيعة حقاً..

***

أعلم يا دكتور (حازم) أنّك لن تصدق حرفاً ممّا أقول .. و لربما كنت الآن فى سرك تلعن حظك العاثر الّذى أوقعك بين يدىّ لتصغى لهذيان شاب تافه (كأغلب شباب هذه البلدة) لا يجد ما يشغل به وقت فراغه إلا الانصياع لهواجس عقله الفارغ المريض..

ولكن دعنى يا سيدى اؤكد لك أننى لست من هذا النوع من الشباب.. قد أكون تعاطيت المخدرات فى مرحلةٍ ما من عمرى على سبيل التجربة، ولكننى لم أسمح لها بالسيطرة علىّ.. طيلة حياتى وأنا مغرم بخوض التجارب الصعبة والغريبة.. و كل تجربة كنت أخرج منها

و قد تعلّمت حقيقة جديدة من حقائق الحياة..

سأضرب لك مثلاً .. أعلم أنّك رجل محافظ، وأنّ كلامى قد يسبب لك ضيقاً، ولكننى أيضاً أعلم أنّك ستتحمّلنى لأن هذا جزء من حرفة الطبيب النفسى كما تسمّيها.. هل تصدق يا دكتور أننى خضت تجربة جنسيّة مثليّة كاملة..؟.. لست شاذاً على الإطلاق.. ولكنّها الرغبة فى إستكشاف المجهول.. تلك الرغبة الّتى تمتع بقدر ما تؤلم بقدر ما تترك آثاراً محفورة على جدار روحك..

قفزت بالمظلات.. أتقنت الأيكيدو فى (بورما).. تسلقت جبال (الأنديز).. عاشرت نساء وفتيات من كل الأشكال والألوان.. مارست اليوجا بانتظام لأعوام.. تعلّمت إطلاق النار.. السافارى فى الصحراء.. إلخ..

ما علينا.. كنت أقول لك أننى لست من نوعيّة الشباب الفارغ الّذى لا يجد ما يفعله.. كدت بالفعل أن أكون كذلك وقد وفّر لى أبى - وأنت بالتأكيد تعلم مدى ثرائه- كل ما كان يخطر ببالى.. كل شئ الا أهم شئ.. أبوّته ذاتها .. بمرور الوقت و مع عدم وجود أيّة رغبة يمكن للمرء أن يسعى ليحققها (فقد تم اشباع أى رغبة فى مهدها).. تصبح الحياة ذاتها مملة لا قيمة لها.. وهو ما شعرت به فعلاً وأنا أسحب موسى الحلاقة الّذى أخذته من أحد الخدم على أوردة معصمى الأيمن، وأرى الدماء الحمراء القانية تتدفق منه بغزارة حاملة حياة أنا فى أشد الشوق لمفارقتها..

بعد نجاتى -بمصادفةٍ سخيفة- سافرت إلى (أوروبا) بصحبة أمى للاستجمام ولتهدئة أعصابى.. وهناك.. فى (فينسيا) تحديداً.. حدث شئ ما.. بينما القارب الّذى نستقلّه يشق مياه الشوارع العائمة.. وقفت مبهوراً أمام طرز مبانى المدينة العظيمة.. شعرت بأننى قفزت قروناً إلى الوراء.. الأبنية الحجريّة.. الأسقف المغطاة بالقرميد الداكن.. الأغصان الملتفّة حول الأعمدة القديمة.. الكنائس الضخمة بقبابها الهائلة.. رنين الأجراس.. خرير الماء المحيط بنا.. شقشقة الطيور.. اللغة الإيطاليّة السريعة كطلقات مدفع رشّاش.. لم أكن لأندهش لو رأيت مبارزة بالسيوف الرفيعة بين اثنين من النبلاء يرتديان ثياباً مزركشة وحرملة واسعة..

فى تلـك اللحظـة.. أدركـت أن تاريـخ الأمـم والشـعوب يمكـن تدوينـه فى صـورة مبـنى قديـم.. ردهـة مدخـل.. قبـة كنيسـة.. عمـود رخامـى.. لوحـة زيتيّـة متسـخة.. هـل تفهمـنى يـا دكتـور (حـازم)..؟.. فى هـذه اللحظـة السحريّة.. أدركـت أنـى عـثرت أخـيراً عـلى مـا عشـت أفتقـده طيلـة سـنوات حيـاتى الماضيـة.. ولكـم كانـت دهشـة امـى وفرحتهـا عندمـا أخبرتهـا أنـى أنـوى الإرتحـال إلى (لنـدن) لدراسـة العمـارة.. أمـا الصدمـة الحقيقيّـة فكانـت مـن نصيـب شـلّة النـادى..

- تدرس العمارة ..؟!!... هل جننت..؟!!!!!..
- (يرشف من زجاجة التكيلا الموضوع أمامه): عمارة..؟!!..
- ما المثير فى هذا المجال كى تضحى بسنوات عمرك فيه..؟؟!!!..
- كحكحكح (يسعل).. هل تفكر فى العمل يا صايع..؟!!..
- مادام الأمر كذلك.. فلم لا تعمل فى احدى شركات والدك..؟!!..
- (بسخريّة): هل وافقت مامى على مفارقتك أحضانها..؟!!..

طبعـا لـم ألـق بـالاً لتعليقاتهـم السـاخرة وأسـئلتهم البلهـاء الّـتى ألقوهـا بينمـا الــdrugs تـسرى فى دمائهـم.. وكان رد (مايـا) هـو الأعنـف..

- Go to hell you son of bitch..

وأعقبـت هـذا بسـيل مـن الشـتائم النابيـة، وهـى تدفـن سـيجارتها المشـتعلة فى صـدرى العـارى.. مـاذا..؟.. لـم أخـبرك مـن هـى (مايـا) أصلاً..؟.. (مايـا أبـو العيـون) .. رفيقـتى فى ذلـك الوقـت.. حـب..؟.. طبعـاً لا.. يمكنــك القــول بأنــه كان مجــرد توافــق جســدى.. جســدانا يرتاحــان لبعضهمـا البعـض.. لا أكـثر ولا أقـل.. ألا تعرفهـا..؟.. إنهـا ابنـة (أكـرم أبـو العيـون) رجـل الأعمـال الشـهير.. لبـؤة شرسـة شـبقة طيلـة الوقـت.. دعـك منهـا عـلى أيّـة حـال..

وهــذا هــو بالمناســبة مــا قلتــه لنفســى بينمــا عجــلات الطائــرة ترتفــع لتفـارق أرضيّـة ممـر الاقـلاع بمطـار (باراديـس إيـر بـورت) متّجهـة شـمالاً إلى المملكــة المتّحــدة..

***

متى بدأت المشكلة..؟..

لا أذكـر تاريخـاً محـدداً.. ولكنـى أذكـر جيّـداً أنـى لـم أكـن أُعـانى مـن أيّـة

هواجس طيلة فترة دراستى فى (لندن)، والأشهر الّتى تلت عودتى إلى (مصر)..

لا لا.. لم أعد على الفور إلى (بارادايس هايتس).. كان إلحاح أبى كبيراً كىّ يفتتح لى شركة كبرى للمقاولات.. ولكنّى كنت أملك خططاً من نوعٍ آخر..

قمتُ بشراء شقة صغيرة فى (العامريّة) وأعددتها لتكون مكتباًهندسياً.. كنت أعرف أنّ فرص العمل فى (القاهرة) أفضل بكثير، ولكن طموحاتى كانت مرتبطة بـ (الإسكندريّة) بشكلٍ خاص.. بالفعل تم تحقيق الكثير من الإنجازات على مستوى تجميل الشوارع والميادين، غير أنّ هذه الإنجازات لم تمتد للعديد من الأحياء والمناطق العشوائية الّتى يقطنها عشرات (أو مئات) الآلاف من البسطاء.. أى أن الأمر اعتمد بصورة رئيسيّة على جمال السطح دونما اعتبار للباطن الملئ بالمشاكل.. لذاء، فلك دكتور (حازم) أن تتصوّر مدى حاجة سكان هذا الباطن المُهمَل لما فى جعبتى من علم حديث فى مجال التخطيط و المعمار..

وبالطبع لم يرق هذا لأبى على الإطلاق..

- يا (مودى) يا حبيبى.. هذه الفرصة يحلم بها أى شاب فى مثل عمرك.. إننى أحتفظ بالفعل بعلاقات وثيقة مع شخصيّات نافذة.. وفى خلال عامٍ واحد ستصبح المقاول رقم واحد فى البلد.. وستجرى الأموال كالمياه بين أصابعك..

- (منهمكاً فى إعداد ماكيت لمبنى من طابق واحد): وهل تنقصنا الأموال يا أبى..؟..

- (ينفث دخان سيجاره بغضب): هل تغرّبت طيلة الأعوام الماضية لتعود فتنغمس فى هذه الأعمال التافهة..؟.. (و ضرب الماكيت الذّى أعمل عليه بظهر يده فطار ليتحطم على أرضيّة الغرفة)..

تمالكت غضبى وقلت بهدوء:

- هذه الأعمال التافهة كما تسميها هى من صميم عمل المعمارى.. تصميم الفراغ المناسب لمتطلّباته.. مهما كان حجم هذا الفراغ أو أهميّته.. أما ما تريدنى أن أفعله فهو أعمال المقاولين.. وأنا لم..

- لا أريد سماع محاضرات..

ثم...

- (متلفتاً حوله بازدراء): هل ستمارس عمل المعمارى الّذى تتكلّم عنه فى هذا الوكر..؟..

- (ساخراً): لن يستطيع أى من عملائى الوصول إلىّ لو اتخذت مكتباً فى الـ (هايتس)..

- و ما حاجتك إلى عملاء من خارج الـ(هايتس)..؟.. أين ستجد عملاء من هذا المستوى فى أى مكان آخر..؟..

- هؤلاء بالذات لا حاجة لهم بى.. لديهم شركاتهم الأجنبيّة الّتى يتعاملون معها.. أما عملائى الحقيقيّون.. فهم البسطاء.. الّذين يعيشون فى العشش والعشوائيّات، ويناموا أسفل الكبارى..

- (يرمقنى بنظرة ساخطة): غبى..

وتحرّك نحو باب الحجرة، وقبل أن يجتازه إلتفت إلىّ وأشار بسيجاره قائلاً:

- هؤلاء البسطاء سكان العشش وأسافل الكبارى يستحقون ما هم فيه من بؤس.. إنهم حيوانات راضية بما هم منقوعون فيه.. عقود وعقود وآدميّتهم تسلب منهم وهم لا يرون أبعد من أنوفهم، ولا يحرّكون ساكناً تجاه من يسرقهم.. بل على العكس.. تراهم ينتفضون بقوّة ضد من يحاول إيقاظ عقولهم وإنارة طريقهم.. لذا.. فلا تتوقع أيّها الرفيق (ماركس) أن ينتظموا صفاً وراءك لإستعادة حقوقهم..

كدت أرد عليه بأننى لا أحاول ارتداء عباءة الزعامة، و أننى فقط أرغب فى افادة هؤلاء البسطاء بما تعلّمته.. غير أنه لم يمنحنى الفرصة..

- طيلة عمرك ترغب فى خوض التجارب بنفسك.. لا بأس.. خض هذه التجربة أيضاً.. وعندما تستيقظ على الحقيقة المرّة.. ستجدنى بانتظارك..

ودون كلمة اخرى غادر تلك الشقة الّتى اتخذتها مكتباً.. راقبته من النافذة بينما سائق سيّارته المرسيدس يغلق باب السيّارة خلفه، ثم ينطلق بها متجهاً نحو المطار..

***

الحق دكتور (حازم) أننى لم أكن ألعب دور الزعيم كما توهّم أبى .. غير أننى كنت شديد التأثر بتعاليم استاذى الانجليزى الدكتور (إدوارد

هيجـز).. كان الرجـل اشـتراكيّاً قديمـاً، وعضـوّاً فى حـزب العمّـال.. واسـع العلـم شـديد الثقافـة ذو كاريزمـا غـير عاديّـة..

«لعنـة الرأسـماليّة هـى أنّهـا ألّهـت الأشـياء.. فبـدلاً مـن أن يصـير المـرء مالـكاً لهـا.. صـارت هـى مالكـة لـه.. و صـار هـو عبـداً تابعـاً لهـا»..

ويقول وهو يحاول إشعال غليونه:

- انظـر إلى المـآسى الّـتى حاقـت و تحيـق بعالمنـا البائـس .. لـن تجـد شرّاً واحـداً لا و كانـت الرأسـماليّة وراءه بشـكل أو بآخـر..

- وما هو الحل الّذى تراه يا دكتور ..؟..

- الإشتراكية ولا شئ سواها..

- ولكن الإشتراكيّة فشلت فى (الإتحاد السوفييتى) بلد منشؤها..

- (يبتسـم و يداعـب لحيتـه الشـقراء القصـيرة): لـم تفشـل فى (الإتحـاد السـوفييتى) لفسـاد النظريـة.. بـل لخطـأ التطبيـق.. ولعلمـك الخـاص.. لـم تنشـأ الاشـتراكيّة فى (الإتحـاد السـوفييتى) أيـام (ماركـس).. بـل هـى أقـدم بكثـير..

والتمعت عيناه الزرقاويّتين وهو يقول بحماس:

- أنـت مـصرى مسـلم مسـتر (أحمـد).. فهـل قـرأت تاريـخ الفتـح العـربى لبلـدك (مـصر)..؟..

- مستغرباً علاقة السؤال بالموضوع): لا..

- عندمـا دخـل المسـلمون (مـصر) طالبـوا بتوزيـع أراضيهـا - وكانـت شـديدة الخصوبـة حـول وادى (النيـل)- عـلى الجنـود الفاتحـين.. واسـتندوا فى ذلـك لإحـدى التعاليـم الـواردة فى كتابهـم (القـرآن) والّـتى تقـضى بتوزيـع الغنائـم بنسـب معيّنـة عـلى أهـل رسـولهم (محمـد) وعـلى المقاتلـين فى الجيـش وعـلى الفقـراء والبؤسـاء وغيرهـا مـن مـوارد الإنفـاق.. ولكـن الخليفـة المسـلم آنـذاك -(عمـر بـن الخطّـاب) إن لـم تخـنّى الذاكـرة أعلـن أن هـذه الأرض -أرض (مـصر)- سـتظل بـين أيـدى فلاحيهـا المصريـين مقابـل ضريبـة مـا.. ورفـض نزعهـا مـن أيديهـم و توزيعهـا عـلى عـدد قليـل مـن الأفـراد..

كنـت أنظـر إليـه مشـدوهاً لسـعة علمـه بينمـا هـو يسـتطرد مبتسـماً (فتـبرز عظـام وجهـه النحيل):

- أليسـت هـذه هـى عدالـة الاشـتراكيّة فى أرقى صورهـا..؟.. ومـتى ..؟.. قبـل

ولادة (كارل ماركس) بقـرون طويلـة..

سـنوات ممتعـة بحـق قضيتهـا أنهـل مـن علـم هـذا الرجـل العظيـم.. كان أحـد أتبـاع مدرسـة المعمـارى الألمـانى الكبـير (ميـس فـان درو) صاحـب نظريـة الوظيفيّـة..

- الوظيفيّـة قبـل أى شئ.. بدونهـا يفقـد العنـصر قيمتـه مهمـا بلغـت درجـة جمالـه .. فمـا قيمـة الجمـال العنـصر إذا مـا كانـت وظيفيّتـه ضعيفـة..؟..

و كان سـعيداً بى بشـكلٍ خـاص.. قـال لى ذات مـرّة ونحـن جالسـين أمـام المدفـأة فى غرفـة المكتـب بمنزلـه فى (ديفـون):

- خروجـك عـن النمـط الرأسـمالى الّـذى نشـأت فيـه سـيكون بمثابـة ميـلاد جديـد لـك..

إبتلعت ما بفمى من (أبو فروة) وقلت:

- خرجت لتلقى العلم..

- وقـد كنـت مخلصـاً مجتهـداً.. وأشـهد لـك بذلـك.. ولكـن هنـاك درس أخـير لابـد أن تعيـه جيّـداً.. لأنّـه سـيكون معيـار تطبيـقـك لمـا تعلّمتـه..

تطلّعـت إليـه متسـائلاً.. مـال نحـوى.. نـيران المدفـأة تنعكـس عـلى عويناته الصغـيرة فتخفـى عينيـه تمامـاً:

- قناعـات المعمـارى الإجتماعيّـة والسياسـيّة لا تنفصـل أبـداً عـن حرفتـه.. بـل عـلى العكـس.. فهـى المـؤشر والبوصلـة اللّـذان يوجهـان هـذه الحرفـة.. وبدونهمـا لا يسـتحق المعمـارى أن يكـون كذلـك فعـلاً مهمـا بلغـت حرفيّتـه وبراعتـه.. ويصبـح بالفعـل مجـرّد مقـاول كل مهمّتـه هـى بنـاء أكـبر عـدد مـن المكعّبـات الخرسـانيّة العملاقـة لحـشر أكـبر عـدد مـن البؤسـاء داخلهـا..

ظللت أنظر إليه مأخوذاً بكلماته بينما هو يتابع:

- وفى بلـد مثـل بلـدك (مـصر) - جميعنـا يعـرف الوضـع المـزرى الّـذى صـارت إليـه - الحاجـة ماسـة إلى كل عقـل متحـرر مـن قيـود الأنانيّـة والرأسـماليّة لإنتشـالها مـن مسـتنقع الجهـل والتخلـف والدكتاتوريّـة الـتى غرقـت فيـه.. سـيقتضى منـك هـذا التضحيـة بالكثـير مـن الرفاهيـة والملذات الّـتى تحققهـا لـك الرأسـمالية عـلى حسـاب الكثيريـن.. ولكـن ثـق أن التاريـخ - إذا مـا صمـدت وأصررت عـلى قناعاتـك - سـيكتب إسـمك بحـروفٍ مـن نـور..

وامتزجت قرقعة الأخشاب الخافتة بين نيران المدفأة بصوته العميق:
- وعندئذٍ .. تصبح المعمارى كما يجب أن يكون..

***

تذكّرت هذه الكلمات وأنا أرقب الصفحة العملاقة الزرقاء من حولى بينما اللانش يشقّ أمواجها الهادئة - أمواج البحر المتوسط - بسرعة شديدة متجها نحو مرفأ (بارادايس هايتس)..

إلى جوارى يجلس سكرتير أبى الشاب.. منظار داكن يغطى عينيه.. بينما ابتسامة آلية هى جزء من عمله ترتسم على شفتيه..

هدير محرّك القارب السريع يمتزج بهدير الأمواج المحيطة وصيحات طيور النورس المحلّقة فى السماء الصافية من فوقنا فيصنع هذا الإمتزاج منظومة متكاملة من الضوضاء..

«و فى بلدٍ مثل بلدك (مصر) - جميعنا يعرف الوضع المزرى الّذى صارت اليه - الحاجة ماسة إلى كل عقل متحرر من قيود الأنانيّة والرأسماليّة لانتشالها من مستنقع الجهل و التخلف و الدكتاتوريّة التى غرقت فيه»..

أدرت رأسى.. ألقيت نظرة طويلة على مرفأ نادى المهندسين بـ (الإسكندريّة) وهو يبتعد.. ويبتعد..

للأسف بروفيسور (هيجز).. لم تعد بلدى بحاجة إلى عقول متحررة من الأنانيّة والرأسماليّة لإنتشالها من الجهل والفقر والدكتاتوريّة.. بلدى صارت بالفعل بحاجة لشئ آخر..

بلدى بحاجة إلى قنبلة نوويّة تهوى عليها فتحرق كل شئ.. البشر.. المبانى.. الأفكار.. العادات.. التقاليد.. كل شئ..

النار هى الحل الوحيد للشئ الّذى صارته (مصر)..

لا يا أستاذى.. لست مغالياً ولا متجنّياً.. ما تعيشه (مصر) حالياً هو نتاج مئات السنين من القهر و الذل.. لقد التوت طبيعة الناس أنفسهم.. صاروا كما قال أبى حيوانات راضية بما هم منقوعون فيه.. وبمرور السنين أصبح النفاق الفج والذل والخضوع للأقوى جزء من طبيعتهم.. وصاروا يقفون بقوة ضد أى محاولة للارتقاء بهم..

«سيقتضى منك هذا التضحية بالكثير من الرفاهية و الملذات الّتى

تحققها لك الرأسمالية على حساب الكثيرين.. ولكن ثق أنّ التاريخ - اذا ما صمدت وأصررت على قناعاتك- سيكتب اسمك بحروف من نور»..
سامحنى يا بروفيسور.. لست مؤهلاً لمثل هذه المكانة.. أعتذر عن خذلانى لك..

***

ششششششش .... دززززززززززز ... ششششششششششش .. (المزيد من الـ bayts التالفة على القرص المضغوط) ..

- لحظة يا بـ... زززززز .. هناك شئ ما شششششششششـ ... همه ..
- و ما هو ..؟..
- ما سر التغيّر المفاجئ فى مشاعرك و قناعاتك تجاه البلد و أهله..؟..
- (بعد لحظات من الصمت) : صدقنى يا دكتور (حازم) لقد كنت عازما وباخلاص فى البداية على أن أُحدث تغييراً و لو بسيطاً فى العقليّة المعماريّة المصريّة .. كنت مملوءاً بالحماس وقد أكسبنى العلم ثقة لا حدود لها .. (يصمت) ..
- أكمل يا باشمهندس ..
- أنت تعلم بالطبع أننى لم أزر (الإسكندريّة) طيلة حياتى ما يزيد عن عدد من المرّات لا يتجاوز أصابع اليدين .. كانت بالنسبة لى مكاناً خانقاً مبتذلاً خالياً من أى عوامل جذب .. و عند عودتى من الخارج كنت موقناً أن البداية لابد أن تكون بتحويل هذا المكان المبتذل الخانق الى مكان صالح بكل المعايير للمعيشة البشريّة .. بدأت فى عمل بعض التصميمات البسيطة لبعض المساكن فى العشوائيّات .. لم تكن تصميمات بقدر ما كانت حلولاً لبعض المشكلات الناجمة عن عشوائية البناء و عدم وصول شبكات البنية التحتيّة إلى هذه المواضع ..
- بداية جيّدة ..
- لا .. ليست كذلك .. و حقّا مازلت لا أفهم كيف يمكن أن تكون البداية .. أتدرى يا دكتور ما هى المشكلة..؟..
- ماهى المشكلة ..؟..
- المشكلة هى أنّ أحدا لا يريد التغيير و لا الإصلاح .. الناس سعيدة و قد اعتادت على ما هى فيه .. أما المسئولين فقد نفضوا أيديهم

تماما من مسئوليّتهم .. و كأنّ عملهم يتلخص فى الجلوس إلى مكاتبهم ، و إخفاق أى مشروع يطمح للاصلاح ..

***

تريد مثالاً .. ليكن ..

بعد شهور طويلة من السعىّ و الإخلال بالمواعيد .. حصلت على موعد مع رئيس حىّ شرق .. و ذلك بالطبع بعد أن تعرّف مدير مكتبه على إسمى ، فنظر إلىّ متشككاً من خلف عويناته و تساءل :

- حضرتك إبن السيّد (ممتاز خشبة) رجل الأعمال المعروف ..؟..

- (أزفر بحنق) : نعم ..

و لم تكد تمضى دقائق حتى كنت جالساً على المقعد المجاور لمكتب رئيس الحىّ .. إستقبلنى الرجل – أشهد – ببشاشة .. أنصت إلىّ بأدب و أنا أعرض عليه مشروعى لاعادة تنظيم و تطوير منطقة (العامرية) و اعادة تأسيس شبكات البنية التحتيّة و الخدمات الأساسيّة وفقاً لمخطط دقيق إستغرقت ما يقرب من عام فى وضعه وفقاً لأحدث تقنيّات تخطيط المدن الّتى درستها .. استمع الرجل إلىّ حتى انتهيت فأثنى بشدّة على المشروع و أهدافه الوطنيّة ، و رجانى أن أترك نسخة منه لعرضها على المحافظ قبل تشكيل لجنة من أساتذة هندسة المدن لإعتماد المشروع و إتخاذ ما يلزم للبدء فى التنفيذ على الفور .. ثم سألنى و هو ينظر الىّ نظرة لم أفهمها فى حينها :

- هل يعتزم السيّد الوالد المشاركة فى هذا المشروع ..؟؟..

أجبته مندهشاً :

- لا شأن لوالدى بهذه النوعيّة من المشروعات ..

أطلق ضحكة مفتعلة و قال :

- آه .. بالطبع ..

شكرنى و وعدنى بالإتصال بى لتحديد موعد مع السيّد المحافظ فى أقرب وقت ...

أسابيع طويلة قضيتها أحلم بنجاح المشروع و أنتظر الإتصال دون جدوى .. بدأت من جديد سلسلة من المحاولات المضنية لمقابلة الرجل .. و عندما فعلت كان الجواب هو أنّ المشروع قيد الدراسة

.. مـرّت شـهور .. تكـررت المقابـلات و الإجابـات .. مـازال المـشروع قيـد الدراسـة .. إلى أن جـاء اليـوم الّـذى التقيـت بـه رئيـس الحـىّ - و كان قـد مـرّ أكـثر مـن عـام عـلى لقـائى الأوّل بـه - و قـال لى بأسـف أن اللجنـة لـم توافـق عـلى المـشروع لأن تكاليـف تنفيـذه لا تتفـق مـع النتائـج المرجـوّة مـن وراءه ..

- و لكـن يـا (سـيّد) بـك هـذا مـشروع خدمـى لسـكان هـذه المنطقـة الّذيـن يعانـون مـن تـدنّ مسـتوى الخدمـات الأساسـيّة .. ليـس لديّهـم صرف صحـى سـليم .. يشربـون ميـاه مخلوطـة بميـاه الـصرف .. و غيرهـا الكثـير مـن المشـكلات .. و بالتـالى فـلا مجـال لإعتبـاره مشروعـاً تجاريّـاً ترتجـى أرباحـاً من وراءه .. الـربح الوحـيد من وراء مثل هــذه النـوعيّة من المــشاريع هـو تحقيق راحــة و رخــاء الناس ، لأنّ هــذا هــو واجب الحــكومة تجاههم ..

ابتسم كأنّما يحادث طفلاً و قال :

- و مـاذا عـن التمويـل يـا باشـمهندس ..؟.. مـا الّـذى يغـرى مسـتثمر أو رجـل أعمـال لتمويـل مثـل هـذا المـشروع ..؟.. هـل سـيفعل ذلـك لوجـه الله ..؟؟..

- لا أتكلّـم عـن رجـال الأعمـال أو المسـتثمرين ..؟؟.. أتكلّـم عـن الحكومـة ومسئوليّتها..

- لا شـأن للحكومـة عـلى الاطـلاق بمثـل هـذه المشروعـات .. لـم تعـد لدينـا أيّـة شركات تسـتطيع المشـاركة بهـا .. كان لدينـا فيمـا سـبق و لكنّهـا بيعــت كلّهــا لمســتثمرين عــرب و أجانــب .. و دور الحكومــة الآن أصبــح مقصــورا عــلى المتابعــة و الاشراف عــلى التنفيــذ ..

و مال نحوى قائلا :

- ودعـنى أنصحـك بـألا تشـغل بالـك بمشروعـات مـن هـذا النـوع لأنهـا لـن تعـود عـلى أحـد بفائـدة .. لـن يكسـب مـن وراءهـا أحـد .. لا أنـا و لا أنـت و لا الحكومـة و لا أى مسـتثمر .. و لـو سـألت والـدك السـيّد (ممتـاز) لقـال لـك نفـس الـشئ ..

- (باستنكار) : و ماذا عن سكّان المنطقة البؤساء ..؟..

- (بتهكـم) : مـاذا عنهـم ..؟؟.. انهـم يعيشـون عـلى هـذا النحـو منـذ عـشرات السـنين .. و لـم يحـدث أن شـكا منهـم أحـد ..

و ضحك مستطرداً :
- دعهـم عـلى مـا هـم عليـه و لا تحـاول ازعاجهـم و تعكـير حالـة الرضـا الّـتى يعيشـون عليهـا ..
ثم أردف بجديّة :
- والا فستجدهم أنـفسهم أوّل من يتصدى لك ..

***

وجدت يا دكتور أنّ اللعبة أكبر مما كنت أحسب..
كنـت أمـشى بـين النـاس فى الحـوارى و الأزقّـة.. أجيـل بـصرى فى الوجـوه الصفـراء الذابلـة والأجسـاد الناحلـة المعروقـة.. فى العشـش والبيـوت الآيلـة للسـقوط.. فى أسراب الذبـاب الكثيفـة المحلّقـة فـوق الـرؤوس و بـين الأجسـاد.. أسـير محـاذرا الخـوض فى بـرك الطـين وروث البهائـم.. أكتـم أنفـاسى لكيـلا تتسـلل لأنفـى روائـح البـول والفضـلات مختلطـة بروائـح الأطعمـة المنبعثـة مـن فتحـات البيـوت.. شـتائم بذيئـة وضحـكات صاخبـة تخـرج مـن أفـواه نخـر السـوس أسـنانها الصفـراء.. وأجـواء معبقـة بدخـان المـزاج..
كنـت أخـوض فى كل هـذا.. وعقـلى يـصرخ: هـل مـن الممكـن حقـاً إصـلاح مثـل هـذا المسخ..؟..
تنمـو مشـاعر التقـزز بداخـلى وتتضخـم .. ومعهـا كانـت ذكريـات حيـاتى فى (بارادايـس هايتـس) تـراودنى فأشـعر بحنـين شـديد إليهـا..
يومـاً بعـد يـوم.. كانـت فكـرة محـددة تترسـخ فى ذهـنى: هـذا ليـس مـكانى.. وهـؤلاء ليسـوا قومـى..
ثم جاءت القشة الّتى قصمت ظهر البعير..
كانـت هـذه القشـة هـى (سـميرة).. مـن (سـميرة)..؟.. تلـك الفتـاة الّـتى عملـت لـدىّ فى مكتـبى الوليـد.. مزيـج مـن السـكرتيرة ومديـرة المـنزل والخادمـة.. ثلاثينيـة سـمراء عـلى شئ مـن الامتـلاء.. صمـوت كسـيرة العينـين.. أقبلـت عـلى العمـل فى مكتـبى بنشـاط وتفـان بالرغـم مـن تواضـع أجرهـا.. كانـت تـاتى للمكتـب باكـراً.. تقـوم بتنظيفـه وترتيبـه (وهـى مهمـة شـاقة حقـاً نظـراً لفوضويّـتى الصارخـة).. أسـتيقظ مـن نومـى (لاحـظ أنـنى أقيـم فى نفـس الشـقة) فأجدهـا لامعـة برّاقـة، وأجـد فطـورى جاهـزاً ومَـج النسـكافيه

يتصاعد منه البخار.. وتكون هى قد أبدلت ثيابها وارتدت ثوباً أنيقاً إبتعته لها وتجلس خلف مكتبها لتقوم بمباشرة عملها كسكرتيرة للمكتب..

كم ظل هذا الوضع..؟.. ما يقرب من العامين.. كنت فى ذروة الإكتئاب والإحباط بعد تجاهل الجهات الرسميّة للمشروع الّذى أنفقت عاماً كاملاً فى دراسته و التخطيط له.. عدت إلى المكتب وصفقت الباب خلفى بعنف.. كانت جالسة خلف مكتبها ووجهها مدفون بين كفيها و كأنها مستغرقة فى النعاس.. سمعت صوت الباب يُصفق فجفلت ورفعت وجهها إلىّ.. نظرت لها حانقاً.. كدت أصرخ فيها بأنّ السكرتيرة الّتى تنام فى العمل لا تصلح له وأنّها مفصولة، لولا أن لمحت خيطان لامعان من الدموع يترقرقان على وجنتيها سارعت أصابعها لمسحهما.. هبت واقفة..

- مساء الخير يا (سميرة)..
- مساء الخير يا باشمهندس..

إقتربت منها..

- هل كنت تبكين..؟..

أحنت رأسها..

- (بصوت مختنق): لا أبداً..

أمسكت ذقنها بين سبابتى و إبهامى ورفعت رأسها إلىّ.. نظرت فى عينيها الواسعتين السوداويّتين المبللتين.. شعرت بأننى أغوص فيها.. مرت الثوانى والدقائق.. بحركة لا إراديّة ضممتها إلى صدرى..

كانت أكثر من عاشرت فى حياتى حرارةً و عاطفةً.. ضاجعتها وكأننى أفرغ بداخل جسدها كل طاقة الغضب والسخط المحتشدة بداخلى منذ شهور.. أمّا هى فكنت أشعر بأصابعها تنغرس فى لحم ظهرى.. تعتصرنى بقوة وكأنّها تخشى أن أفر منها.. كانت لحظات نادرة من الحميميّة الصادقة لم تمر بى من قبل على كثرة علاقاتى.. بعد المرّة الأولى نظرت مفزوعة إلى الدم وراحت تبكى بكاءً مريراً وهى تضم طرفىّ قميصها المفتوح.. فيما بعد عرفت أنّها كانت تبكى لدى دخولى بسبب معايرة زوجة أخيها المقيمين معهم فى نفس البيت لها بتأخر زواجها..

حكت لى عن ظروف أسرتها شديدة العوز و الفقر والّتى تنفر أى عريس من الإقتراب منها.. بائسة حقاً كانت عطشى للحب والحنان.. نمنا سويّاً عشرات المرّات على مدى الأسابيع التالية لدرجة أنّها باتت ليالٍ عديدة معى فى المكتب.. تحدق فى وجهى كل مرّة عقب انتهائنا.. عيناها السوداويّتان يطل منهما مزيجاً مدهشاً من الرضا والحب والبؤس والرجاء.. هذا الرجاء بالذات حيرنى لبعض الوقت حتى بدأت أفهم.. أكاد أسمعها تردد فى أعماقها..

- ما تستر علىّ و تتجوزنى واعيش خدامة تحت رجليك..

ألتقط سيجارة من علبتى وأشعلها.. أنفث الدخان بعمق وأنا أنظر إليّها.. وجهها الأسمر.. خصلات شعرها المجعدة.. عينيها الضارعتين الحزينتين.. هل ستصدقيننى يا صغيرتى عندما أخبرك أننى لا أعترض عليك لشخصك..؟.. هل ستفهميننى عندما أقول لك أنّ هذا العالم القذر المحيط بنا لا يستحق علاقة محترمة نقيمها فنكافئه بها..؟.. لا يستحق أطفالاً نجلبهم إليه فتتمزق أرواحهم بين تروس الرأسماليّة والإستهلاكيّة من جهة، وتروس الجهل والتخلف من جهة أخرى..؟.. هل ستــ.

متى بدأ الكابوس..؟.. لا أذكر تاريخاً محدداً..

طرقات عنيفة على الباب.. تجفل.. تهب واقفة وتستر عريها بثيابها الملقاة.. أنهض أنا.. أغلق باب الغرفة من خلفى.. أخطو عبر الردهة نحو المدخل.. الطرقات تزداد عنفاً.. أفتح الباب.. وجوه شرسة ناضحة بالغضب..

- من أنتم.. ؟.. وماذا تريدون..؟..

فى الواقع لا أذكر كثيراً ما جرى وما قيل بعد ذلك.. أذكر فقط أول ضربة هوت على رأسى فأسقطتنى أرضاً.. ثم..

"هو ابن الكلب ده اللى ضَحَك عليها و غواها» .. «هى فين..؟».. «شوفوها جوه».. صوت صراخ (سميرة).. الضربات تنهال على جسدى من جميع الجهات.. الألم رهيب رهيب.. «إدبحوه و ادبحوها».. «خدوها ع البيت الوسخة».. (سميرة) تصرخ.. أتلوى على الأرض.. الضربات.. مذاق الدم.. سنتى الأماميّة تنكسر..

فيمـا بعـد.. روى لى (فتحـى) -الديلـر الـّذى يمـدنى بالحشـيش- وهـو يجفـف الدمـاء المتجلطـة عـلى وجهـى بقطنـة مبللـة كيـف هـرع إلى هنـا بعدمـا رأى أهـل الفتـاة قادمـين والـشر «بينـط مـن عنيهـم»، وأنـّه عندمـا رآهـم يـكادون يقتلونـنى اطلـق مـن حلقـه «شـخرة طـيرت الطـير مـن ع الشـجر» وفتـح عليهـم مطواتـه صارخـاً بأنـّه سـيقطع أول يـد تمتـد نحـوى..

- يعـنى إنـت يرضيـك يمرمـط شرفنـا ف الطـين و نسـيبه يـا معلـم (فتحـى)..؟..

- هو كان ضربها على إيدها..؟.. ماهى قدامكم أهى إسألوها..

- يا معلم مايصحش كده إنت تفهم فـ الأصول ..

- الـلى أفهمـه دلوقـتى إنكـوا تاخـدوا بنتكـم و تغـوروا مـن هنـا .. و الـلى انكـسر يتصلـح .. وانـا بالليـل هانعـدى عليكـم ونتفـق عـلى كل حاجـة..

- بس يا معـ..

- (بغلظـة) : مابسـش .. يالـلا غـوروا مـن هنـا قبـل مـا الشـيطان يـوزنى واعملهـا معاكـو..

و غمس قطنة جديدة فى الماء و هو ينظر لى بلوم قائلاً:

- مالقيتـش يـا باشـا غـير البـت المعفنـة دى و تـنام معاهـا ..؟!! دى حـتى معصعصـة و فقريـّة و أهلهـا كلهـم ولاد كلـب جربانـين.. مـا كـت قلـت لى إنـك ليـك غـرض ف النسـوان و آنى كنـت نجيبلـك الـلى أجمـل و أنضـف منهـا ميـت مـرة زى مابنجيبولـك مزاجـك..

و ناولنى سيجارة حشيش مشتعلة مردفاً بجديّة:

- بـس خـلّى بالـك.. آنى اديتهـم كلمـة إنـك هاتصلـح الـلى إنكـسر.. العالـم دى معفـنة بـس ف موضـوع العـرض ده مابيرحمـوش.. وانـت برضـه كـسرت برشـامة بنتهم..

نفثت دخان الحشيش و سعلت متسائلاً بصوت متحشرج :

- يعنى إيه..؟..

- تعقـد عليهـا يـا باشـا.. حـبر عـلى ورق.. وبعـد كـده ابقـى إرميلهـا هـى وأهلهـا قرشـين وكل واحـد يـروح لحالـه ويـا دار مـا دخلـك شر..

لـم أجادلـه لأنـى كنـت أشـعر باختنـاق وأرغـب فى الفـرار مـن كل هـذا الهـراء بـأى ثمـن.. نفـذت السـيناريو حرفيـّاً.. وعقـب خروجـى مـن دارهـم

سـحبت الموبايـل مـن جيـى وطلبـت رقمـاً.. سـمعت الصـوت العزيـز..
- (بصوت مختنق) : بابى.. أرسل إلىّ من يأخذنى من هنا..

***

(صمت طويل .. طويل ..) ثم ..

- (بصـوت خفيـض) : حـتى الآن لـم أعـرف مـا دخـل تناسـخ الأرواح بهـذا الموضـوع ..

- Sorry دكتور .. لا أدرى لم استفضت بهذه الصورة ..

- لا عليك .. تكلّم كما تشاء ..

- (يتنهـد) : عـدت غـير نادمـاً إلى (بارادايـس هايتـس) .. مـرّت أيـام عديـدة قبـل أن أسـمع الأنـين ..

- أنين..!!..

- (بصـوت متوتـر): أنـين طويـل متألّـم تسـلل إلى أُذنىّ.. كأنّ أحدهـم قـد تمـزقت أوصالـه منـذ وقـت قليـل فى الجـوار..

***

-٣-
عـمّار

لـيه أمشى حـافى، ونا منبت مراكيبكم..
لـيه فرشى عريان، ونا منـجّد مراتبكم..
لـيه بيتى خربان، ونا نـجار دواليبكم..
هى كــده قسمتى..؟..
الله يحاسبكم..!
بيرم التونسى

***

- إفتحى الشبّاك شويّة يا وليّة .. الدنيا حر ..
- الصهد كده هايدخل يا (ابو فوزى) ..
- يدخل واللا يطلع .. يا وليّة افتحى آنى خلاص هاتتخَنق ...
- بعد الشر عليك يا خويا ..

مسـحت قطـرة مـن العـرق سـالت عـلى جبيـنى و كادت تتسـلل الى عيـنى لتحرقهـا ... نفـس عميـق .. أشـعر أن الشـقّة – الضيّقـة أصـلا – تضيـق أكثر و أكـثر حـتى لتـكاد تخنقـنى ..

سـمعت الولـدان يصرخـان و يتعـاركان فى غرفـة النـوم الوحيـدة بالبيــت .. هتفـت :

- بطّل خناق يا كلب منّك له أحسن و رب العزّة نقومو لكم ...

«مشروعنـا (إيجـى ــــ نيرجـى) مـن المشروعـات الطموحـة الّـتى تسـتهدف بالدرجـة الاولى تحقيـق نهضـة صناعيّـة و خدميّـة للوطـن بأكملـه ...»..

بعينـين لا تـكادا تريـان .. و باذنـان لا تـكادا تسـمعان .. رحـت اتابـع تلـك الفقـرة الإعلانيّـة مدفوعـة الأجـر الّـتى يعرضهـا برنامـج (مسـاء الخـير يـا مـصر) ...

«يعـانى العالـم كلّـه مـن مشـكلة تناقـص مصـادر الطاقـة ... و دخلـت جميع الـدول فى سـباق محمـوم لتوفـير طاقـة رخيصـة و نظيفـة.. دول لجـأت الى الطاقـة الشمسـيّة ... و دول اخـرى اعتمـدت عـلى الطاقـة النوويّـة.. و دول

ثالثة مازالت تعتمد على مخزونها من البترول و الغاز الطبيعى ..» ...
الخدر يسرى فى جسدى بعد صحنىّ البصارة اللّذين التهمتهما.. ومذاق البصل مازال يحرق جوفى بشدّة..

- فين البطّيخ يا وليّة ..؟..

«(إيجى ـــ نيرجى).. أوّل شركة مصريّة عالميّة متخصصة فى إنتاج وتوليد وإستخلاص طاقة الرياح.. وقد أثبتت الأبحاث والدراسات العلميّة أنّ طاقة الرياح من أهم و أوفر مصادر الطاقة المتجددة غير المستغلّة.. ووفقا لجداول الاحصاءات والدراسات الجغرافيّة وتقارير متابعة الأرصاد الجوّيّة فإن المنطقة الممتدّة بطول الساحل الشمالى لـ (مصر)، والمطلّ على البحر الأبيض المتوسّط تعتبر من أغنى مناطق العالم بطاقة الرياح نظراً لتلاقى تيّارات هوائية مختلفة أقواها بالطبع الرياح الشمالية الغربيّة القادمة من (اوروبّا) شمالاً»..

شرائح البطّيخ الحمراء توضع أمامى مرصوصة على صينيّة معدنيّة ..

- (وأنا أختطف واحدة): تسلمى يا (ام فوزى)..

- بالهنا و الشفا يا خويا .. (ثم ترفع عقيرتها) : يا عيال .. تعالوا كلوا بطّيخ ...

«تمتلك (إيجى ـ نيرجى) أحدث تكنولوجيا لاستقبال طاقة الرياح وإستخلاصها وتحويلها إلى طاقة كهربيّة متدفّقة بلا انقطاع ... و قد أقامت سلسلة من محطات الإستقبال و الإستخلاص على طول الساحل الشمالى المصرى .. و تقوم هذه المحطّات بإرسال الطاقة المولّدة والمستخلصة الى محطّة المحوّلات الرئيسيّة المقامة عند الكيلو ٥٢ .. وهناك يتم خفض جهدها و إرسالها إلى لوحات توزيع جهد ٢٢ فولت، والّتى تقوم بدورها بتوزيع الطاقة الكهربيّة على مناطق الاستهلاك المختلفة ..» ...

مذاق البطّيخ البارد اللّذيذ يملأ حلقى و معدتى فيرطّب نيران جهنّم المستعرة بداخلهما .. الحمد لله رب العالمين ...

خرووشش ... خروووووش ...

- بالراحة يا واد منّك له .. هوّ الأكل هايطير ..؟...

قالت امرأتى ضاحكة و هى تلوك الفاكهة لذيذة الطعم :

- يووه يا (ابو فوزى) .. ما تسيب العيال تاكل .. ربّنا يخليك لينا ...
خروووشش ... خروووووش ...
لفظت البذور السوداء فى راحة يدى ، و أسقطت ما تجمّع منها فى الصينيّة (لوضعها فى الشمس) بجوار قشور البطّيخ .. تجشّأت بصوت مسموع ، و لعقت ما تبقى من آثار البطّيخ على أصابعى ، و أنا أتأمّل الطفلين - (فوزى) و(على) - وهما يزدردان البقايا الموجودة فى الصينيّة...
«طاقة (إيجى ـــ نيرجى) تمتد لتخدم ما يزيد عن عشرين مليون وحدة سكنيّة وتجاريّة و صناعيّة ، و نخطط لتغطية جميع أنحاء الجمهورية فى أقل من عامين»...
تنهض (محفوظة) - امرأتى - حاملة الصينيّة من على الطبليّة الى المطبخ .. تخاطب الطفلين :
- ياللا يا عيال .. انزلوا العبوا تحت مع العيال ف الحارة ...
أدركت على الفور ما تخطط له ، فصحت منزعجاً :
- لعب ايه يا وليّة ف الحر ده ..؟.. إنتى عاوزة العيال تجيلها ضربة شمس ..؟..
- الشر برّه و بعيد يا خويا ... سيب العيال تلعب وتنبسط ... دى حتى الحبسة مش كويسة علشانهم ..
- (بإلحاح) : و بعدين العيال ولاد (جمعة) الحلاق دول حلاليف وبيضربوا الواد (على) .. وآنى مش عايز نعملو عاركة معاه ..
- أهم عيال و بيلعبوا مع بعض ...
زفرت بحنق .. سمعت الولد الكبير يهتف :
- عايزين فلوس يا بويا ..
وصاح الصغير مقلّدا بصوته الرفيع :
- أيوه عايزين فلوس يا بويا ..
قلت بغيظ :
- روحوا خدوا من امّكم بقى ...
جاء صوتها من المطبخ ممزوجا بصوت المياه المتساقطة من الحنفيّة:
- تعالى يا (فوزى) خد الجنيه اللى ع النمليّة ...

- مايكفّيش .. هاتى جنيه كمان عشان نشربو صاروخ ...
- وانتـوا لازم يعـنى تشربـوا صـاروخ..؟.. خـد نـص جنيـه تـانى أهـو مفيـش غـيره ...

و دون كلمـة اخـرى اختفـى الولـدان كأنّمـا انشـقّت الأرض و ابتلعتهمـا.. اسـتندت الى الأريكـة المتهالكـة ، و نهضـت بصعوبـة مـن عـلى الأرض، واتّجهـت بخطـوات متثاقلـة الى غرفـة النـوم - الوحيـدة - و اسـتلقيت - كالجـوال - عـلى الفـراش ...

رحت أتنفس بصعوبة ، شاعراً بأن ثقل الطعام يجثم على روحى ...

أسـمع صـوت خطواتهـا .. واضـح مـن لهفتهـا أنّ الرغبـة تملؤهـا .. إنقلبـت عـلى جانـبى.. فشـش فششـش .. رائحــة عطرهــا تمــلأ الغرفــة .. اغلــق عيـنىّ.. أتظاهـر بالنـوم ...

السريـر يـئن تحـت ثقلهـا الاضـافى .. أشـعر بأصابعهـا تزحـف عـلى كتفـى .. أسـمع صوتهـا الناعـم :

- (أبو فوزى) ...
- خخخخخخخ ...
- أيوووه .. انت لحقت تنام يا راجل..؟!!..

«(إيجى ــ نيرجى) .. الطاقة و الأمان يتواصلان»..

***

عـلى عكـس فـترة الظهـيرة و مـا بعدهـا، جـاء الهـواء بارداً منعشـاً فى المسـاء.. كنـت جالسـاً عـلى تلـك الأريكـة الخشـبيّة القديمـة أعـلى سـطح بيـت الريّـس (فتـح الله) فى (المزريطـة).. تراجعـت مسـنداً ظهـرى إلى الوسـادة الموضوعـة عرضيّـاً عـلى ظهـر الأريكـة ورحـت أُداعـب بأصابعـى أوراق اللبلابـة المـدلاة الى جـوارى.. سـمعت (عاشـور) يقـول بصوتـه الأجـشّ:

- احنا مش لازم نستنّو أكتر من كده..

قـال الريّـس (فتـح الله) و هـو يقبـل حامـلا صفحـة عليهـا أكـواب الشـاى السـاخن :

- اهدا يا بنى ..

هـب (فرحـات) ليلتقـط منـه صينيّـة الشـاى و يـوزّع علينـا الأكـواب بينمـا قـال (عاشـور) :

- نهـدا ازاى بـس يـا ريّـس..؟.. هانقعـدو نتفرّجـو عليهـم كـده و همّـا بيبيعـوا يشـتروا فينـا ..؟..

سـكينة جميلـة تغمـرنى منـذ أن أدّيـت صـلاة العشـاء فى مسـجد (القائـد ابراهيـم) المجـاور.. إلتقطـت كـوب الشـاى السـاخن.. لأول وهلـة مـلأت صـدرى رائحـة النعنـاع الأخـضر المتصاعـدة مـع أبخـرة الشـاى.. سـمعت الريّـس (فتـح الله) يقـول برزانـة:

- التسرّع مش هايفيدنا ف حاجة.. ده ممكن كمان يبوّظ الدنيا كلّها..

رشفة مسموعة من الشاى.. ثم تساءل (نعمان):

- سسللففف (رشفة شاى).. طب انت شايف ايه يا عمّنا ..؟..

- سسـللففف (رشـفة شـاى).. آنى بنـقـول نسـتنّو رد اللجنـة النقابيّـة.. همّـا وعدونـا انهـم يـردوا علينـا بعـد اسـبوعين.. والاسـبوعين هايخلصـوا بعـد ٣ تيّـام ..

السـطح مضـاء جيّـدا بواسـطة كلـوب معلّـق عـلى سـطح غرفـة غـير مكتملة البنـاء.. ومـن الحـارة المجـاورة تصاعـدت ضوضـاء مختلفـة هـى مزيـج مـن أبـواق السـيّارات و صراخ الأطفـال و ضحـكات الرجـال و نـداءات بعـض الباعـة وسـباب الصيّـع..

قال (عاشور) بحنق:

- بـس انـت عـارف يـا ريّـس ان اللجنـة النقابيّـة بتقبـض مـن صاحـب المصنـع.. وعمرهـم ماهايعضـوا معـاه..

مددت يدى اليهم بعلبة سجائرى المفتوحة متمتما :

- طب و (حسين مغاورى)..؟..

- (يسـحب سـيجارة مـن العلبـة): ده بقـى بالـذات كرشـه واسـع أوى.. وذمّته أوسع ..

تساءل (نعمان) مرة اخرى:

- طب واذا ماردتش اللجنة علينا بعد الـ ٣ تيّام ما يخلصوا..؟..

- ساعتها بقى هايبقى فيه تصرف تانى..

- زى ايه..؟..

هنا تكلّم الريّس (حمدى) لأول مرّة فقال:

- زى اننا نسحب الثقة من اللجنة.. و نعمل لجنة جديدة..

أسرع الريّس (فتح الله) يقول:
- ده كلام سابق لأوانه يا اخوانّا.. أمّا نشوف الاول رد اللّجنة..
ارتشفت الشاى بصوت مسموع، بينما سمعت الريّس (حمدى) يقول بهدوء :
- احنا لازم نكونو جاهزين برد فعل سريع لأى تصرف من اللجنة يا حاج..
- سسللففف (رشفة شاى).. آنى عارف ان اللجنة مش هاتبيعنا.. الاستاذ (محمّد حسبو) بلّغنى انهم مش راضيين عن الوضع.. وهايفضلوا ورا المالك الجديد لغاية ما يرجعوا لنا كل حقوقنا..
نفث (عاشور) دخان سيجارته بعنف قائلاً:
- ماتآخذنيش يا حاج.. الاستاذ (محمّد حسبو) ده ماتخدش منّه كلام..
لمعت عينا الريّس (فتح الله) بالغضب وهو يقول:
- قصدك ايه..؟..
أسرعت أنا أقول:
- مايقصدش حاجة وحشة يا حاج لا قدّر الله.. هو بس يقصد ان الاستاذ (محمّد حسبو) راجل طيّب، والعالم اللى حواليه دول ولاد حرام.. بينيّموه بكلمتين حلوين، ويلعبوا بديلهم من وراه..
- (بغضب): ولو.. الراجل وعد ان الموضوع مش هايتركن.. ولازم نستنّى عليه..
و نفث سحابة من دخان التبغ متابعاً:
- أى تصرّف هانقوم بيه ضد اللجنة هايكون ليه مردود وحش ف اتّحاد العمّال.. واحنا مش عايزين نخسر الاتّحاد.. فلازم نصبر شويّة لغاية مانشوف آخرتهم ايه..
أنهى كلماته، وساد من بعدها صمت متحفّز.. رحت أتحسس البلاط البارد تحت قدمىّ العاريتين (و قد خلعت حذائى)، ودرت بعينىّ فى الجالسين.. سحب الدخان تموج فوق الرؤس.. أطرق (عاشور) بوجهه المحتقن المريد بالغضب أرضاً، بينما ظل قناع من الهدوء يغطى وجه الريّس (حمدى).. تشاغل (نعمان) بارتشاف ما تبقى من قطرات الشاى فى كوبه.. أما (فرحات) فراح -كعادته الوسخة- يعبث باصبعه فى ثقب

أنفـه..
طال الصمت و جثم فوق النفوس.. تنهدت قائلاً:
- وحـــــــدوه..
«لا اله الا الله»..
تساءل الريّس (حمدى):
- يعنى آخر كلام يا حاج اننا نستنّى رد اللجنة ..
أومأ الريّس (فتح الله) برأسه مجيبا :
- واللى فيه الخير يقدمه ربنا ..
هب (عاشور) واقفا وقال بحدة :
- ربنا ماقالش اننا نقعد كده حاطّين ايدنا على خدنا و نستنّى الفرج ..
- (بغضب) : اتكلم عدل يا وله ..
- آنى مـش ولـه .. و هاتشـوفوا كلّكـم إن اللجنـة النقابيّـة هاتبيعنـا ببـلاش لصاحـب المصنـع ..
قالها و اندفع مغادرا المكان .. فصاح الريّس (فتح الله):
- والله لاربيك يا كلب على قلة أدبك دى ..
قال (فرحات) :
- ماتعكرش دمّك يا حاج .. هو (عاشور) كده طبعه حامى شويّتين ..
- آنى هانعرف نعلّمه ازاى يكلّم الريّس بتاعه ..
نهض (نعمان) قائلا :
- بالاذن آنى كمان يا حاج ..
- اقعد يا (نعمان) و سيبك منّه ..
- معلـش.. أصـل المَـرَة عندهـا بكـرة جلسـة فـ المستشـفى المـيرى.. ولازم نـام بـدرى عشـان نعـرف نـروح معاهـا..
- ربنا يشفيها لك يا بنى.. ياللا توكل على الله..
- تعيش يا حاج .. سلام عليكم..
- (الجميع): سلام ورحمة الله وبركاته ..

***

ششششششـش.... دززززززززززز... شششششششـش.. (المزيـد مـن الــ bayts التالفـة عـلى القـرص المضغـوط)..

- لا أفهم شيئا يا باشمهندس.. من هو (عاشور) و(فتح الله)..؟.. ومن هو (أبو فوزى) هذا..؟.. وما دخلك أنت بكل هذا..؟..

- (بعد لحظات من الصمت): لا يمكننى الجزم بشئ.. كل ما أستطيع قوله لك هو أننى عشت هذه الأحداث بكامل تفاصيلها من قبل..

***

- ممكن أعرف مطالبكم بالتحديد..؟..

تساءل المهندس (عادل المهدى) -مدير عام التنفيذ بالمصنع- وهو يسترخى فى مقعد مكتبه الوثير، فأجاب الريّس (حمدى) بصوتٍ قوى:

- مطالبنا انتو عارفينها كويّس يا (عادل) بيه.. وعرضناها عليكم قبل كده، وماحققتولناش منها أى حاجة.. مع إننا مش طالبين أكتر من حقوقنا..

قال (حسين مغاورى) -رئيس اللجنة النقابيّة- الجالس الى أريكة جانبيّة:

- مفيش مانع إننا نسمعها تانى دلوقت..

التفت اليه الريّس (حمدى) قائلا بحزم:

- إنتو بالذات يا (حسين) بيه راسيين على موضوع المكافآت وأرباح الأسهم بتاعتنا اللى ماصرفناهاش من سنين.. وسنة ف سنة تعشّمونا اننا خلاص هانصرفها.. ولا صرفنا مليم احمر.. لغاية م الشركة والمصنع اتباعوا واحنا اتبعنا معاهم.. والمستثمر ضرب طناش على فلوسنا..

قال (عادل المهدى) بلهجة دبلوماسيّة:

- يا ريّس (حمدى).. إنت عارف إن الإدارة الحالية بتسعى انّها تطوّر الإنتاج و ترفع معدّلات الأداء.. وده بيتطلب ضغط النفقات.. يعنى مانقدرش إننا نصرف الأرباح ونحقق التطوير ف نفس الوقت.. فكان لازم حاجة تستنّى وحاجة تتقضى.. وانت برضه ريّس عمّال وتهمّك مصلحة الشركة بتاعتك..

- الناس مالهاش دعوة بالكلام ده يا (عادل) بيه.. إحنا بنطالب بحقوقنا بقالنا سنين و ماطلناش منها حاجة..

تدّخل (حسين مغاورى) بسرعة قائلا:

- آنى اتكلّمت مع الريّس (فتح الله) وقلت له اننا أقنعنا الادارة إنها

تـصرف مكافـأة الـ ٢١ يـوم..
- الـ٢١ يـوم دول تصرفهـم لنفسـك يـا (حسـين) بيـه.. إحنـا مصرّيـن المـرة دى اننـا ناخـد كل حقوقنـا..
فتح (مغاورى) فمه ليتكلّم ، ولكن الريّس (حمدى) تابع:
- كنّـا عارفـين انكّـم مـش هاتعبّرونـا.. ورغـم كـده سـمعنا كلام كبيرنـا الريّس (فتح الله) وقلنـا نصبر لمّـا نشـوف آخـرة الـكلام الجميـل و الوعـود ايـه.. لكـن اتضـح إن مصلحـة العمّـال هـى آخـر حاجـة بتفكّـروا فيهـا.. ده إذا حصـل أصـلاً و فكرتـوا فيهـا..
- (غاضبـاً): إيـه اللهجـة الـلى بتكلّمـنى بيهـا دى يـا ريّـس (حمـدى)..؟.. إنـت هاتنـسى نفسـك والـلا إيـه..؟..
تدخّل (عاشور) لأول مرّة صائحاً:
- إنـت الـلى ماتنسـاش نفسـك يـا (حسـين) يـا (مغـاورى) ... مصيبـة لاتكـون فاكـر نفسـك رئيـس اللجنـة النقابيّـة بصحيـح ..
إربد وجه (مغاورى) بالغضب وهو يهتف:
- إحـترم نفسـك يـا (عاشـور) واعـرف انـت بتكلّـم مـين.. أنـا ممكـن نوديـك فـ داهيـة عشـان طولة لسـانك دى..
كاد (عاشـور) يـصرخ فى وجهـه مـرّة اخـرى لـولا أن قبـض الريّـس (حمـدى) بقـوّة عـلى ذراعـه فى حـين صـاح (عـادل المهـدى) بحـزم:
- بـس كفايـة.. الخنـاق ده تروحـوا تتخانقـوه ف الشـارع.. انّمـا هنـا فـ مكتـبى.. كل واحـد يلـزم حـدوده..
شدّ الريّس (حمدى) قامته قائلاً:
- الكلام يبقى معايا انا يا (عادل) بيه..
- بصفتك ايه..؟..
- بصفتى رئيس اللجنة النقابيّة..
هنا صاح (حسين مغاورى) باستنكار:
- سمعنى كده تانى بتقول ايه..
- (بصرامة): انت سمعتنى كويّس ..
- (بغضـب هـادر): إنـتَ أكيـد جـرى لمخّـك حاجـة.. رئيـس اللجنـة..؟.. أمـال آنى نبقـى ايـه يـا .. يـا اسـطى..؟..

- إنتَ عـارف كويـس انـت إيـه.. وجيـت مكانـك ده ازّاى.. إنـتَ جـاى علينـا مـن فـوق بتعليمـات.. لا حـد انتخبـك ولا حـد اداّك صوتـه.. وعشـان كـده مـش هامّـك حـد م العمّـال..

قال (عادل المهدى) بحزم:

- كفاية كده يا ريّس (حمدى)..

- (وكأنّـه لـم يسـمع): احنـا عارفـين ده كويّـس.. ومتأكديـن انّـك مابتسـعاش غـير ورا مصلحتـك.. انـت واللجنـة بتاعتـك.. وعشـان كـده عمـال المصنـع سـحبوا الثقـة مـن لجنتـك.. وكوّنـوا لجنـة جديـدة اختـارونى ريـس ليهـا..

صاح (مغاورى):

- ده كلام فـارغ.. محـدش مـن سـلطته إنـه يسـحب الثقـة مـن اللجنـة النقابيـة.. و لجنتـك دى مـش قانونيّـة..

تجاهله الريّس (حمدى) والتفت إلى المهندس (عادل) وأشار إلىّ قائلاً:

- الاسـطى (عمّـار) معـاه صـور توكيـلات أكـتـر مـن ٣٠٠ عامـل مـن عمّـال الشركـة عشـان اللجنـة الجديـدة لـو حضرتك تحـب تطّلـع عليهـم.. وبصفتى الرئيـس المنتخـب.. أبلّغـك إن العمـال ابتـداء مـن النهـاردة بعـد مـا تخلـص ورديّـة السـاعة ٣ .. فى حالـة إضراب واعتصـام مفتـوح داخـل المصنـع لغايـة مـا الادارة تسـتجيب لمطالبهـم وترجـع لهـم حقوقهـم..

سـاد للحظـات فى الغرفـة صمـت مشـحون بانفعـالات شـتى تمثّلـت فى إحتقـان وجـه المهنـدس (عـادل) و تصاعـد أنفـاس (مغـاورى) المنفعلـة، قبـل أن يـردد الأوّل بغضـب مكتـوم :

- إضراب واعتصام..؟..

- (بهدوء): أيوه ..

- هنا فـ المصنع..؟..

لـم يـرد الريّـس (حمـدى)، وظللنـا نتبـادل نظـرات التحـدّى مـع الرجلـين، قبـل أن يقـول المهنـدس (عـادل) بهـدوء مفتعـل:

- بـس ده تـصرف مـش سـليم يـا ريّـس (حمـدى).. ومـش هايجيـب أى نتيجـة..

- ماخليتولناش طريق تانى يا باشمهندس..

صاح (حسين مغاورى):

- إنـت بتلعـب بالنـار يـا (حمـدى).. وآنى ليّـا كلام تـانى مـع الريّـس (فتـح الله) لمّـا يقـوم بالسـلامة..

لوّح الريّس (حمدى) بسبابته قائلا بصرامة:

- إسـمى الريّـس (حمـدى).. والحـاج (فتـح الله) لا يمكـن يتفـاوض معـاك حـتى بعـد لمّـا ربنـا يشـفيه.. ده ماوقعـش مـن طولـه الا لمّـا عـرف انـك انت واللجنـة بتاعتـك بعتونـا لصاحـب المصنـع..

وأدار عينيه إلى المهندس (عادل) قائلاً:

- بـالاذن يـا باشـمهندس.. لغايـة مّـا توصلـوا لحـل مـع صاحـب الشركـة وتصرفـوا لنـا حقوقنـا.. إحنـا مـش متّعتعيــن م المصنـع.. سـلام عليكـم..

والتفت مشيراً إلينا:

- بينا يا اسطوات..

***

لم تكن الأيام التالية سهلة على الإطلاق..

قمنـا بايقـاف الماكينـات، وتوقـف المصنـع عـن الانتـاج، وتوقـف معهـا صرف رواتبنـا، ولكنّنـا لـم نكـن مسـتعدّين للتراجـع..

كان هنـاك الكثـير مـن الـصراخ والتهديـد مـن قِبَـل الادارة، وتوعّدنـا الباشـمهندس (عـادل) بخـراب بيوتنـا، وبـأن الادارة تـدرس خطـوة الفصـل الجماعـى لعمّـال المصنـع، ولكنّنـا لـم نتزعـزع..

ذات يـوم حـضر السـيّد (عمـران الشـايب) نائـب المنطقـة فى مجلـس الشـعب، واجتمـع بالريّـس (حمـدى) لسـاعة كاملـة فى مكتـب رئيـس العمّال، خـرج بعدهـا بوجـه محمـرّ كالطماطـم، وبينمـا هـو سـائر نحـو سـيّارته قـال لـه الريّـس (حمـدى) -وكان واقفـاً عنـد البوّابـة- بصـوت مرتفـع:

- خـاف ربنـا يـا (عـمران) بيـه.. المفـروض إن انـت النايـب بتاعنـا.. يعـنى ترعـى مصالحنـا وتقـف معانـا بـدل مـا تقـف معاهـم..

و بعدهـا بيومـين.. حـضر ضابـط شـاب مـن مباحـث أمـن الدولـة أخبرنـا أنّـه الرائـد (حاتـم البكـرى)..

- المعلومـات الـلى عندنـا بتقـول ان الإخـوان المسـلمين بيدعمـوا الاضراب بتاعكـم..

- دعـم إيـه بـس يـا باشـا..؟.. إحنـا مالنـاش دعـوة بإخـوان ولا حـتّى بأخوات..

إحنـا نـاس غلابـة بنـدوّر عـلى حقوقنا..
- (نفث دخان سيجارته المستوردة): بس الإخوان ليهم ناس وسطيكو..
يقصـد بذلـك (محمّـد فرحـات) -وكان زوج شـقيقته إخوانيّـا- وكان الريّـس (حمـدى) يـدرك ذلـك جيّـداً:
- يـا باشـا لـو كنـت تقصـد (محمّـد فرحـات)، فسـيادتك أكيـد عـارف ان نسـيبه هـو الـلى بيشـتغل مـع الاخـوان.. لكـن هـوّ لأ.. هـه هـه.. (فرحــات)..؟.. ده حــتّى مابيركعهــاش..
- ع العمـوم احنـا هانخـده عندنـا كام يـوم.. وهنـاك هانعـرف اذا كان بيركعهـا والـلا مابيركعهـاش..
- إرحمه يا باشا الله لا يسيئك.. ده راجل غلبان وصاحب عيال..
- (بلهجة حازمة): مش عايز كلام كتير ...
وارتدى منظاره الشمسى متأهباً للانصراف..
- إحنـا سـايبنكو تحلّـوا مشـاكلكم بنفسـكم مـع صاحـب المصنـع.. لكـن لـو عرفنـا ان فيـه اتصـال حصـل بينكـم وبـين الإخـوان .. أو أى محطـة فضائيـة.. هانوقـف اللعبـة وهاتروحـوا كلّكـم ورا الشـمس.. مفهـوم..؟..

***

كان الأمـر عبـارة عـن لعبـة صبر وقـوّة احتمـال.. صاحـب المصنـع -وهـو سـعودى الجنسـيّة بالمناسـبة- يخـسر أمـوالاً طائلـة عـن كل يـوم يمـر بـلا انتـاج.. بينمـا حالتنـا نحـن تـزداد سـوءاً يومـاً بعـد يـوم بسـبب توقـف الإدارة عـن صرف رواتبنـا الّـتى تعيـش عليهـا الأفـواه المفتوحـة الّـتى تمـلأ بيوتنـا.. وكان السـؤال هنـا: مـن سيصرخ أوّلاً..؟..
كانـت الأيّـام تمـر، والأوضـاع تـزداد صعوبـة.. قالـت لى (محفوظـة) -إمـرأتي- ذات مـرّة وقـد جـاءت لزيـارتى فى المصنـع حاملـة بعـض الطعـام:
- و آخرتها إيه يا (ابو فوزى)..؟..
- مالك يا ولية..؟..
لـم تـرد.. ظلّـت واجمـة شـاخصة العينـين.. اقـتربت منهـا.. إحتويّـت وجههـا بـين كفـىّ.. رفعـت رأسـها نحـوى.. هالـنى منظـر عينيهـا وقـد التمعتـا بالدمـوع.. قلـت بارتيـاع:
- فى ايه يا (محفوظة)..؟..

أسرعت تمسح عينيها وتقول:
- مفيش يا خويا.. ربنا يخلّيك لينا..
صحت:
- اتكلّمى يا وليّة..
صمتت للحظة ثم خفضت بصرها قائلة بصوتٍ دامع:
- الواد (على) سخن بقاله يومين.. خدته ع المستوصف.. الداكتور كشف عليه ولقى عنده نزلة معويّة.. قالى ان الميّة اللى بنشربها وسخة.. قلت له ماحنا طول عمرنا بنشربوها وعايشين زى الفل.. قام زعّق فيّا وقال ان جتتنا ملايانة بلاوى.. وكتب للواد شويّة أدوية على كام حقنة..
مع كلماتها.. هوى قلبى بين قدمىّ.. سألتها بقلق:
- جبتى فلوس الدوا منين..؟..
- (بابتسامة مغتصبة): ربك مابيسيبش حد..
ولكنّى كنت أعرف الحال جيّداً.. خفضت بصرى إلى أصابع يدها الخالية.. قلت بصوت متهدّج:
- دبلتِك..؟..
ربتت على كتفى قائلة بحنان:
- بكرة إن شاء الله يا خويا تجيبلى اللى أحسن منها.. بس بعد ربنا ماينصركم على ولاد الكلب الظلمة دول..
نظرت إليها عاجزاً عن الكلام..

***

تمرّ الأيّام، والأوضاع تزداد دقةً وحرجاً.. ورغم ذلك احتفظنا – نحن العمّال – بقدرٍ عالٍ من التماسك.. وشيئاً فشيئ.. بدا أن الإدارة صارت أكثر مرونة وأقلَّ تعنّتاً فى التفاوض معنا.. إنتعش الأمل فى قلوبنا.. ورحنا نعدّ الأيام والساعات فى إنتظار اللحظة الّتى تستجب فيها الادارة لكامل مطالبنا..
حتى جاءت تلك الليلة..

***

عقب صلاة العشاء.. توجهت إلى العنبر الّذى أنام فيه.. وجدت الريّس (حمدى) ينتظرنى فى الممر المؤدى الى العنابر.. إنتحى بى.. همس

فى اذنى:
- خلاص يا (عمّار).. فُرِجت..
سألته غير مصدق:
- إزّاى يا ريّس..؟..
إبتسم فبرزت التجاعيد المحيطة بفمه والمجاورة لشعيرات لحيته البيضاء وهو يقول:
- (عادل المهدى) اتّصل بيّا من عشر دقايق.. وقاللى إن الادارة مستعدة تصرف كل مستحقّات العمّال.. وبكره ان شاء الله هاتيجى لجنة ومعاها تعهد موثق من الإدارة بدفع الحوافز والأرباح المتأخرة..
لثوانٍ تلاحقت أنفاسى.. دمعت عيناى.. همست:
- الحمد لله رب العالمين..
قال بجديّة:
- إنت بقى شايف ايه..؟.. نقول للرجالة بره ع الخبر ده دلوقتى واللا نستنّى لبكرة لمّا اللجنة توصل وناخد التعهد..؟..
- (بانفعال): ونستنّى لبكره ليه يا ريّس..؟!.. نتوكل على الله و نفرّحهم دلوقت.. دى حالتهم ما يعلم بيها الا ربنا..
صمت مفكراً للحظات قبل أن يتنهد قائلاً:
- على بركة الله..

***

مهما حاولت فلن أستطيع وصف فرحة مئات العمّال المشاركين فى الاضراب بموافقة الإدارة على صرف مستحقّاتهم..
كان اليأس قد بدأ يتملّك النفوس بعدما مرّت أسابيع طويلة دون أى نتيجة.. ودون أيّة موارد ماليّة أيضاً بعد أن أوقفت الإدارة صرف المرتبات طيلة فترة الإضراب..
راح الرجال يتبادلون الأحضان ويغنّون ويرقصون.. وكانت سهرة رائعة لم نسهرها طيلة فترة الإضراب استمرّت حتّى قرب الفجر..
كانت ساعتى تشير إلى الرابعة والنصف صباحاً عندما استيقظت من غفوة قصيرة.. إعتدلت جالساً وتمطّأت.. لم يكن قد تبقى سوى ربع الساعة على آذان الفجر.. نهضت بصعوبة -بعد سهرة الأمس- متوجهاً

إلى دورة الميـاه ..

قضيـت حاجـتى.. توضّـأت.. رحـت أجفـف مـا تسـاقط عـلى وجهـى مـن ماء الوضـوء أثنـاء سـيرى عـبر ظـلام قاعـة الماكينـات متّجهـا نحـو المصـلّى.. الصمـت يسـود المـكان..

......

......

......

......

كريييييك ...

.....

أجفلـت.. تجمّـدت فى مـكانى.. أدرت بـصرى نحـو مصـدر هـذا الصـوت.. صحـت بصـوتٍ مبحـوح:

- مييـن..؟..

لا جـواب سـوى الصمـت.. كـدت أكمـل سـيرى عـلى افـتراض أن فـأراً هـو الّـذى أحـدث هـذا الصـوت، غـير أنـى حدثـت نفـسى بـأنّ الصـوت أعـلى مـن أن يسـببه فـأر..

- مييـن..؟..

لا رد.. تقلّصـت أحشـائى مـن الخـوف.. تحسسـت طريقـى عـبر الظـلام إلى زرّ الانـارة.. زحفـت أصابعـى عـلى الحائـط الجـيرى المتّسـخ.. ضغطـت الـزر.. الإضـاءة الصفـراء الشـاحبة تغمـر القاعـة.. لابـد أنهـا سـتجذب انتبـاه العمّـال السـاهرين فى السـاحة خارجـاً، وغيرهـم ممّـن استيقظوا لأداء الصـلاة..

تحرّكـت -وقلـبى يـدق بسرعـة مـن الخـوف- نحـو الماكينـة الّـتى صـدر الصـوت مـن ناحيتهـا.. درت حولهـا.. لا شئ مريـب.. تنفسـت الصعـداء.. إنّـه مجـرد فـأر كبـير إذن..

كـدت أن أعـود لإسـتكمل سـيرى وقـد اطمـأنّ قلـبى.. لـولا أن لاحظـت وجـود جسـم غريـب مثبـت بقاعـدة الماكينـة.. غريـبُ هـذا.. إقتربـت لأتفحـص هـذا الجسـم عـن قـرب و..

بروووووووووم ....

***

-٤-

أحمد خشبة

تنميلُ غريب يسرى فى أطرافى.. فى جسدى كلّه.. لا أقوى على تحريك إصبعاً واحداً.. ما الأمر..؟.. هل أُصبت بالشلل..؟.. أم لعلّه الموت..؟..

أرقد على فراشى.. عيناى مثبتتان على السقف الملئ بالشقوق.. البرد شديد.. شديد.. لابد أنّه الموت قادماً.. رغُماً عنى ملأتنى الفكرة خوفاً.. وشعرت بدمعة باردة تفر من عينى..

***

أيّام عديدة مضت منذ عودتى إلى الـ (هايتس).. لا أذكر عددها، ولا كيف مرّت.. الحقيقة دكتور (حازم) أننى كنت مخموراً طيلة هذه الأيّام.. لم أكن افيق إلا لأتجرّع المزيد والمزيد من الخمر بصحبة عدد من أصدقائى القدامى..

كان الإحساس بالفشل يملؤنى.. يمزقنى طيلة الوقت.. أحلام وآمال كبرى بنيتها فى خيالى، وعشت لشهور وسنوات أراها تنهار حلماً وراء الآخر.. أنت أب يا دكتور ويمكنك أن تفهمنى جيداً.. أن تنجب طفلاً.. تراه أمامك.. تتحسس بشرته الناعمة.. تداعب أصابعه الصغيرة.. ترى صدره ينبض بالحياة.. ثم تجد حفنة من الجهلة والمتخلّفين يطرحونه أرضاً ويضربونه بأقدامهم حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.. هذا هو بالضبط ما أحسست به..

أتذكر هذا وأشعر بمرارة شديدة وبثقل يجثم على صدرى، فأرفع الزجاجة إلى فمى وأتجرع المزيد والمزيد..

***

كان استقبال رفاق القدامى لى حافلاً.. بعضهم تغيّر و انخرط فى البيزنس، والبعض الآخر ظل كما هو يمتهن إنفاق أموال ذويه وما أكثرها..

غير أنى لاحظت أن عديدين أصابهم تغيّر من نوع آخر.. توقفوا عن

ممارسة كل ما كانوا يفعلونه، فأطلقوا لحاهم وارتدوا الجلابيب البيضاء القصيرة، وامتنعوا تماماً عن مرافقة أصدقائهم القدامى.. رحلات عمرة شهريّة.. إعتكافات فى المساجد.. و.. و..

كانت (مايا أبو العيون) - رفيقتى السابقة الّتى حدثتك عنها من قبل- هى أوّل من لاحظت غيابه.. تذكرتها ذات ليلة فاشتعل جسدى بالرغبة.. إستعدت فى لحظة واحدة التوافق التام الّذى ساد بين جسدينا قديماً أثناء لقاءاتنا فى الفراش.. لم أطق الإنتظار.. سألت أحد أصدقائى عنها فضحك قائلاً:

- الشيخة (مايا) ..؟!!.. إنسى..

- الشيخة (مايا) ..؟؟!!..

- (يضحك): أى والله العظيم.. يبدو أنّها لم تجد مزاجها مع أحد من بعدك فاعتزلت..

- منذ متى ..؟..

- عامين أو ثلاثة لا أذكر.. فجأة اختفت من النادى و الـ coffe shops.. لم تعد ترد على مكالمات.. لم تعد تخرج.. ظللنا مدّة لا نعلم عنها شيئاً، حتى رأتها (هايدى) ذات مرّة فى الـ down town تتسوّق.. كانت ترتدى ثياباً سوداء تغطيها بالكامل ماعدا عينيها..

- وكيف تعرّفتها (هايدى)..؟..

- تعرّفت سيّارتها الـ (شيروكى) أولاً.. ثم ميّزت طريقة مشيها.. نادتها فالتفتت إليها..

- وماذا دار بينهما..؟..

- لا شئ.. حاولت (هايدى) أن تحادثها وتستفسر منها عن سبب إختفائها، غير أنّ (مايا) لم تمنحها أيّة فرصة.. أجابتها بإقتضاب وبصوت خفيض أنها أغلقت صفحة حياتها القديمة، وبدأت صفحة جديدة مع الله.. ثم فرّت منها وكأنها تفرّ من عقرب..

كان الخبر مفاجئاً لى بحق.. ويبدو أنّ هذا بدا واضحاً على وجهى ممّا جعل صديقى يقول وهو يشعل سيجارته:

- نصف الشلّة فعلوا مثلها.. وفى أوقات متقاربة.. الأعراض تبدأ بأحاديث عن برامج (عمرو خالد) وسيديهاته.. ثم تأتى حمى الأعمال

خيريّـة وزيـارة دور الأيتـام وجمـع التبرّعـات لعـلاج مـرضى السرطـان.. الـتردد عـلى جامـع (الصحابـة) فى حـىّ (المدينـة) و الإنتظـام فى حضـور الـدروس.. ثرثـرة فى الديـن بمناسـبة وبـدون مناسـبة.. الحـلال.. الحـرام.. ثـم.. هـوووب.. الإختفـاء النهـائى..

***

لا تـسئ الظـن بى دكتـور (حـازم).. لسـت كافـراً بـأى حـال.. أنـا مؤمـن بالطبـع بوجـود الله.. لابـد مـن وجـود خالـق لهـذا الكـون المحيـط بنـا.. وكمـا يقـول (دستويفسـكى): «إذا لـم يـكن الله موجـوداً.. فـإن كل القيـم والأخلاقيّـات تسـقط مـن تلقـاء نفسـها».. وأى كلام آخـر حـول قـدرة الطبيعـة عـلى الخلـق هـو مجـرّد هـراء..

غـير أنـى مؤمـن أيضـاً أن مـا يريـده الله منّـا هـو أن نعيـش حياتنـا دون أن نـؤذى أحـداً.. لا أعتقـد أنَّـه خلقنـا ليعذّبنـا ويكبـت حريّتنـا ورغباتنـا.. الرغبـات والشـهوات جـزء مـن تكويننـا.. ولـو أرادنـا الله أن نكبتهـا لمـا خلقهـا لنـا مـن الأصـل.. إنهـا هـى الّـتى تجعـل لحياتنـا طعمـاً.. تجعلنـا بـشراً.. مـاذا..؟.. لا.. لا أصلّى.. الصلاة والصـوم والحـج والعمـرة وغيرهـا شـعائر لا شـأن لى بهـا.. هـل هـى مقيـاس حقيقـى للإيمـان بوجـود الله..؟.. هـل مجـرّد صـلاة المـرء وحجـه يكفيـان للحكـم عـلى إيمانـه.. لا أظـن.. كثـيرون يمارسـون الشـعائر بإنتظـام، و رغـم ذلـك لا يتورّعـون عـن إرتـكاب أى شئ لتحقيـق مصالحهـم وعـلى رأسـهم أبى نفسـه.. أيـن صلواتهـم وشـعائرهم هنـا..؟!!.. أيـن إيمانهـم باللـه ..؟؟!!.. هـل نسـوا وجـوده..؟!.. أيهمـا أفضـل عنـد اللـه .. إيمـان حقيقـى بالوجـود أم واجهـة إيمانيّـة زائفـة أمـام النـاس لا تمنـع صاحبهـا مـن إرتـكاب أبشـع الموبقـات..؟؟!!! ...

مـن فضلـك دكتـور.. هـذه قناعـتى، ولسـت مسـتعداً لمناقشـتها.. دعنـا نعـد إلى موضوعنـا الأسـاسى..

***

«هـل هـذا صحيـح..؟.. أأنـا ميّـت حقـاً ..؟.. هـل هـذا هـو مـا يحسـه المـوتى..؟..

لا ألـم هنالـك.. هـذا مؤكـد.. فقـط قليـل مـن الصعوبـة فى التنفس.. ولا شئ آخـر .. تنفس ..؟.. نعـم تنفس.. أنـا أتنفـس.. إذن فأنـا حـىّ.. مازلـت

حيّاً.. حمـداً للـه ..

عبثاً أحاول تحريك أطرافى بلا جدوى..

وجـه يطـل علـىّ مـن أعـلى.. لا أرى بوضـوح.. الصـورة أمامـى مهـتزّة كأنّمـا هـى مطبوعـة عـلى صفحـة مـاء..

جبهـة عريضـة.. عينـان ضيّقتـين قاسـيتين.. الأنـف والفـم مختفيـان تمامـاً خلـف كمامـة سـوداء.. أو لعلّـه قنـاع..»

يميـل علـىّ.. إصبعـان يمتـدّان ليفتحـا عيـنى اليمـنى عـلى إتسـاعها.. العينان الضيّقتـان تحدّقـان بتركيز..

الوجـه يبتعـد عـنّى.. يتـلاشى.. بصعوبـة أسـمع الصـوت وكأنّـه قـادم مـن أعمـاق بـئر سـحيقة:

- خذوا هذا..

***

لم يطل إنغماسى فى الشرب كثيراً..

فجـأة.. ذات يـوم.. أصابـنى الملـل.. نفـور مفاجـئ مـن حالـة انعـدام الـوزن.. إشـتياق عـارم للعمـارة.. هـل كلامـى واضـح بمـا يكفـى..؟.. عندمـا تـذوّق طعمـاً معيّنـاً وترتـاح لـه، يصبـح مـن الصعـب أن تتركـه إلى نقيضـه مهمـا حاولـت أن تبتعـد وتقنـع نفسـك أنّـك تعافـه..

غـير أنـى هـذه المـرّة كنـت مختلفـاً.. ألقيـت جميـع نظريّـات البروفيسـور (هيجـز) عـن الإشـتراكيّة وقناعـات المعمـارى السياسـيّة والإجتماعيّـة ومحاربـة الدكتاتوريّـة والجهـل والتخلّـف وراء ظهـرى.. مـا شـأنى أنـا المعمـارى التقـنى الحـرفى بـكل هـذا الهـراء..؟!! .. لمـاذا أهـدر وقـتى وموهبـتى وعلمـى مـن أجـل حفنـة مـن الجهلـة المنافقـين هـم أنفسـهم لا يريـدون أن يغـادروا كهوفهـم المظلمـة..؟!!.. مـاذا يعـرف هـذا الإنجلـيزى المتحذلـق عـن (مصـر) والمصريـين أكـثر ممّـا يقـرأه فى الصحـف والكتـب، ويـراه عـلى شاشـات الـ(BBC) و(الجزيـرة إنترناشـونال)..؟.. أنـت لـم تر(مصر) يـا بروفيسـور.. أنـا فعلـت.. وبصـدق أقـول لـك أن أى كلام أو فعـل لا فائـدة منـه.. لقـد انتهـت (مـصر) يـا سـيّدى.. ماتـت وتعفّنـت منـذ قـرون.. والمـوتى لا يعـودون إلى الحيـاة..

***

- وعدت لممارسة عملك..؟..

- نعم..

- في (الإسكندريّة)..؟..

- لا..

- أين إذن..؟..

- إتخذت لنفسى مقراً بسيطاً.. فيللا صغيرة هادئة على الساحل الجنوبى للهايتس.. كانت ملكاً لأبى، ووافق على الفورعلى منحى إيّاها بمجرد أن فاتحته فى الموضوع وقام بتجديدها وتزويدها بكل ما يلزم..

- لابد أنّه سعد كثيراً بعدولك عن أفكارك السابقة..

- بالتأكيد.. كان شديد الإبتهاج.. وكذا «مامى».. غير أنّها حزنت عندما أعلنت عزمى على الإنتقال إلى مقر عملى..

- إنتقلت لتقيم فى مقر عملك..؟!!..

- نعم..

- لماذا..؟..

- (يتنهد): لم يكن لدىّ متسع نفسى لتبادل فيض العواطف الّذى غمرانى به.. كنت أريد الوحدة.. متلهف على تذوّق طعم النجاح.. أما «مامى" فكانت لديها خططاً من نوعٍ آخر.. متعلّقة برغبتها فى أن تفرح بى..

- (ضحكة خافتة): وماذا عن الوالد..؟..

- كان يريد أن يؤسس لى شركة مقاولات كبرى، غير أننى رفضت وأصررت على رغبتى فى البدء بمكتب ديكور أمارس فيه عملى كما أشاء..

- ووافق..؟..

- على كل ما طلبته منه.. بل وجلب لى بعض العملاء..

- جميل جداً..

- لا.. ليس كذلك..

- لماذا..؟..

- لأننى فى هذه الأيّام.. بدأت أسمع الأنين..

***

الألـم.. لـم يكـن هيّنـاً عـلى الإطـلاق.. الضـوء الأبيـض الباهــر يخـترق حدقـتىّ عيـنىّ.. يحرقهمـا.. أحــاول إغماضهمـا بـلا جـدوى ..

الممر طويل.. طويل..

بقـع الضـوء فى سـقف الممـر تتـوالى أمـام عيـنىّ.. لا أشـعر بجسـدى عـلى الإطـلاق.. ممـدد فـوق طاولـة.. طنـين عجيـب يمـلأ أذنىّ.. برغـم ذلـك أميّــز أنفـاس ذلـك الـّذى يدفـع الطاولـة .. أسـمعها عاليـة مدوّيــة و كأنّهـا صـادرة مـن هـاى فـاى باناسـونيك أصـلى.. همـف .. همـف..

خــــذوا هذا..

قالهـا الرجـل الـّذى أطلّ عـلىّ فى الزنزانـة.. يأخذونـى إلى أيـن..؟.. وما الّذى سـيفعلونه بى..؟.. ومـا سر هـذا الشـلل الـّذى سيطــر عـلى جسـدى..؟.. أنـا خائف.. خائف جــداً..

همف.. همف..

المزيد من الأضـواء.. المزيد من الطنين.. المزيد من الألم..

لم يعد لدىّ سوى الأنين..

الأنين المحبوس فى الصدر بلا أى قدرة على إطلاقه..

***

برنامــج ترفيهــى ضخــم.. عــلى غــرار البرامــج المماثلــة فى المرحطـات التليفزيونيّــة الأمريكيّــة والأوروبيّــة..

هنـاك العديـد مـن المتسـابقين قادمـين مـن بلـدان عربيـة مختلفـة.. الكثـير مـن المشـجعين.. محطـة تلفزيونيّـة ناجحـة.. مذيـع ومذيعـة فائقـا الشـهرة.. إنتـاج ضخـم.. سـتوديوهات عملاقـة.. ديكـورات فاخـرة..

قالت لى مدام (أمل) وهى تقدم لى سيجارة:

- هل يضايقك أن نتحدّث بصراحة..؟..

- (أتناول السيجارة): مطلقاً.. أشكرك..

أشـعلت لهـا سـيجارتها، فسـحبت نفسـاً عميقـاً نفثتـه دخانـاً، وتراجعـت فى مقعدهـا قائلـة:

- لـدىّ مهنـدس ديكـور تعاملـت معـه فى برامـج عديـدة سـابقاً.. وبتـوالى الأعمـال تولّـد بيننـا تفاهــم وانسـجام كبـير فى العمـل.. الباشـمهندس (محمـود مفيـد).. هـل تعرفـه..؟..

هززت رأسى نافياً وأنا أنفث دخان سيجارتى.. تابعت:
- الواقـع أنـى كنـت أنـوى تكليفـه بتصميـم وتنفيـذ ديكـورات هـذا البرنامج أيضـاً.. قبـل أن يبلـغـنى الدكتـور (حافـظ) أنّـك سـتتولّى هـذه المهمّة..
ونظرت إلى عينىّ مباشرة وهى تتابع:
- ميـزة (مفيـد) الكـبرى بالنسـبة لى أنّـه كان يحقـق وفـراً كبـيراً فى تكاليـف الديكـور دون أى إخـلال بجودتهـا سـواء عـلى مستوى التصميـم أو التنفيذ.. هـذه النقطـة مهمّـة جـداً بالنسـبة لى كمنتجـة منفـذة للبرنامـج.. ديكـور مبهـر مـع ضغـط التكاليـف إلى أقـصى حـد ممكـن.. هـل أنـت معـى..؟..
- بالتأكيد..
- (تتنهـد): أعلـم أنّهـا معادلـة صعبـة، ولكـن لا غـنى عنهـا.. وإلا فلـن أجـد مـا أدفـع بـه رواتـب الفريـق الّـذى يعمـل معـى.. (تبتسـم).. عمومـاً ستجدنى إلى جـوارك دومـاً إن شـاء الله.. سـتكون هنـاك العديـد مـن جلسـات العمـل.. وبـإذن الله سـنصل لنتيجـة جيّـدة..
لـم أكـن أحـب أن يتدخّـل أحـد فى عمـلى.. غـير أنّ كلامهـا لـم يكـن يخلـو مـن منطـق.. كمـا أنّ إسـلوبها المهـذب الدمـث -برغـم عمليّتـه- لـم يـدع لى مجـالاً للرفـض أو الإعـتراض..

***

السـيّد (رأفـت عابديـن).. رجـل الأعمـال السـكندرى الشـهير.. حـوت الميـنـاء.. عضـو الحـزب القـوى.. شريـك أبى العزيـز..
- لا تكـن طفـلاً يـا (مـودى).. عمليّـة مثـل هـذه سـتختصر لـك الكثـير والكثـير.. لقـد رفضـت أن أؤسـس لـك شركـة مقـاولات و فضّلـت البـدء منفـرداً فى مجـال الديكـور بالرغـم مـن أنّ مكاسـبه أقـل بكثـير.. فدعـنى عـلى الأقـل أضـع قدمـك عـلى أول الطريـق..
- ولكن..
- محطـة (رأفـت عابديـن) تعـد بالفعـل لبرنامـج ضخـم.. وستسـتعين بمهنـدس لعمـل الديكـورات.. فـلِمَ يحصـل غـيرك عـلى هـذه الفرصـة..؟.. أنـت مهنـدس شـاطر وحاصـل عـلى شـهادة مـن أكـبر الجامعـات الأوروبيّـة.. فإثبـت نفسـك.. وِثـق أنّ أحـداً لـن يجاملـك إذا لـم تكـن عـلى المسـتوى المطلـوب..

لـم أفكـر كثـيراً.. الفرصـة طيبـة بالفعـل، والحقيقـة أنـى كنـت بحاجـة إلى فرصـة كهـذه يـا (د. حـازم) لإقتحـام السـوق.. ومـن الحماقـة أن أتركهـا تضيـع مـنى لمجـرد أن أبى هـو مـن جلبهـا لى مـن شريكـه.. وبالتأكيـد سيدفع ثمنهـا شـيئاً مـا..

- (أتنهـد): ok dad..

***

رائحـة عجيبـة تمـلأ أنفـى.. مألوفـة إلى حـدٍ مّـا.. غريـب هـذا.. الحوائـط ذات لـون داكـن كئيـب.. الأغـرب أنهـا تتمايـل وترتعـش.. تنضغط بشـدّة فى لحظـة، ثـم تعـود لتنبعـج بشـدّة فى اللحظـة التاليـة.. كأنّهـا مصنوعـة مـن الجيلـلى.. وجـه أنثـوى رائـع الجمـال ينظـر إلىّ من أعـلى.. عينـان زرقاويّتان.. أنـف دقيـق.. فـم مكتـنز.. بـشرة شـاحبة قليـلاً.. شـعر أشـقر ناعـم.. عاريـة تمامـاً، أو هـى تتدثّـر بثـوب أبيـض شـفاف.. مـن تكـون..؟..

أحـدق فى العينـين الجميلتـين.. تمـرّان عـلى وجهـى بسرعـة دون توقـف.. خاليتـان مـن أى تعبـير.. غريـب أن تحمـل عيـون جميلـة كهـذه مثـل هـذا القـدر مـن الجمـود..

أرغـب بشـدة فى أن أسـألها عمّـا حـلّ بى، ولكنـنى لا أسـتطيع.. تختفـى مـن أمامـى.. تتحـرّك هنـا وهنـاك.. ألمـح خصـلات الشـعر الأشـقر تتطايـر مـن خلفهـا.. ثـم أسـمع الصـوت الرقيـق لأوّل مـرّة..

***

- الأرضيّة جاهزة يا باشمهندس.. تحب تستلم دلوقت..؟..

تحرّكـت معـه عـلى رمـال شـاطئ (بورتـو مارينـا) – حيـث سـيتم تصويـر أحـد حلقـات البرنامـج- نحـو أرضيّـة البيسـت دائريّـة الشـكل المصنوعـة مـن ألـواح الباركيـه..

- تعبنا أوى فـ الشغلانة دى يا بيه..

لـم أرد عليـه.. بالواقـع كنـت أعـانى مـن مشـكلة فى التعامـل مـع أمثالـه مـن الحرفيين سـواء أكانوا نجّارين أو حداديـن أو بنّـائين أو.. أو..

حالـة مـن البـلادة وفقـدان الثقـة تنابـنى عندمـا أقـف أمـام الحـرفى لأشرف عـلى عملـه.. أسـمعه يتكلّـم كثـيراً.. يحـاول تزلّفـى والتقـرّب إلىّ.. يثرثـر عـن أعمالـه السـابقة واللاحقـة.. عـن الشـخصيّات العظيمـة الّـتى تعامـل معهـا

وكـم أثنـت عـلى براعتـه وأمانتـه لدرجـة أنّهـا صـارت تسـتعين بـه فى الكثـير مـن الأعمـال..

- (محمـد باشـا الدمنهـورى).. بتـاع المجلـس.. عملنـا لـه الفيـلا بتاعتـه بنتـه كان متكيّـف منّا أوى.. المـدام بتاعتـه بقـى كان يحـلا لهـا انهـا تيجـى تتفـرّج عليّـا وانـا باشـتغل، وتقوللـى الله ينـوّر يـا اسـطى (شـلبى)..

أسـمعه يتكلّـم وأنـا أكاد أنفجـر غيظـاً.. مـا شـأنى أنا بكل هـذا الهـراء..؟!!.. فالـ «تولـع بجـاز» أنت و(الدمنهـورى) وحرمـه وابنته والمجلـس كله..

أتأمّـل الدائـرة الخشـبيّة الّـتى لا يقـل قطرهـا عـن عشريـن مـتراً.. أخطـو عليهـا.. أنحـنى لأتأمّـل الوصـلات.. يسـير إلى جـوارى وهـو لا يكـف عـن الثرثـرة ليـصرف انتباهـى عـن أخطائـه.. أخـبره أنّ عـدد مـن الألـواح بحاجـة إلى الخلـع والاسـتبدال..

- ليه يا هندزة..؟.. ده شغل آخر حلاوة بالصلاة ع النبى..

أجيبـه بـأنّ نوعيّـة هـذه الألـواح مخالفـة للمواصفـات الموجـودة بالمقايسـة..

- إزاى بقى يا بيه..؟.. دا خشب أرو زى الفل..

ألقى نظرة مترددة أخرى على الألواح ثم..

- الخشب أكاسيا..

- و(المـرسى ابـو العبـاس) ده خشـب أرو أمريـكانى درجـة أولى.. يمكـن بـس حضرتـك مـش واخـد بالـك.. (ينحـنى مشـيراً إلى أحـد الألـواح).. بـص اللـون.. شـوف التجزيعـات..

وهنـا تبـدأ ثقـتى فى الاهـتزاز.. أعلـم جيّـداً أنّـه نصّـاب.. وأنّ مـا جلبـه مـن الأخشـاب المطلوبـة نفـد، فقـام باسـتكمال أعمالـه مسـتخدماً أخشـاباً أخـرى أقـل جـودة و-بالطبـع- أقـل ثمنـاً.. ولكنـى لا أجـد لـدىّ القـدرة عـلى مقارعـة حججـه.. لربمـا كان ذلـك ناتجـاً عـن ضعـف خـبرتى فى التنفيـذ العمـلى.. يشـعر هـو بذلـك فيعتـدل مختتمـاً بابتسـامة ظافـرة:

- آنى بقـالى فـ الـكار ده تلاتـين سـنة ولامؤاخـذة يا هنـدزة.. ولا يمكـن نغلط فـ نوع الخشـب أبـداً..

ومـع السـخرية الّـتى تفـوح مـن كلامـه.. أشـعر بالـدم يصعـد إلى رأسى.. أرغـب فى أن أصرخ بوجهـه بأنّـه نصّـاب وابـن سـتين كلـب، غـير أن شئ مـا

يلجـم لسـانى فأكتفـى بإعـتراض خفيـض الصـوت لا يعبـأ هـو بـه..
هنـا.. تظهـر (أمـل).. تخـرج مـن الكارافـان.. تخطـو برشـاقة برغم جسـدها الممتـلئ قليـلاً -كأجسـاد المصريّـات عمومـاً- عـلى الرمـال.. قميصهـا الواسـع الفضفـاض يتطايـر بفعـل هـواء البحـر المنعـش مـع الطرحـة الّـتى تغطـى رأسـها.. تتقـدّم منّـا.. تحـي الرجـل الّـذى يـرد بحـرارة:
- سلام ورحمة الله وبركاته.. حرماً يا مدام..
- جمعاً إن شاء الله.. أخبار الشغل إيه..؟..
- زى الفل بالصلاة ع النبى..
تلتفـت إلىّ متسـائلة فأندفـع (و كأنّمـا رد إلىّ وجودهـا ثقـتى) وأشرح لهـا المشـكلة.. تنصـت إلىّ بتركـيز ثـم تلتفـت إلى الرجـل:
- (بحزم): الخشب ده يتفك دلوقتى حالاً يا معلّم..
- تلاتة بالله العظيم يا مدام الخشب أ..
- (مقاطعـة بحـزم أشـد): مـن غـير حلفـان.. الـلى يقولـه الباشـمهندس يتنفـذ بالحـرف..
- طـب أعمـل إيـه يـا مـدام الخشـب الـلى اشـتريناه ماكفّـاش.. وكان لازمـان نكمّـلوالشغل.. وخشـب الأكاسـيا ده ميـة ميـة برضـه.. وهـو انـا يعـنى هانجيـب خشـب أى كلام..؟..
- والخشب ماكفّاش ليه..؟..
- الكميّة جايّة ناقصة.. الغلط م المقايسة..
- المقايسـة مظبوطـة مافيهـاش غلـط.. إنـت الـلى عمالـك بيسـتهلكوا خشـب كتـير..
فتح فمه ليعترض، غير أنّها لم تمنحه الفرصة:
- مـش عايـزة كـتر كلام يـا معلّـم.. هاتخلـع الخشـب ده والـلا تخلـع م الشـغلانة كلهـا..؟..
- نقول إيه بس يا ريّسة..؟.. آنى مانحبش نزعّلك أبداً..

***

وخزة مؤلمة قليلاً فى ذراعى.. أئن بصمت..
وجـه ممتـلئ أصلـع ذو نظّـارات.. يلقـى نظـرة ثابتـة عـلى وجهـى.. يربـت عـلى رأسى.. يقـول بصـوتٍ عميـق:

- لا تقلق.. قليلٌ من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..
أيـدى قويّــة تـنزع عـنّى ثيـابى.. لحظـات، رقـدت بعدهـا عـلى المنضـدة عاريـاً كمـا ولدتـنى أمـى..

***

رغـم عمليّتهـا الزائـدة -بـل وخشـونتها أحيانـاً- لـم تكـن مقتضبـة أو ثقيلـة الظـل.. عـلى العكـس تمامـاً.. كانـت ظريفـة حلـوة المعـشر.. تلقـى النـكات هنـا وهنـاك، وتسـخر ممّـن حولهـا.. كل مـا فى الأمـر أنّهـا كانـت تـولى عملهـا إهتمامـاً عظيمـاً.. تظـل طيلـة اليـوم فى موقـع التصويـر تتقافـز كالبرغـوث فى كل مـكان.. تتابـع مـع المخـرج كل صغـيرة وكبـيرة.. الــlab top الخـاص بهـا لا يفارقهـا.. مسـاعدها يتبعهـا كظلّهـا.. يتلقـى تعليماتهـا وينفذهــا بدقـة.. سـألتها ذات مـرّة ونحـن جالسـين عـلى مقعديـن قماشـيين عـلى الشـاطئ أثناء الــbreak :

- هل تحبين عملك إلى هذه الدرجة..؟..
- (مندهشة): لماذا تسأل..؟..
- هــذا النشــاط الجـم فى العمـل.. لا أعتقـد أنّـه ليـس مدعومـاً بعشـق العمـل ذاتـه..

صمتت لحظة ثم إبتسمت مجيبة:

- بالفعــل أحـب عمـلى جـداً.. ولكـن الأمـر لا يقتـصر عـلى هـذه النقطـة فقـط..
- (بفضول): ماذا أيضاً..؟..
- مجـال الميديـا الّـذى أعمـل فيـه مجـال ضخـم إلى درجـة لا تتصوّرهـا.. أنـت تتعامـل مـع كيانـات ضخمـة.. وتنافـس كيانـات هائلـة.. والمنافسـة شرسـة جـداً.. ومالـم تكـن مسـايراً للتطـوّر الّـذى يـزداد يومـاً بعـد يـوم فسـتخرج مـن المنافسـة غـير مأسـوفاً عليـك.. ومسـايرة التطـوّر تسـتلزم العمـل وبـذل الجهـد طيلـة الوقـت.. الخيـار واضـح محـدد.. إمّـا العمـل المسـتمر.. وإمّـا الخـروج مـن المعادلـة..

ورشـفت قليـلاً مـن الــكابتشينو مـن كـوبٍ ورقى تحملـه بـين أصابعهـا، وأردفــت:

- النقطـة الأخـرى هــى أنّنـا نتعامـل مـع جمهـور واسـع عريـض مـن

المحيـط إلى الخليـج.. واحـترام عقليّـة هـذا الجمهـور والسـعى لتقديـم الأفضـل لـه شرط أسـاسى للاحتفـاظ بـه..

نظرت إليها بإعجاب بينما هى تتابع:

- النقطـة الثالثـة هـى المسئوليّة أمـام الله سـبحانه وتعـالى.. أمرنـا اللـه أن إذا عمـل أحدنـا عـم لاً أن يتقنـه.. فـلا أقـل مـن أن نمتثـل لأمـره..

لم تعجبنى جملتها الأخيرة.. قلت معترضاً:

- لـمَ تقحمـين الديـن فى الأمـر..؟.. أفهـم جيّـداً كلامـك عـن المنافسـة المهنيـة واحـترام عقليـة المشـاهد.. ولكـن مـا شـأن الديـن بالعمـل..؟..

نظرت لى بدهشة قائلة:

- سـؤال غريـب.. العمـل جـزء لا يتجـزّأ مـن الديـن.. والإلـتزام بقواعـد الديـن هـو أكـبر ضابـط لجـودة العمـل.. الإلـتزام يجعلـك تبـذل أقـصى جهـد فى عملـك لا خوفـاً مـن رئيسـك (فتهمـل عندمـا يغفـل عنـك) ولا رغبـةً فى جمـع المـال (وهـو مـا قـد يدفعـك لتجـاوز أخلاقيّـات العمـل فى غيـاب الـوازع الديـنى).. بـل مراقبـةً للّـذى لا يغفـل ولا ينـام.. وهـذا بالطبـع لا يتعـارض مـع المنافسـة المهنيّـة أو السـعى لتحقيـق أربـاح.. وإنّمـا يضـع لهمـا مـن الضوابـط مـا يمنعهمـا مـن الجنـوح بصاحـب العمـل أو المصلحـة إلى وسـائل غـير مشروعـة لتحقيقهمـا..

نظـرت إليهـا بامتعـاض ولـم أرد.. الحـق أن كلامهـا لـم يكـن يخلـو مـن المنطـق.. غـير أنـى لـم أشـأ أن أظهـر ذلـك..

إرتفع صوت أحد عمّال الجمالونات الحديدية يدعونا:

- إتفضلوا معانا.. إتفضّل يا باشمهندس.. إتفضلى يا مدام ..

نهضت واقفة، فرمقتها بنظرة متساءلة..

- يدعوننا لتناول طعام الغداء معهم..

- وهل ستقبلين الدعوة..؟..

قالت ببساطة:

- ولـم لا ..؟.. لقـد دعـونى أمـس، ولكنـنى كنـت قـد تناولـت غـدائى، فطلبـت تأجيلهـا لليـوم..

- ....

- ألن تأت..؟..

- ميرسى..

***

الواقــع أنهـا كانـت نمـوذج مختلـف عـن كل مـن عرفـت مـن النسـاء مـن قبـل.. فى البـدء شعــرت بنفـور مـن عمليّتهـا الزائـدة ومـن تمسـكها ببعـض المظاهــر الدينيــة الــتى لا أستسـيغها مثـل الحجـاب الّـذى يغطـى رأسـها طيلــة الوقــت، والعبــاءات الفضفاضــة الّــتى ترتديهــا دومــاً.. غــير أنــى بتعامــلى معهــا، وجدتهــا تعمــل وتتــصرّف بعقليّــة غربيّــة بحتــة كالّــتى اعتــدت عليهــا طــوال فــترة دراســتى فى (أوروبّــا) مــع لمســة تحفــظ شرقيّــة مميّــزة بالإضافــة إلى كـم هائـل مـن الحنـان يختفـى خلـف إسلوبها العمـلى الـصِرف..

حــب..؟.. لا أعتقــد.. ســمه ألفــة.. ســمه إعتيــاد.. فلتســمّه أى شئ.. المهــم أنــى وبعــد أسـابيع مــن العمــل بصحبتهــا أصبحــت أنزعــج وأقلــق عندمــا تغيــب عــن موقــع التصويــر لســببٍ أو لآخــر..

عرفـت منهـا أنّهـا خرّيجـة كليّـة آدابٍ إعـلام جامعـة (الإسكندريّــة).. تسـكن مـع أسرتهـا فى (الإبراهيميّـة).. فى حـوالى الأربعـين مـن عمــرها (تكـبرنى بثمانية أعـوام كاملـة).. أرملـة.. لا أطفـال..

يوماً بعد يوم.. وجدتنى أقترب منها أكثر فأكثر..

***

الأذرع تحملنى عالياً.. تسير بى فى ممر مظلم..

الرعب ينهش أعماق.. أود أن أصرخ:

- دعـــونى .. أنزلـــونى ..

بـاب مـن ضلفتـين فى نهايـة الممـر.. ضوءأحمـر مخـيف يشـع مـن الفتحـة المحصـورة بينـه وبـين الأرض.. عـلى جانـبى الممـر.. أرى رؤوسـاً أميّزهـا بوضـوح برغـم الظـلام..

أبى.. أمــى.. أصدقــائى.. (مايــا).. (رأفــت عابديــن).. الدكتــور (هشــام مدكـور).. الحـاج (صالـح عبـد النعيـم).. رئيـس حـىّ شرق يبتسـم قائـلاً:

- وماذا عن التمويل يا باشمهندس..؟ ..

وجــوه كثـيرة أعرفهـا.. جميعهـم يقفـون مصطفّـين.. يطبقـون بأصابعهـم عــلى أطبــاقٍ وشــوّك وســكاكين.. يعقـدون مناديـل بيضـاء حــول أعناقهــم..

يبتسـمون.. الـلعـاب يسـيل مـن بـين أنيابهـم الطويلـة..
أنـا الآن واقـف -أوقفتـنى الأذرع- بمحـاذاة البـاب ذو الضلفتـين.. الضـوء الأحمـر المخيـف مصحوبـاً بحـرارة هائلـة ينبعـث مـن فرجـة الضلفتـين..
الوجـه الأصلـع الحليـق يظهـر مـرّة أخـرى فى الـكادر.. يلقـى نظـرة ثابتـة علـى وجهـى.. يكـرر بنفـس الصـوت العميـق:
- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..
من أنت..؟.. وماذا ستفعلون بى..؟..
وفى اللحظـة التاليـة إنفتحـت الضلفتـان.. حـرارة رهيبـة هبّـت مـن خلفهمـا لتلفـح وجهـى.. أنـين طويـل مـن أعمـق أعمـاق.. أنـا أحـترق.. أحـترق..
محاولـة يائسـة للابتعـاد عـن هـذا الجحيـم.. لا جـدوى.. سـمعت صـوت الرجـل الأصلـع مـن خلفـى يقـول:
- دقائق ويكون الشواء جاهز..
ثـم شـعرت بقدمـه تركلـنى فى منتصـف ظهـرى لتدفعـنى بقـوّة لأطـير عـبر البـاب المفتـوح وأهـوى لأسـفل..
تعلّقـت عينـاى بالنـيران المستعـرة بأسـفل والـّتى تقـترب بسرعـة مذهلـة..
و.. مسـتحيل.. لا.. لااااااا...

***

-٥-

عـمّار

ساكنين علالى العتب، وناللى بانيها..
فارشين مفارش قصب، ناسج حواشيها..
قانيين سواقى دهب، وناللى ادور فيها..
يا رب ماهوش حسد..
لكن بعاتبكم..

بيرم التونسى

***

بروووووووووم ....
....
....

***

....
....
....
....
الغبار يملأ أنفى وحلقى.. أسعل.. أسعل.. مذاق صدئ يملأ فمى..
....
....
....
....
سائل دافئ يغطى جبهتى و يسيل على وجهى..
....

....

....

....

وجـه (نعمـان) يطـلّ عـلىّ مـن أعـلى.. ينظـر إلىّ بجـزع حقيقـى.. يحـرّك فمـه.. يتكلّـم أو يـصرخ .. لا أعـرف.. لا أسـمع حرفـاً..

......

......

......

......

ذرّات من الغبار تتطاير أمام عينىّ.. تصبغ الرؤية بلون رمادى كئيب..

......

......

......

......

أحدهم يجرّنى على الأرض.. جمالونات السقف تتوالى أمام عينىّ..

....

....

....

....

....

ذرّات الغبار تتزايد وتتكاثف..

....

....

....

....

تظلم الدنيا تماماً..

....

....

....

....

***

الــ٢١ يــوم دول تصرفهــم لنفســك يــا (حســين) بيــه .. احنــا مصرّيــن المرة دى اننــا ناخــد كل حقوقنــا ..

......

....

بطّل خناق يا كلب منّك له أحسن و رب العزّة نقوملكو..

......

....

عايزين فلوس يا بويا..

....

....

ســســللففف (رشــفة شــاى).. آنى بنقــول نســتنّو رد اللجنــة النقابيّــة.. همّــا وعدونــا انهــم يــردوا علينــا بعــد إســبوعين.. والإســبوعين هايخلصــوا بعــد ٣ تيّــام..

....

....

أيوووه .. انت لحقت تنام يا راجل ..؟..

....

....

الداكتــور كشــف عليــه و لقــى عنــده نزلــة معويّــة ... قالــلى ان الميّــة الــلى بنشربهــا وســخة ... قلــت لــه ماحنــا طــول عمرنــا بنشربوهــا و عايشــين زى الفــل..

جبتى فلوس الدوا منين..؟..

....

....

ماخليتولناش طريق تانى يا باشمهندس..

....

....

كريييييك ...

ميـــن..؟..

....

....

بروووووووووم ....

....

....

***

عينـان ضيّقتـان تنظـران لى مـن خلـف منظـار زجاجـى صغـير.. أسـمع الصـوت وكأنّـه قـادم مـن بـئرٍ عميـق..

- أسطى (عمّار).. إنت سامعنى..؟.. لو سامعنى حرّك عينيك..

ألـم رهيـب بجميـع أنحـاء جسـدى.. أرغـب فى أن أرد.. أشـتكى.. أصرخ.. لا أستطيع..

قبل أن أهوى فى تلك البئر السحيقة أسمع من يقول:

- صدمة عصبيّة.. محتاج وقت..

- طب وجرح دراعه..؟..

- جسمه قوى.. هايستحمل..

***

نعـم.. كنـت قويّـاً.. لـم أكـن ضخمـاً.. ولكنـّى كنـت - كمـا يقولـون- عصـب..

فى الأرض الخاليـة الواقعـة خلـف مخـازن شركـة الـورق بالقـرب مـن ترعـة (المحموديّـة).. الوقـت عـصراً، والشـمس سـاخنة تـضرب الـرؤوس.. مبـاراة الكـرة الـشراب حاميـة حقـاً.. لقـد اسـتحقت بالفعـل التزويغـة الّـتى قمـت بهـا مـن الورشـة الّـتى أعمـل فيهـا.. سـيضربنى الأسـطى (طـه) علقـة سـاخنة عندمـا أعـود متأخـراً سـاعتين مـن مشـوار شراء السـبرتو الّـذى أرسـلنيه لـشراءه.. ولكـنّى لا أهتـم.. علقـة تفـوت ولا حـد يمـوت..

(عاشـور) ضخـم الجثّـة شرس الطبـاع.. لاعبـو الفـرق المنافسـة يهابونـه.. عندمـا يلتقـط الكـرة بـين قدميـه وينطلـق بهـا كالقطـار نحـو المرمـى.. كان الجميـع يفسـحون لـه الطريـق..

هبطـت إلى الملعـب حـافى القدمـين.. إتفقـت مـع بـاقى اللعيبـة عـلى أن أتـولّى أنـا أمـر (عاشـور).. و بالفعـل.. كلّمـا كنـت أراه قادمـاً بالكـرة مثـيراً عاصفـة مـن الـتراب مـن حولـه، كنـت أندفـع نحـوه وأمـد قدمـى بخفّـة لألتقـط الكـرة مـن بـين قدميـه، وأركلهـا إلى زمـلائى عنـد خـط الـ ٨ ..

ينظـر لى بغـلّ حقيقـى، ويبصـق عـلى الأرض الترابيّـة.. أسـخر منـه.. ينـدفـع نحـوى مكـوّراً قبضتـه.. نلتحـم .. نسـقط أرضـاً.. نتمـرّغ وسـط الـتراب.. لكمته تمـزّق شـفّتى.. روسـيّتى تفجـر الـدم مـن حاجبـه.. أذرع كثـيرة تفـرّق بيننـا..

فى النهايـة.. نجلـس عـلى شـاطئ ترعـة (المحموديّـة) نرمق المراكـب السـابحة فى ضـوء الغـروب.. نشـعل السـجائر.. نتصـافى بين سـحب الدخان..

لم نفترق من يومها..

***

كريييييك ...

- مييـــن ..؟..

....

....

***

- حـاسس بإيه..؟..

- دراعى يا داكتور.. نار قايدة..

- معلش يا اسطى (عمّار).. ده لأن تأثير البنج بينسحب من الدم..

نظرت إليه بوهن، فتابع وهو يخفض عينيه لأسفل:

- الشـظية مزّقـت دراعـك وسـببت الغرغرينـة.. للأسـف ماكانـش قدّامنـا غـير البـتر..

***

تعلّقت بذراعى قائلة:

- إنت جايبنى هنا نعملو إيه..؟..

- نفسّحـوكى يا بت..

- هـئ هـئ.. فـ محطّـة الرمـل يـا راجـل..؟.. حـد ياخـد مراتـه يفسـحها فـ محطـة الرمـل فـ شـهر عسـلها..؟..

- أمّـال عايـزانى نفسّـحوكى فيـن يـا روح سـتّك..؟.. العجمـى والـلا السـاحل

الشمالى..؟..

- أيووه يا (عمّار).. وهمّا النسوان اللى بيروحوا هناك أحسن منّى فـ إيه يعنى..؟..

- يا بت دانتى ضفرك برقبتهم كلّهم.. بس الحتت دى مش للّى زيّنا.. لاهى بتاعتنا ولا احنا بتوعها.. احنا يادوب آخرنا نروحو عمود السوارى.. محطة الرمل.. أبو قير.. نضربو بنطة ع الكورنيش ساعة المغربيّة.. ندخلو السيما.. إلا بالحق يا بت.. عمركيش دخلتى السيما..؟..

- لا والنبى ياخويا..

- أخوكى..!!.. ماشى.. الصبر حلو.. آنى النهارده هاندخّلوكى السيما.. الفيلم بتاع (عادل إمام).. وبعديها نرجعو بحرى نتعشّو سمك وجمبرى عند (الراوى)..

- (بفرحة): ربنا ما يحرمنى منّك يا خويا..

- بلاش اخويا دى..!!..

***

ونستنّى لبكره ليه يا ريّس..؟!.. نتوكل على الله ونفرّجهم دلوقت.. دى حالتهم ما يعلم بيها الا ربنا..

***

الطريق وعر.. وعر..

العربة ترتج بعنف.. النافذة الصغيرة الوحيدة فى الصندوق الخلفى للسيّارة شبه مسدودة بسلك البقلاوة.. الجو خانق تماماً.. جرح ذراعى المبتور يؤلمنى جداً..

تساءل (عاشور) بصوت حاول أن يعلو به على صوت محرك السيارة:

- حد سامع صوت الموج ياخوانّا..؟..

عددنا لا يقل عن الخمسين رجل.. الأجساد متهالكة بفعل الإرهاق والاستجواب فى المباحث.. أسابيع طويلة قضيتها فى المستشفى وقضاها الرفاق فى غرف وأقبية الأقسام ومباحث أمن الدولة لنجتمع فى النهاية فى الصندوق الخلفى الضيّق لتلك السيّارة الّتى تكاد تتفكك من فرط وعورة الطريق..

أجاب أحدهم:

- آنى مش سامع حاجة ... شكلنا كده باعدنا عن المالح ..

أنظـر إلى وجـوه رفـاق المنتفخـة المتورّمـة.. الدمـاء متجلّطـة عـلى الكثـير منهـا.. الأعـين مزرقّـة محاطـة بالكدمـات.. الأسـنان مكسـورة والأنـوف مجدوعـة.. مـن الواضـح أنهـا كانـت سـاعات رهيـبة..

قطـرات العـرق تسـيل عـلى جسـدى.. تلهـب جـرح ذراعـى.. ألـم لا يوصـف.. أتنهـد فى صـبر.. مـتى ينتهـى كل هـذا يـا ربى..؟..

المزيـد مـن الرجرجـة.. أنّات مختـلفـة تخـرج مـن أفـواه وصـدور الرفـاق.. (فرحـات) الجالـس بجـوارى يتحسـس إبهامـه الأيمـن المكسـور.. يتمتـم:

- مابَعَدناش كتير ع البحر.. آنى لسه شامم ريحة اليود..

لـم يعلّـق أحـد لأن أحـدا لـم يسـمع أصـلا.. سـاد الصمـت لفـترة قبـل أن أتسـاءل أنـا بصـوت مبحـوح:

- معقـول يااخوانّـا هانفصـل زى الفـراخ كـده مـش عارفـين رايحـين فـين ولا هايعملـوا فينـا إيـه..؟..

قال أحدهم:

- يا خبر النهاردة بفلوس..

التفت آخـر -(طحلاوى)- إلى الريّس (حمدى) صارخاً بغتة:

- إنـت السـبب فــ الـلى احنـا فيـه ده.. لـو ماكنّـاش مشـينا وراك كان زمانّـا قاعديـن وسـط عيالنـا..

رفـع الريّـس (حمـدى) رأسـه ونظـر إليـه بمـرارة دون أن يـرد.. ولاحظـت أنّ بيـاض شـعر رأسـه قـد اختلـط بدمـاء حمـراء متجلّطـة مـن أثـر الإسـتجواب..

- قصّر يا (طحلاوى)..

كذا قال (عاشور) بحزم، ولكنّ (طحلاوى) واصل وكأنّه لم يسمع:

- أيـــوووه.. محاكـم عسـكريّة..؟.. ليّـه..؟.. إحنـا كنّـا عملنـا إيـه..؟.. نروحـو السـجن وتتخَـرَب بيوتنـا ليـه..؟.. لا سرقنـا ولا بعنـا مخـدرات وطـول عمرنـا ماشـيين جمـب الحيـط.. لا قلنـا كفايـة ولا الإسـلام هـو الحـل.. إحنـا بــس قولنـا عايزيـن شـقانا وقـوت عيالنـا.. يقومـوا يودونـا المحاكـم العسـكريّة..؟.. ويرمونـا فــ السـجن..؟.. أحييـــه..

لطمه (عاشور) على وجهه صائحاً:

- ما قلت لك قصّـر يا بن الموكنسة..

هـوت اللطمـة عـلى وجـه (طحـلاوى) فارتعـش جانـب فمـه وهـو ينظـر لـ (عاشـور) ولنـا، قبـل أن ينفجـر باكيـاً ومولـولاً:

- آنى ماليـش دعـوة.. رجعـونى لعيـالى.. مـش عايـز حاجـة بـس ارجـع لعيـالى.. يـا عيـاااالى..

....

....

....

تمـر الدقائـق والسـاعات.. لـم نعـد نحسـب الزمـن.. لربمـا كنّـا هنـا منـذ سـاعات أو أيـام أو أسـابيع.. حقـاً لـم أعـد أدرى..

الإرتجـاج.. الإرهـاق.. ألـم ذراعـى.. الحـر.. رائحـة العـرق.. وجـوه الرفـاق المشـوّهة.. صـوت المحـرك المزعـج الرتيـب..

......

....

....

....

لم ندر أين ولا متى خفتت إرتجاجات السيّارة قبل أن تتوقف تماماً..

***

عندما دخلت عالم النساء لأول مرّة كنت فى سن الثالثة عشر..

كانـت مومـس مـن (بحـرى) إلتقطهـا (نعمـان) -وكان يكـبرنى بأربعـة أعوام- وسـاومها عـلى قضـاء ليلتهـا معنـا.. نقلـت بصرهـا إلينـا -أنـا و(عاشـور)- وقـد وقفنـا قـرب ناصيـة الشـارع وتسـاءلت متشـككة:

- إنتو كام واحد..؟..

أجابها (نعمان) بغلظة:

- إنـتى شـايفانا دسـتة يعـنى..؟.. مـا قلنـا لـك آنى واصحـابى الجـوز الـلى واقفـين هنـاك دول..

- عندكو المكْنة..؟..

- (بسرعـة): الورشـة الـلى بنشـتغلو فيهـا.. قافلـة لغايـة بكـرة الصبـح.. واحنـا مـش هانسـهرو كتـير عشـان عندنـا شـغل م النجمـة..

فردت كفّها المفتوح قائلة:

- إدينى الفلوس الأول..
- يا بت متسربعة على إيه هى الدنيا طارت..؟..
لازلـت حـتى الآن أذكـر تلـك اللحظـات البعيـدة وأنـا اضاجعهـا عـلى أرضيـة الورشـة الّتى تفـوح منها رائحـة الشـحم والزيـت.. ضـوء المصباح الخافـت.. الحـر الخانـق داخـل الورشـة.. كانـت المـرّة الاولى وكنـت غريـراً بـلا خـبرة.. تصبـب العـرق أنهـاراً عـلى جسـدى وأنـا اقبلهـا بنهـم، وسرعـان مـا نهضـت مـن فوقهـا وقـد أفرغـت شـهوتى فى ثـوانٍ معـدودة.. هرولـت مغـادراً الورشـة والدمـوع فى عيـنىّ، بينمـا ضحكاتهـا السـاخرة الماجنـة تجلجـل مـن خلفـى.. سـمعت (نعمـان) الّـذى كان ينتظـر خارجـاً مـع (عاشـور) يتجرعـان الطافيـة -
- وقد قضيا وطرهما من قبلى- يهتف بى:
- رايح فين يالااا..؟..
ركضـت حـتّى تقطّعـت أنفـاسى.. إرتميـت أسـفـل شـجرة الجمّـيز عـلى شـاطئ ترعـة (المحموديّـة) وفى الدقائـق التاليـة رحـت أبـكى بحـرارة بينما جسـدى يرتعـد، وقـد مـلأنى شـعورٌ عـارم بالذنـب..
لابـد أن أكـثر مـن سـاعتين مـرّا عـلىّ وأنـا أجلـس وحيـداً عـلى الشـاطئ يغمـرنى ضـوء القمـر، قبـل أن أسـمع أصـوات مكـبر الصـوت قـادم مـن مسجد القريـب إسـتعداداً لصـلاة الفجـر.. خلعـت ثيـابى وألقيـت بنفـسى فى ميـاه الترعـة لأغتسـل مـن النجاسـة، وقـد عزمـت عـلى التوبـة إلى الله.. رحـت أضرب المـاء بذراعـىّ.. أضرب..
لم تكن المرّة الأخيرة على أى حال..

***

واقفين صفوفاً فى فناء المعتقل..
الشـمس فى منتصـف السـماء تمامـاً.. الرمـال الّـتى نقـف عليهـا ملتهبـة حقّـاً.. يـا الله.. لكـم يمـضى الوقـت ببـطء..
- أنا اللوا (محمود البيسرى).. قائد المعتقل..
علقـة سـاخنة تلقيناهـا منـذ قليـل بمجرّد نزولنـا من سـيّارة نقل المسـاجين.. عـشرات مـن الجنـود الأشـدّاء انقضّـوا علينـا مـن كل اتّـجاه وراحـوا يضربوننـا بعـصىّ مـن الصلـب.. تعالـت الصرخـات والتوسّـلات.. فيمـا بعـد ذكـرنى

هـذا بفيلـم رأيته لــ (أحمـد زكى)..
- تلاتين سنة خدمة فى المعتقلات..
تمرّغـت عـلى الرمـال السـاخنة.. ضربـة عنيفـة هـوت عـلى كتفـى الأيـسر.. حـذاء عسـكرى ثقيـل غـاص بـين ضلوعـى.. صرخـت فى ألـم.. رأيـت الجنـدى يرفـع عصـاه ليضربـنى بهـا.. لوّحـت بمـا تبقـى مـن ذراعـى المبتـور صارخـاً بتوسّـل:
- أبوس إيدك..
- أى كلبة منكو هاتخالف النظام..
تـردد لحظـة.. خفـض العصـا.. ثـم حـزم أمـره.. ركلـنى فى جنـبى الأيمـن، ثـم انـصرف ليهـوى بعصـاه عـلى جسـدٍ آخـر..
صراخ.. دماء.. أجساد مهشّمة.. ملابس ممزقة..
فى النهايـة أوقفونـا صفوفـاً.. نـكاد نسـقط مـن فـرط الإرهـاق والألـم.. الدمـاء تسـيل مـن مواضـع مختلفـة مـن جسـدى..
- هاتندفن مطرح ماهى واقفة..
حوافـر الحصـان تغـوص برشـاقة فى الرمـال السـاخنة وقـد تضاعـف ثقلـه بتأثيـر وزن راكبه..
- الرملة هنا بلعت جثث نسوان كتير زيّكو عملوا فيها رجّالة..
بذلـة عسـكريّة أنيقـة.. قبّعـة رسميّـة تحمـى رأسـه مـن الشـمس.. منظـار شـمسى داكـن يغطّـى عينيـه.. جسـد ممشـوق منتصـب عـلى ظهـر الحصـان.. يـدنى الميكروفـون الصغـير مـن فمـه.. و بـصـوتٍ عميـق:
- إنتوا هنا يا ولاد الـ (....) مالكوش ديّة..

***

(عـادل المهـدى) اتّصـل بيّـا مـن عـشر دقايـق.. وقاللى ان الادارة مستعدة تـصرف جميـع مسـتحقّات العمّـال.. وبكـره ان شـاء الله هاتيجـى لجنـة ومعاهـا تعهـد موثـق مـن الادارة بدفـع الحوافـز والأربـاح..

***

ما الّذى حدث بالضبط..؟..
الإضراب كان يسير بشكل جيّـد جـداً.. وقفنـا جميعـاً وقفـة رجـل واحـد أمـام ضغـوط الإدارة.. تحمّلنـا الفقـر الشـديد مـع امتنـاع الإدارة عـن صرف

رواتبنـا.. تركنـا بيوتنـا وأقمنـا فى المصنـع.. نظّمنـا أنفسـنا وحرصنـا عـلى الحفـاظ عـلى سـلامة الأجهـزة والماكينـات حـتى لا نـدع فرصـة للإدارة لتفسـد الإضراب.. وبالفعـل إقتربنـا مـن النـصر..

فما الّذى حدث..؟..

***

بروووووووووم ....

***

شخصُ ما..

شخصُ مّا ثبّت عبوّة ناسفة فى جدار الغلاية الرئيسيّة بقاعة الماكينات..

شـخص مّـا خـان زملائـه ورفـاق عمـره وسـمح لقـوّات الأمـن باعتقالنـا بتهمـة إرتـكاب العنـف وإتـلاف الممتلـكات..

شخصُ مّـا سمعته يتحرّك فى ظلام قاعة الماكينات..

شخصُ مّـا تسبب فى بتـر ذراعى حتى المرفق..

شخصُ مّـا.. ولكن من هو..؟..

صارحـت الريّـس (حمـدى) ذات ليلـة فى ظـلام العنـبر الّـذى يجمعنـا بالسـؤال الّـذى يشـغلنى، فأجـاب عـلى الفـور:

- دى مش عايزة سؤال..

دق قلبى بقوّة مع كلماته:

- (نعمان) طبعاً.. محدّش غيره..

***

وجـه (نعمـان) يطـلّ عـلىّ مـن أعـلى.. ينظـر إلىّ بجـزع حقيقـى.. يحـرّك فمـه.. يتكلّـم أو يـصرخ.. لا أعـرف.. لا أسـمع حرفـاً..

***

حقاً.. أيـن إختفـى (نعمـان)..؟.. ولمـاذا لـم أره منذ لحظـة انفجـار العبوّة الناسـفة فى المصنـع..؟.. ومـتى كانـت آخر مـرّة رآه الرفـاق..؟.. وأين..؟..

قال الريّس (حمدى) وهو يتحسس جرح رأسه:

- محـدش شـافه مـن يـوم مـا اتقبـض علينـا.. زى مـا يكـون فـص ملـح وداب..

فى حين أجابنى (عاشور):
- آخـر مـرّة شـفته يـوم العاركـة.. العسـاكر كانـوا بيضربـوا فيّـا، وشـفته بطرطوفـة عيـنى بيسـحبك عـلى الأرض وانـت مغمـى عليـك والـدم بيـشر مـن دراعـك..
و أغمض (طحـلاوى) عينيه محاولاً التذكر:
- لمّـا سَـمعنا صـوت الفرقعـة جرينـا عـلى أوضـة الغلايـات.. لَقينـا النـار مولّعـة فـ الغلايـة الكبـيرة، وانـت ملقّـح جمبهـا مغمـى عليـك.. وهـوّ راقـد جمبـك مـش دريـان بحاجـة..
و قـال (فرحات) بحزن:
- يـا اخوانّـا بـلاش نظلمـوه.. ده برضـه زميلنـا.. ومنعرفـوش إيـه اللـى حصل له..

***

- بالاذن آنى كمان يا حاج..
- إقعد يا (نعمان) وسيبك منّه..
- معلـش.. أصـل مـراتى عنـدها بكـرة جلسـة فـ المستشـفى المـيرى.. ولازم ننامـو بـدرى عشـان نـروح معاهـا..

***

ششششششـش .... دززززززززززز ... شششششششششـش .. (المزيـد مـن الـ baytes التالفـة عـلى القـرص المضغـوط)..
- كيف تعرف أنّك عشت هذه الأحداث مسبقاً..؟..
- (بعـد لحظـات مـن الصمـت): لا أعـرف كيـف أشرح لـك.. إنـه يقـين ترسـخ داخـلى تدريجيّـاً.. عـشرات بـل مئـات التفاصيـل وجـدت نفـسى أعرفهـا وأتعايـش معهـا وكأنـنى مـررت بهـا مـن قبـل.. أو فلتقـل أنهـا ذكريـات قديمـة مهملـة.. بـرغـم أنـنى متأكـد أنـنى لـم أعشـها قبـلاً.. ثـم هنـاك الــ.. (صمـت)..
- الـ (ماذا)..؟..
- الأحـلام..
- الأحـلام..؟..
- نعـم.. مـا أن أسـتلقى فى فـراشى وأسـتغرق فى النـوم حـتى أجـد غرفـتى

وعالمـى كلّـه يتلاشـيان مـن حـولى.. كمـا يحـدث فى السـينيما.. فى لحظـةٍ واحـدة أجـد نفســى أسـير فى أحيــاء (الأنفوشــى) و(كرمــوز).. روائح العطن والزفـارة تمـلأ أنفـى.. أتلفـت حـولى فـأرى الـبيوت العشـوائيّة القديمـة المتهالكـة.. الوجـوه الشـاحبة المصفـرّة.. أجـد نفـسى جالسـاً عـلى أريكـة متهالكـة فى صالـة مـنزل ضيّـق كالقـبر.. أحيانـاً فى الفـراش أضاجـع إمـرأة بدينـة أوقـن مـن داخـلى أنّهـا زوجـتى (محفوظـة).. أداعـب طفلـين شـقيين كالشـياطين أعـرف جيّـداً أنهمـا ولـدىّ.. أحيانـاً أخـرى أرى نفـسى عاكفـاً عـلى ماكينـة خراطـة فى مصنــع أمـارس عمـلاً أفاجـأ بنفـسى أجيـده بكفـاءة عاليـة..

- ....

- (يتنهـد): عـشرات الوجـوه والأماكـن أراهـا وأتعامـل معهـا وكأنـنى أعرفهـا طيلـة عمـرى، برغـم أنى متأكـد مـن أنـنى لـم أرهـا مـن قبـل..

لحظات من الصمت ثم:

- هل تتعاطـ ززززز ... ددززز... درات أو عقاقير الهلوسة..؟..

- فعلت وتوقفت عن ذلك منذ سنوات طويلة كما سبق وأخبرتك..

- هل سبق وعانيت من الوساوس والضلالات..؟..

- لا.. لا..

- مـا الّـذى جعلـك تفكـر فى تناسـخ الأرواح..؟.. لمـاذا لا تكـون أحلامـك مجـرّد أحـلام عاديّـة..؟..

- ليست كذلك.. صدقنى..

- ولماذا اصدقك..؟..

- (يتنهد مرّة اخرى): لأنها ليست أحلاماً بالفعل.. ولأننى.. (صمت)..

- لأنّك ماذا يا باشمهندس..؟..

- لأنـنى ذهبـت بالفعـل إلى المـكان الّـذى أرانيـه أعيـش فيـه فى أحلامـى.. وهنـاك تأكـدت أنّهـا ليسـت مجـرّد أحـلام..

***

الجزء الثانى

البحث

-٦-
أمل الشافعى

لـم أرد دكتـور (حـازم) أن أحـضر جلسـاتك مـع (أحمـد) منـذ البدايـة حـتى يتحـدث معـك عـلى سجيّتـه بالرغـم مـن أنـى اقترحـت عليـه منـه أن يلجـأ إليـك.. بالطبـع أعـرف حضرتـك مـن قبـل.. إبنتـك (آيـة) كانـت إحـدى طالبـاتى عندمـا تـم انتـدابى لمـدة عـام للتدريـس فى (بارادايـس كولـدج).. كنـت آنـذاك معيـدة بكليّـة الآداب قسـم الإعـلام بجامعـة (الإسـكندريّة) قبـل إقالـتى.. مـاذا..؟.. أى سـؤال بالطبـع.. تفضـل.. لمـاذا أُقلـت..؟.. بعـض الخلافـات مـع مجلـس الكليّـة بخصـوص مشروعـات الطـلاب.. مشروعـات أشرفـت عليهـا تـم رفضهـا وأخـرى تـم حـذف بعضهـا، والسـبب هــو مخالفتهـا لسياسـة الجامعــة.. وعندمـا اعترضـت، أبلغـنى أحد أسـاتذتى أن الأمـن هـو الّـذى رفـض وحـذف، وأنّ مجلـس الكليّـة لا يملـك مناقشـته، وحـذّرنى مـن أنـى تحـت المراقبـة.. بعـد أيّـام صـدر قـرار بفصـلى فصـلاً نهائيّـاً.. هــه.. لا داعـى للأسـف يـا دكتـور.. أنـا سـعيدة جـداً فى عمـلى الحـالى كمنتجـة منفـذة فى محطـة (asc).. بالطبـع صرت أتجنـب البرامـج ذات الطبيعـة السياسـيّة بـعد الـدرس الّـذى تلقيتـه فى الجامعـة، وتوافـق هـذا مـع الاتجـاه العـام فى محطـة (asc).. مـا عيـب البرامـج الترفيهيّـة..؟.. قبـول واسـع لـدى شرائـح عديـدة مـن الجمهـور.. شـهرة لا بـأس بهـا.. دخـل مناسـب.. المهـم هــو الحفـاظ عـلى مستوى معـين مـن الإحـترام لا أتنـازل عنـه بأيّـة صـورة..

يبدو أننا ابتعدنا كثيراً عن الموضوع.. آسفة لثرثرتى..

سـمعت عـن الباشـمهندس (أحمـد خشـبة) للمـرّة الأولى عندمـا اسـتدعانى الدكتـور (حافـظ تمّـام) نائـب رئيـس مجلـس إدارة المحطّـة، وأخـبرنى أنّ السـيد (رأفـت عابديـن) مالـك المحطـة ورئيـس مجلـس إدارتهـا يبلغـنى بـأنّ مهندسـاً مـن طرفـه سـيتولى تصميـم ديكـورات البرنامـج الجديـد -الّـذى أتـولّى أنـا تنفيـذ إنتاجـه- والإشراف عـلى تنفيذهـا.. صراحـةً كان الأمـر غريبـاً ومسـتفزّاً بالنسـبة لى.. القواعـد المتعـارف عليهـا فى عملنـا تجعلـنى أختـار الفريـق الّـذى يعمـل معـى دون تدخـل مـن أحـد مادمـت قـد تولّيـت

مقاولـة تنفيـذ إنتـاج البرنامـج.. صارحـت الدكتـور (حافـظ) بهـذا، وأخبرتـه بأنـى ليـس لـدىّ إستعداد لتحمّـل خسـائر ماديّـة بسـبب مـا قـد ينجـم عـن اختلافـات فى وجهـات النظـر قـد تحـدث بيـنى وبـين المهنـدس الجديـد، فطمأنـى بأنّـه مهنـدس متمـيّز تلقـى تعليمـه فى الخـارج..

- ولكـن يـا دكتـور (حافـظ).. العلـوم النظريّـة شئ، والتنفيـذ العمـلى شئ آخـر..

- (مبتسـماً): أعلـم ذلـك بالطبـع.. و(رأفـت) بـك يعلمـه أيضـاً.. غـير أن أمر هـذا الشـاب يهمّـه جـداً.. ولـم يجـد أحـداً سـواك ليسـتأمنه عليـه فى العمـل.. هـو يثـق كثـيراً بـك، وبقدرتـك عـلى التعامـل معـه بمرونـة، ويتعهـد بتحمّـل أيّـة خسـائر قـد يتسـبب فيهـا..

وهكـذا أُسـقط فى يـدى، وقبلـت العمـل معـه عـلى مضـض مجاملـةً لمالك المحطـة عـلى طريقـة تقديـم السـبت لتلقـى الأحد..

كان نطباعـى عنـه عندمـا التقيتـه للمـرّة الأولى عـلى شـاطئ (بورتـو مارينـا) - موقـع تصويـر أولى الحلقـات- لا بـأس بـه.. شـاب عـادى جـداً، لا يمـيّزه إلا نحافتـه الواضحـة.. ملامـح دقيقـة.. سكسـوكة خفيفـة تحيـط بفمـه.. وعندمـا ابتسـم، بـدا واضحـاً أن جـزءً مـن إحـدى سـنتيه الأماميّتـين قـد تهشـم..

برغـم نحولـه وشـحوب وجهـه والهـالات السـوداء المحيطـة بعينيـه -دليـل الإفـراط فى السـهر- إلا أنّـه كان جـم النشـاط.. جلـس معنـا -مخـرج البرنامـج وأنـا- واسـتمع إلى فكـرة البرنامـج وسـيناريو الحلقـة الأولى، والمطالـب الخاصـة المطلـوب توفرهـا فى الديكـور وغيرهـا مـن النقـاط الهامـة، ثـم قـام بعمـل معاينـة لموقـع التصـوير، ووعـد بإنجـاز التصميم خـلال أيّام..

كنـت صريحـة معـه منـذ البدايـة.. أخبرتـه أنـى كنـت أتعامـل مـع مهنـدس آخـر أرتـاح لـه فى العمـل، وأنّـه مفـروض عـلىّ مـن طـرف مالـك المحطّـة، وطلبـت منـه أن يتعـاون معـى كىّ لا ينهـار العمـل، فأبـدى موافقتـه وتحمّسـه، وكان ذلـك هـو أوّل هـدف يحـرزه فى مرمـاى..

أمّـا الهـدف الثـانى، فـكان عندمـا عـاد فى الموعـد المحـدد بالضبـط حامـلاً الــlab top الخـاص بـه، وأخـبرنى أنّ التصميمـات جاهـزة..

***

- (ضاحكـاً): مـا موضـوع الأهـداف هـذه..؟.. هـل تحبـين كـرة القـدم إلى هـذه الدرجـة..؟..

- أحبهـا بجنـون.. أنـا أهلاويّـة متعصّبـة.. وأكـم مـن مباريـات حيّـة تابعتهـا في الإسـتاد مباشرةً مـع زوجـي وطفـلي.. بالمناسـبة : حضرتك أهـلاوي أم..؟..

- (مقاطعاً بسرعة): أعـوذ بالله.. أهـلاوي طبعاً..

(ضحك) ثم...

- كم عمر طفلك الآن..؟..

لحظة من الصمت ثم..

- (بهدوء): كان في السادسة من عمره عندما توفّـاه الله..

***

القصّـة المعتـادة .. ذبـول و إصفـرار .. إسـهال مسـتمر .. قئ لا ينقطـع .. أهـرع بالطفـل مـع (مجـدي) – زوجـي – إلى المستشـفى.. طبيـب الطـوارئ الشـاب يفحـص الطفـل ..

- الحالة واضحـة : تـلبك معـوي ناتج عن تناول أغـذية ملوثة..

- (بهلع) : و الحل يا دكتـور ..؟..

- (يخط التذكرة الطبيّة) : لابد من حقنه بهذه الأدوية على الفور ..

البحـث عـن صيدليّـة في شـوارع (زهـراء مدينـة نـصر) الخاليـة – كنّـا آنـذاك نقيـم في (القاهـرة) حيـث مقـر عمـل زوجـي- قـرب الفجـر (فصيدليّـة المستشـفي مغلقـة) .. الوقـت يجـري بسرعـة .. نعـثر عـلى واحـدة في (الحي العـاشر) .. نحقـن (ميـدو) – الطفـل – بالأدويـة و ننتظـر ...

لا جـدوى .. الحالة تسوء أكثر و أكثـر ..

نهـرع إلى المستشـفى مـرة أخـرى.. عنـد الظهـر يمـرّ رئيـس القسـم.. يقـرأ البطاقـة العلاجيّـة.. يفحـص الطـفـل.. يقطـب حاجبيـه.. يتسـاءل بغضـب:

- هــذه حالـة جفـاف واضحـة لأي أعمـى .. مـن الأحمـق الّـذي شـخصها عـلى أنّهـا تلبـك..؟..

تجيب الممرّضـة وهي ترتجف:

- الدكتور (فـادي جبـر)..

يصمت لوهلـة.. يضـم شـفتيه بقـوّة.. الغضـب يتقافـز من عينيـه.. فيما بعـد عرفـت أن الدكتـور (فـادي جـبر) هـو إبـن شـقيق عميـد كليّـة الطـب..

يهتـف بالممرّضــة بـأن تتحـرك بسرعـة لتجلـب لـه أدويـة جديـدة ..
الحركــة تتزايــد و تتســارع حــول فــراش طفــلى .. الكثــير مــن التوتــر والــصراخ.. الوقــت يمــرّ.. الحالــة تــزداد ســوءاً.. و....

***

- آسف جداً.. البقاء لله..
- ميرسى.. ولكن لم تعتـذر..؟..
- على تذكيرى لك بالموضوع..
- لا داعى للإعتـذار.. فذكراهما لا تبارح مخيّلتى أبداً..
- ذكراهما..؟.. من تقصديـن بالضبط..؟..
- أقصـد طفلى وزوجـى بالطبع ..

***

لم يتحمّل (مجدى) الصدمة طويلاً..
بـدا متماسـكاً بشـكل غريـب أمـام النـاس والمعزّيـن فى أيّـام العـزاء الأولى، بينمـا كنـت أنـا فى حالـة إنهيـار تـام وبـكاء مستمر.. وعندمـا يجـن الليـل، وينـصرف آخـر المعزّيـن.. كنـت أجـده يدلـف إلى غرفـة الراحـل ويغلـق الباب عـلى نفسـه.. كنـت أدخـل الغرفـة وراءه فأجـده جالسـاً يحـدق بـشرود فى الـلاشئ.. ساعات الليـل تتـوالى وهـو لا يغـير رقدتـه، إلى أن يغلبـه النعـاس فينـام حيـث هـو..
ولـت أيّـام العــزاء عــلى هــذا النحــو.. وظـل هــو بعدهــا عــلى نفــس الحــال.. يقــضى وقتــه فى غرفــة الصغــير الراحــل.. لا يســتجيب لى ولا لأصدقائـه أو أفـراد أسرتـه.. أصابـنى الرعـب.. طلبـت مـن زملائـه وأصدقائـه الحضـور ومحاولـة إخراجـه مـن هـذه الحالـة الّـتى أصابتـه، ولكنّـه امتنـع عـن مقابلـة أيِ منهـم.. توقـف عـن الذهـاب إلى عملـه (وكان يعمـل مديـراً لتحريـر واحـدة مـن الصحـف ذائعـة الصيـت).. أصبـح يتنـاول أقـل القليـل مـن الطعـام.. ثـم قـضى نحبـه فى هـدوء بعـد أقـل مـن شـهرين مـن وفـاة طفلنـا..

***

فى تلـك الليلـة كنـت قـد إنصرفـت مبكـراً عائـدة إلى (الإسـكندريّة) لأطمئـن عـلى والـدتى بعـد أن عرفـت مـن صوتهـا المختنـق (عندمـا هاتفتهـا) أنّهـا

بـدأت تصـاب بنزلـة بـرد.. رتّبـت كل التفاصيـل مـع المخـرج و(ميخائيـل) – مسـاعدى الشـاب– وتأكـدت مـن أن كل شئ عـلى مايـرام.. بحثـت عـن الباشـمهندس (أحمـد) لأبلغـه بانـصرافى فلـم أجـده.. طلبـت مـن (ميخائيـل) أن يفعـل، ثـم اسـتقللت سـيّارتى وتوكلـت عـلى الله..

- (صوت أجش مألوف): إتفضلى يا داكتورة..

لسـبب مـا لا أعرفـه يـصر عـم (حبـشى) العجـوز الطيّـب صاحـب كشـك السـجائر و الخـردوات عنـد ناصيـة شـارعنا عـلى منـاداتى بــ «الداكتـورة».. ويـصر أيضـاً عـلى دعـوتى يوميّـاً عنـد ذهـابى لعمـلى صباحـاً وعنـد عـودتى منـه فى المسـاء كىّ «أتـَفضل».. ألـبى دعوتـه وأشـترى منـه علبـة (مارلبـورو) وباكـو كلوريتـس وأتجـاذب معـه أطـراف الحـوار لدقيقـة، يخـبرنى خلالهـا دومـاً أنّ..

- ربنـا وحـده الـلى يعلـم معزّتـك فــ قلـبى يـا داكتـورة.. زى (لبـنى) بنـتى بالظبـط والله.. أصلـك بنـت حـلال مصفـى وبتفكريـنى بالمرحـوم أبـوكى.. مـا هـو كان حبيـبى زى مـا انـتى عارفـة..

- ربـنا يديم المعروف ويخليك لينا يا عم (حبشى)..

- وازىّ صحة الست الحاجة..؟..

- بخير الحمد لله..

حـوار يتكـرر مرتـين يوميّـاً، أصبـح جـزءاً مـن روتيـنى اليومـى، أفتقـده كثـيراً عندمـا يغييـب عـم (حبـشى) لأى سـبب..

فى مـنزل أسرتى وجـدت أمـى بحالـة لا بـأس بهـا رغـم بـوادر الأنفلونـزا الواضحـة عليهـا المتمثّلـة فى إحمـرار أنفهـا و عينيهـا وغـزارة سـعالها.. أعـدت لهـا (إيمـان) إبنـة شـقيقتى مَـج كبـير مـن النعنـاع السـاخن، ثـم نهضـت بنشـاط لتعـد لى واحـداً بمجـرّد وصـولى.. تناولتـه منهـا شـاكرة.. كنـت أرغـب فى قـضاء سـهرتى فى القـراءة.. وقبـل ذلـك أردت الانتهاء من بعـض الأعمال.. بحثـت عـن الـلاب تـوب الخـاص بى فلـم أجـده.. هبـطت إلى الشـارع حيث موضـع سـيّارتى لأبحـث عنـه .. غـير موجـود.. إنتابـنى حنـق شـديد عندمـا فكّـرت أنـنى نسيته مـع تعجـلى فى موقـع التصويـر.. حاولـت الإتصـال بــ (ميخائيـل) عـلى هاتفـه المحمـول ليمـرره عـلىّ أثنـاء عودتـه.. لا جـدوى.. لابـد أنّهـا مشـاكل الشـبكة المعتـادة..

إلتقطـت نفسـاً عميقـاً لأبتلـع إنفعـالى.. فكـرت للحظـات.. نظـرت إلى عقـارب سـاعتى.. الثامنـة مسـاءً.. يمكنـى الذهـاب والعـودة فى سـاعتين.. أبلغـت والـدتى أنـى ذاهبـة ولـن أتأخـر..

عندمـا وصلـت إلى موقـع التصويـر كان الظـلام قـد حـلّ بالمـكان كلّـه.. الجميـع انصرفـوا ماعـدا رجـلىّ الأمـن.. حييتهمـا..

- سـلام ورحمـة الله.. خـير إن شـاء الله يـا مـدام.. نسـيتى حاجـة والـلا إيـه..؟..

- أيوه يا (قطب).. نسيت بس اللاب توب بتاعى فـ الكارافان..

- تحبى أروح أجيبهولك..؟..

- كتر خيرك.. خليك انت أنا هـاروح أجيبه..

غـادرت السـيّارة ومشـيت نحـو الكارافـان.. ألقيـت نظـرة عـلى عقـارب سـاعة يـدى الفسـفوريّة.. التاسـعة مسـاءً.. لا بـأس.. سـاعة أخـرى وأكـون فى المـنزل إن شـاء الله..

كان الكارافـان مظلمـاً مـن الداخـل.. ضغطـت زر الإنـارة.. جلسـت إلى مكتـبى.. ضغطـت أحـد الأزرار ليختفـى الـ screen saver.. أغلقـت الجهـاز ووضعتـه فى حقيبتـه، واسـتدرت لأنـصرف عندمـا سـمعت الأنيـن..

أجفلـت والتفـتّ بحركـة حـادة.. نظـرت إلى الفـراش الصغـير الموضـوع فى نهايـة الكارافـان.. إلى الجسـد الممـدد عليـه.. تملّكـنى الرعـب وأنـا أتسـاءل عمّـن يكـون.. كـدت أهـرع لأنـادى رجـلىّ الأمـن مـن الخـارج لـولا أنـى تعرّفـت صاحـب الجسـد النائـم..

كان الباشـمهندس (أحمـد) غارقـاً فى نـومٍ عميـق.. إقتربـت منـه.. غريـب هـذا.. قطـرات العـرق تمـلأ جبهتـه.. صـدره يعلـو ويهبـط باسـتمرار.. ملامحـه تتقلّـص وكرتـا عينيـه تتحـرّكان يمنـة ويـسرة مـن خلـف جفنيـه المطبقـين.. وثمـة أنـين خافـت يخـرج مـن بـين أسـنانه وكأنّـه يعـانى آلامـاً مبرحـة.. لابـد أنّـه يحلـم بكابـوس.. ولاحظـت للمـرّة الأولى ذلـك الوشـم الّـذى يمثـل ثعبانـين يـدوران حـول جمجمـة قبيحـة الشـكل، والمطبـوع عـلى ذراعـه قـرب المرفـق..

مددت يدى.. هززته برفق..

- (أحمد)..

لم يستجب.. هزرته بقوّة أكبر، وناديته بصوت أعلى..
المزيد من التقلّص.. المزيد من الأنين.. و..
وبغتـة فتـح عينيـه، وشـعرت بأصابعـه تلتـف حـول سـاعدى بقـوة آلمتـنى.. الأنـين الخافـت تحـوّل إلى صرخـة مدويّـة جمـدت الدمـاء فى عـروق..
أجفلـت مـرة أخـرى.. صرخـت وأنـا أجـذب ذراعـى بعنـف.. أفلتـنى.. نظـر مبـاشرة إلى عيـنىّ.. يـالله.. لا أعتقـد أنـى سـأنسى مشـهد عينيـه طيلـة عمـرى وقـد إمتلأتـا بهـذا القـدر مـن الرعـب.. إرتعـش جانـب فمـه.. دارت عـيناه فى المـكان وكأنّمـا يتأكّـد مـن أنّـه اسـتيقظ.. ثـم انفجـر فى بـكاءٍ حـار..
فى اللحظـة التاليـة.. إنفتـح بـاب الكارافـان بعنـف – وكان مواربـاً– واندفـع عـبره رجـلا الأمـن..
- فيه إيه يا مدام..؟..

***

- نامت..؟.. هل أعـددت لها الشوربة..؟.. جميل.. ربنا يخليكى يا (إيمى).. شكراً يا حبيبتى.. لا.. سأتأخر قليلاً.. لا تشغلى بالك.. تصبحين على خير..
أنهيـت المكالمـة ووضعـت الموبايـل عـلى المكتـب.. إلتفـتّ إلى (أحمـد) الّـذى كان يحســوالشاى مـن كـوب ورقى صغيـر بـين أصابعـه.. سـألته:
- منذ متى..؟..
- (بتوتـر): منـذ إسـبوع كامـل.. كل ليلـة.. نفـس الأحـداث.. نفـس الوجـوه.. نفـس النهايـة البشـعة.. الاحـتراق بـين ألسـنة النـيران..
وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، ونفث الدخان مضيفاً:
- الأمـر يختلـف عـن الـرؤى الّـتى كنـت أراهـا طيلـة الأسـابيع الماضيـة الّـتى حدثتـك عنهـا منـذ لحظـات..
سألته وأنا أنفث دخان سيجارتى:
- أتقصد تلك الرؤى الخاصة بالعمّال وإضرابهم..؟..
- (يهز رأسه بقوّة): نعم..
وصمت لحظة ثم أردف:
- عـلى مـدى الأسـابيع الماضيـة كنـت أسـتغرق فى النـوم، وكأنـى أدخـل عالمـاً آخــر.. أحيـا حيـاة أخـرى.. وعندمـا أسـتيقظ يلتبـس عـلىّ الأمـر.. لا أدرى مـن أنـا ولا أيـن أنـا.. أظـل لبرهـة الأسـطى (عمّـار) العامـل المعتقل..

أتأمـل -مندهشـاً- المـكان مـن حـولى، ثـم لا ألبـث أن أسـتعد وعـى بهويّـتى الأصليـة.. ثـم ذلـك الأنـين..

- ماذا عنه..؟..

- يظـل يـدوى متقطّعـاً فى أذنىّ وعقـلى مـن آنٍ لآخـر.. وكأنّ أحدهـم يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة بالقـرب منّى بعـد أن مٌـزق إربـاً..

- وهل يعلم أحُد ممّن حولك بما تمرّ به..؟..

رشفة من الشاى ثم..

- لا..

ظللت أتطلّع إليه للحظات.. سألنى بعصبيّة:

- ألا تصدقيننى..؟..

تجاهلت سؤاله، وسألته:

- إسمح لى.. هل تتعاطى أى نوع من المخدرات..؟..

- (متوتراً): حالياً.. لا..

نفثـت دخـان سـيجارتى.. أطرقـت بـرأسى مفكـرة.. لايبـدو كاذبـاً.. القصّـة غريبـة حقـاً، وتشـبه أفـلام السـينما.. ولكـن مـا تفسـير هـذه الأحـلام..؟.. هـل هـى حقـاً مجـرد أحـلام أم..؟...

رفعت عينىّ إليه وسألته:

- ألم تفكر فى الذهاب إلى الأماكن الّتى تراها فى أحلامك..؟..

***

نظـر إلى ساعة معصمه متسائلاً بتوتر:

- أليس الوقت متأخراً للقيام بمثل هذه المغامرة..؟..

أجبته وأنا أبحث ببصرى عن مكان فارغ لإيقاف السيّارة:

- أيّـة مغامـرة..؟.. إنّـك فقـط سـتلقى نظـرة عـلى الشـوارع والأماكـن الّـتى تراهـا فى أحلامـك..

- وما الغرض..؟..

إنشــقّت الأرض ليظهــر شــاب نحيــل ممصــوص الجســد يرتــدى ثيابــاً متسـخة.. راح يلـوّح لى بذراعيـه مرشـداً لأتمكـن مـن إيقـاف السـيّارة فى فرجـة ضيّقـة بـين سـيّارتين..

- أغسلها يا مدام..؟..

- (وأنا أغادر السيارة): شكراً..
- ٢ جنيه رسم إنتظار..
مثـل هـذا الموقـف يثيـر غيظـى دومـاً ويدفعـنى إلى رفـض الدفـع.. غـير أنـى لـم أكـن أملـك وقتـاً و لا بـالاً للشـجار هـذه المـرّة.. نقدتـه المبلـغ، فاختفـى مـن أمامـى فى أقـل مـن الثانيـة..
- (ونحـن نسـير متجاوريـن): هنـاك تفسـير مـا يـدور بذهـنى أريـد التأكـد منـه..
- ....
لاحظـت أنـه لـم يسـمعنى أصـلاً.. عينـاه مشـدوهتان تزحفـا عـلى المبـانى والوجـوه والشـوارع.. العـرق يسـيل عـلى جبهتـه.. فمـه مفتـوح قليـلاً.. وثمـة رعشـة خفيفـة تغـزو خـدّه الأيمـن.. سـألته بقلـق:
- (أحمد).. ماذا دهاك ..؟..
إلتفت إلىّ.. حدّق فى وجهى قائلاً بنبرة غريبة:
- مالى..؟.. مآنى كويّس أهه..
مـالى..؟.. مـآنى كويّـس أهـــه..!!... فكّـرت.. منـذ مـتى تتحـدث باللهجـة الإسـكندرانى يـا باشـمهندس..؟.. هـل هـو مجـرّد تأثـر بالجـوّ المحيـط، أم أنّ مـا أفكـر فيـه صحيـح..؟..

***

لماذا قررت الذهاب معه..؟..
لا أجـد جوابـاً كامـلاً لمثـل هـــذا السـؤال يـا دكتـور (حـازم).. لربمـا كانـت عـدة أسـباب تفاعلـت فى أعمـاق لتدفعـنى إلى مرافقـة هـذا الشـاب المضطـرب إلى أزقّـة (كرمــوز) بعـد منتصـف الليـل..
هـل هـو تعاطـف إنسانى عـادى مـع شـخص مـا يمـر بأزمـة نفسـيّة..؟.. أم هـى مـا يمكـن أن نسـمّيها صـداقة تكوّنـت بيننـا خـلال الأسـابيع الماضيـة تفـرض علـىّ أن أقـف بجانبـه..؟..
هـل غريـزة الأمومـة المكبوتـة بداخـلى وجـدت لهـا مخرجـاً..؟.. أم تراهـا مشـاعر الأنـثى تتحـرّك فى أعمـاق بـعد أعـوام مـن السـبات..؟.. وإذا كان جـواب التسـاؤل الأخيـر هـو نعـم.. فلِـمَ هـذا الشـاب بالـذات..؟..
عمومـاً أيـاً كان الجـواب، فالنتيجـة أننـا الآن نسـير متجاوريـن فى (درب

خزيـم) بــ (كرمـوز) محاذريـن الخـوض فى بِـرَك الميـاه الآسـنة وفضـلات الحمـير..

***

- الراجـل الـلى إسـمه (الشـوربجى) صاحـب القهـوة الـلى هنـاك دى ماعنـدوش لا ذمـة ولا ضمـير.. أوسخ معسّـل فيـكى يـا (اسكندرية) تشربيـه عنـده.. الـواد (عطـوة) صـبى الفـرن الـلى عـلى ناصيـة الحـارة بيقـول إنـه بييجـى بالليـل بعـد النـاس ماتـروّح بيوتهـا ويلـم ولامؤاخـذة بعـر الحمـير الناشـف م الأرض، وياخـده يطحنـه ويخلطـه بالمعسـل (الـلى هـوّ أصـلاً زبالـة).. تفـوو (يبصـق)..

هل أحلم أم أن ما تسمعه أذناى حقيقى..؟..

- كل يـوم والتـانى (محفوظـة) مـراتى تتعـارك مـع المَـرَة الـلى إسـمها (توحـة) الـلى سـاكنة فــ الأرضى.. نرجـع م الشـغل نلاقيهـا قاعـدة تسـب وتلعـن فيهـا وفيّـا.. ليـه يـا مَـرَة..؟.. عشـان عيـنى منهـا وبننـام معهـا كل ليلـة مـن سـاعة جوزهـا المعلّـم (ابراهيـم) صاحـب البيـت مـا رَقَـد مـن سـنتين.. نحلفولهـا انّى تبـت عـن صنـف النسـوان مـن يـوم مـا إنطسّـيت فــ نـواضرى واتجوّزتهـا.. إنّمـا تقـولى لمين..؟..عايـزة الحـق.. المـَرَة (توحـة) دى ماتعرفـش تغمـض عنيهـا وتنـام غـير بعـد مـا تتركـب ولامؤاخـذة.. والمعلـم (ابراهيـم) جوزهـا مبقـاش ييجـى منـه.. فضلـت ورايـا لحـد مـا سـحبتنى زى البغـل عـلى سريرهـا.. مـرة واتنـين وتلاتـة.. آنى عـارف انى غلطـان بـس أنى برضـه طمعـان فــ رحمـة ربنـا وحاسـس انـه هايسـامحنى.. أمّال يـا سـت.. ده برضـك الغفـور الرحيـم..

ذهــول شـديد إنتابـنى.. يتحـدث بـاللهجـة العاميّـة بطلاقـة.. يلـوّح بذراعيـه.. الـرذاذ يتطايـر مـن فمـه.. كأنمـا تقمّصتـه روح أخـرى..

- أنـا أمـى لمّـا ماتـت مازعلتـش وحمـدت ربنا..عارفـة ليـه..؟.. أصلهـا اتعذبـت أوى قبـل مـا تمـوت.. كان عندهـا المـرض الوحـش بعيـد عنّـك.. كنـت بنقعـد قدّامهـا وهـى بتتوجّـع وقلـبى بيتقطّـع.. نبـكى ونقولهـا آنى فـداكى يامـه.. مـآنى ماكانـش حيلـتى غـير الـكلام والبـكا بعـد مـا الداكتـور فــ المستشـفى المـيرى قـال مفيـش فايـدة م العـلاج.. أصـل الأم غاليـة أوى يـا مـودام.. وآنى كنـت بنحـب أمـى أوى..

مستحيل.. ليس هـذا تمثيلاً.. عيناه تلتمعان بدموع حقيقيّة..
- بنفرحـو قـوى ف اليـوم بتـاع الانتخابـات.. الشـغل بيقـف.. بيركبونـا أوتوبيسـات المصنـع، ويطلعـوا بينـا عـلى اللجنـة ودفاتـر الانصراف تفضـل ع البـاب.. ندخلـو نـدى صوتنـا للهـلال والجمـل ونطلـع نمـضى انـصراف و نعكشـو عـشرة عشريـن جُنـد ونـرد عـلى بيوتنـا طـوّالى..
- (أحـــــمـد)..!! ...
- نقولّـك عـلى حاجـة..؟.. آنى بنحـب عيـالى أكـتر مـن أى حاجـة ف الدنيـا.. بنخـاف لانمـوت بـدرى زى ابويـا مـا مـات، و نسـيبهم يتلطّـموا ف الدنيـا زى آنى واخـواتى ماتلطّمنـا.. أصـلى ابويـا مـات و آنى لسـاى عيـل.. تفتكـرى العبّـارة الـلى غرقـت فـ البحـر..؟.. هـا..؟.. أهـا آنى ابويا كان عـلى ضهرها.. غـرق والسـمك كلـه ومحـدّش عتـر لـه عـلى جتـة.. لسـة لحـد دلوقـت فاكـر منظـر امـى الله يرحمهـا وهيّـا بتشـيل الـتراب و تحطـه فـوق راسـها.. مـن سـاعتها يـا مـودام ماشـفناش يـوم عـدل.. آنى بقـى خايـف عـلى عيـالى لايشـوفوا الغلـب الـلى شـفته.. نفسـى أعيّشـهم مسـتوريـن.. أوكلهـم لقمـة نضيفـة.. يتعلّمـوا ويبقـوا أسـاتذة.. ويسـيبوا الحـارة الوسـخة دى ويسـكنوا ف حتـة نضيفـة ع الشـارع..
- (بصوتٍ أعلى): (أحـــــــمد)...!!!! ....
- طـب انـتى عارفـة آنى خـدونى ف المصنـع ازاى..؟.. نقولـك.. الحكايـة إن الحـاج (عمـران الشـايب) بتـاع البـودرة كان نـازل انتخابـات مجلـس الشـعب عـن دايـرة (كـرموز).. الـلى كان نـازل قصـاده الحـاج (مدبـولى أبـو منصـور) وده راجـل بتـاع ربنـا زى مانـتِ عارفـة وخـيره ع النـاس كلهـا.. (الشـايب) كان مسـوى أمـوره مـع الحكومـة.. بعـت جابنـا.. وَكِلنـا وشرّبنـا وكيفنـا.. وعـدنا إنـه يشـغلنا فـ المصنـع الـلى جـوز بنتـه مسـتوظف فيـه لـو وَقفنـا معـاه يـوم الانتخابـات.. عايـزة الحـق..؟.. آنى فـ الأوّل كشـيت.. أصـلى نعـز الحـاج (مدبـولى) والراجـل خـيره مغرقـنى.. بـس الفرصـة مابتجيـش للواحـد غـير مـرّة.. يـا يمـد إيـده ويخطفهـا.. يـا يقعـد زى المَـرَة حاطـط إيـده عـلى خـده طـول عمـره.. ماكانـش ينفـع نقولـو لأ.. كلنـا حَسـبناها كـده..
وصمـت لحظـة قبـل أن يـشرد ببـصره -أتراهـا دمـوع تلـك الـّتى تلمـع فى عينيـه..؟!!- بعيـداً ويتابـع كأنّـه يحـادث نفسـه:

- دى كانـت آخـر مـرّة نغضـب ربنـا.. مـن سـاعتها يـا سـت هانـم وآنى مـاشى فــ حـالى.. ومامشـيش ليـه..؟.. ربنـا كرمـنى آخـر كـرم وبقيـت عامـل مسـتوظف فــ المصنـع.. إتجَـوّزت وبقـالى بيـت وعيـال.. بـقيـت نصـوم ونصـلى الفـرض بفرضـه.. الحمـد لله (يقبـل يـده وجهـاً و ظهـراً)..

- أسـطى (عـــمّار)..!!!....

هنا إلتفت إلىّ.. تأمّلنى بتعّـن..

- نعمين يا ست هانم..؟..

- (بابتسـامة مرتبكـة): إنـت مـش نـاوى تعزمـنى عـلى كوبايـة شـاى ف البيــت..؟..

ظلّ ينظر إلىّ للحظات ثم..

- (بترحـاب): يـا سـلام ..!!.. كوبايـة شـاى..؟!!.. دا سـعادتك لازمـن تتعشّـى معانـا.. إتفضـلى اتفضـلى.. البيـت مـش بعيـد.. خطوتـين مـن هنـا.. دى (مرحفوظـة) هاتفـرح قـوى لمّـا تشرّفينـا.. داحنـا زارنـا النـبى..

راح عقـلى يعمـل بسرعـة.. مـن الواضـح أن مـرأى المـكان فجّـر فى عقلـه شـلال مـن الذكريـات المنسـيّة.. ذكريـات عـن حيـاة الأسـطى (عمّـار) الّـذى يـراه فى أحلامـه طيلـة الأسـابيع الماضيـة.. ولكـن لمـاذا..؟.. مـا الّـذى يربـط بـين فـتى (بارادايـس هايتـس) وقاطـن (درب خزيـم)..؟.. ولمـاذا الآن..؟..

كان تفسـير تناسـخ الأرواح يطـرح نفسـه بقـوّة.. الواقـع أنـه طـرأ عـلى ذهـنى منـذ سـمعت القصّـة لأوّل مـرّة.. هـذا الفـتى المرفـه عـاش فيمـا سـبق حيـاة أخـرى تتناقـض تمامـاً مـع حياتـه الحاليـة.. غـير أنّ ذكريـات هـذه الحيـاة السـابقة – ولسببٍ لا أعلمـه- بـدأت تعـاوده بقـوّة فى أحلامـه، وتشـغل ذهنـه فى يقظتـه.. الأمرغريـب فعـلاً.. ويتناقـض مـع قواعـد العقـل والمنطـق، ومبـادئ الديـن.. ولكنـه قـد يكـون تفسـيراً منطقيّـاً إلى حـدٍ مـا..

مـا حـدث هـو أنـى تذكـرت –عندمـا روى لى (أحمـد) مشـكلته- قصـة الطفـل الهنـدى (برامـود شـارما).. ذلـك الطفـل الّـذى عـاش فى القـرن المـاضى فى مقاطعـة (بـاودن) الهنديّـة والّـذى اختلّـت حياتـه وحيـاة أسرتـه عندمـا راح يعلـن أنّـه –وهـو فى الثالثـة مـن عمـره- شـخص آخـر يـُدعى (بـارا مانانـد) عـاش ومـات فى (مـراد أبـاد) عـن عمـرٍ يناهـز التاسـعة والثلاثـين..

ذكرتـنى معرفـة (أحمـد خـشبة) بتفاصيـل حيـاة (عمـار) بمعرفـة (برامـود

شـارما) أدق تفاصيـل حيـاة الراحـل (بـارا ماناـنـد).. بيتـه.. أفـراد أسرتـه.. متجـره.. عملـه كمـديـر لإحـدى مصانـع المياه الغازيّـة.. بـل وحـتّى تقنيّات تركيـب وتشـغيل وعمـل آلات المصنـع.. ألا تـرى أنّ التشـابه واضـح بـين الحالتـين..؟..

قفـز ذهـنى إلى هـذه الفكـرة الغريبـة متجـاوزاً تفسـيرات أخـرى قـد تكـون أكـثر منطقيّـة لمـا يمـرّ بـه هـذا الفـتى.. تذكـرت القصـة ووجـدت أنّ ثمـة تشـابه بينهـا وبـين مشـكلة (أحمـد)، فـكان أن عرضـت عليـه الذهـاب إلى المواضـع الّـتى يراهـا فى أحلامـه كمـا فعـل أهـل الطفـل الهنـدى (برامـود).. وكانـت المفاجـأة..

***

- أنتِ إذن إقترحت عليه فكرة تناسخ الأرواح..؟..

- (بتوتـر): لسـت مـن المؤيّديـن لهـذه الفكـرة.. ولكـن التقـارب بـين الوقائـع الّـتى يمـر بهـا (أحمـد) وقصـة الطفـل الهنـدى أثـار تعجـبى بالفعـل..

- من أين لك التأكيد من صحة القصة الهنديّة..؟..

- كنـت قـد قـرأت عنهـا مـن قبـل، وعندمـا تذكّرتهـا مـرّة أخـرى، بحثـت عنهـا فى بعـض المواقـع المتخصصـة عـلى النـت، فوجدتهـا مذكـورة فى أكـثر مـن موقـع.. دعـك مـن أنّـها ليسـت القصـة الوحيـدة، فهنـاك حـالات أخـرى كثـيرة تتشـابه وتختلـف مـع حالتنـا هـذه فى الوقائـع، ولكـن التفسـير والمغـزى يـدوران دومـاً حـول نظريّـة التناسـخ..

- وهل ترينها تفسيراً مقبولاً..؟..

- أعلـم أن الديـن يرفـض مثـل هـذه الأفـكار لتعارضهـا مـع فكـرة صعـود الـروح إلى بارئهـا بعـد الوفـاة.. ولكنـى لـم أجـد تفسـيراً آخـر لهـذه المشـكلة العجيبـة.. وبخاصـة عندمـا وجـدت (أحمـد) يتحـوّل كليـاً إلى الأسـطى (عمّـار) بمجـرّد أن اقتربنـا مـن (درب خزيـم).. أنـت لـم تـره آنـذاك.. لـم يكـن يمثـل أو يدّعـى.. كان الأسـطى (عمّـار) يسـير إلى جـوارى يثرثـر عـن ذكرياتـه ومشـاكله وأحلامـه.. يمـشى فى الشـوارع ببسـاطة وكأنـه يحفظهـا عـن ظهـر قلـب.. يتعـرّف الأماكـن والمحـلات والبيـوت ويحدثـنى عـن قاطنيهـا كأنّـه يعيـش بينهـم طـوال حياتـه..

- وهل ذهب بك إلى بيته..؟.. أعنى بيت الأسطى (عمّار)..؟..

- (تتنهد): لم نجد وقتاً..
- لماذا..؟..

***

واقفون ينتظروننا فى الظلام ..

لم ألحظهم فى بادئ الأمر.. غير أن (أحمد) فعل.. توقف عن الثرثرة.. تجمّد فى مكانه.. قبض على ذراعى ليمنعنى من مواصلة السير..

- ماذا حدث..؟..

لم يرد.. ظل ينظر بثبات إلى الطريق الضيّق المظلم أمامنا.. تطلّعت بدورى إلى حيث ينظر.. الظلام يغطى الزقاق الطويل الممتد لأكثر من عشرين متراً.. عمود الإنارة محطم خالٍ من أيّة مصابيح.. و..

هنا رأيتهم (وقد بدأت عيناى تعتادان الظلمة)..

- يا أهلاً وسهلاً..
- عندنا ضيوف الليلة..
- يالالى..

الصوت المبحوح الخارج من تحت لسان ثقيل والمميز لمتعاطى البانجو..

أصوات ضحكات.. ثم برز من الظلام رأس.. إثنان.. ثلاثة..

إنتابنى الرعب وأنا أتأمّل وجوههم السمراء النحيلة.. ذقونهم الغير حليقة.. الندوب المختلفة الّتى خلّفتها ضربات المطاوى.. العيون الزائغة المليئة بالشهوة والابتسامات التى تفوح بالشر.. رغماً عنّى ارتجفت.. تراجعنا للخلف بحذر..

- على فين..؟..

كليك.. صوت السوستة.. ثلاثة مطاوى تلمع فى الظلام..

- طلّع اللى ف جيبك يا نحنوح..

و...

- وشنطتك يا حِتة..

ببطء فتحت حقيبتى.. سمعت (أحمد) يقول بغضب:

- إنتوا جايين تقلّبونى فـ حتتي يا شويّة (....)..؟..

يخرب بيتك.. ألا ترى يا أحمق أنهم عاملين دماغ..؟.. فليأخذوا كل

شئ ويتركونـا أحيـاء..
نصل المطواة يضربه برفق على جانب وجهه..
- (.....)..؟؟!!.. ما إنت جامد أهوه ياله..!!..
رائحـة البانجـو والخمـر الرخيصـة تفـوح منهـم بقـوّة.. يـد أحدهـم تمتـد لتـنزع الحقيبـة مـن يـدى.. فوجئت بالأخـرى تزحـف عـلى صـدرى وتعتـصر ثـدىي.. وسـمعت أحدهـم -صاحـب اليديـن بالتأكيـد- يصـدر صوتـاً بذيئـاً مـن بـين شـفتيه..
- يالالى..
سرت رعـدة قويّـة فى بـدنى.. صرخـت، وأنـا أدفعـه عـنّى.. وفى اللحظـة التاليـة إرتفعـت يـدى حاملـة أنبـوب الـself – defence.. أغمضـت عيـنىّ.. وضغطـت الـزر...
فششششش... فشششششششش....
إندفـع الـرذاذ الحـارق ليغمـر وجهـه.. أطلـق صرخـة عاتيـة وهـو يغطـى عينيـه بكفـىّ يديـه.. هنـا تحـرّك (أحمـد).. إسـتغلّ تشـتت إنتبـاه الخنزيريـن مـع صراخ ثالثهمـا.. إرتفعـت أصابعـه لتزيـح المـطواة عـن عنقـه، وانحـنى بسرعـة الـبرق ليلتقـط حجـراً مـن الأرض.. يـده ترتفـع بالحجـر ثـم تهـوى بـه عـلى رأس أقـرب الرجلـين إليـه بـكل قوّتـه..
صرخ الرجـل والدمـاء تنفجـر مـن رأسـه.. هــوى أرضـاً، فى حـين طـوّح الثـانى بمطواتـه وهـو يطلـق سـباباً بذيئـاً.. سـمعت صـوت (أحمـد) يشـهق بألـم.. لمحـت الدمـاء تلـوّث ذراعـه.. هتفـت بإسـمه بلوعـة.. غـير أنّـه دفعـنى جانبـاً، واندفـع ليلتحـم بالمجـرم حامـل المطـواة.. ثـم لـم أعـد أمـيّز أى منهمـا فى الظـلام.. أرى الحـدود الخارجيّـة لجسـديهما.. المطـواة تلتمـع فى الظـلام.. يـد ترتفـع حاملـة إيّاهـا، وأخـرى تقبـض عليهـا لتمنعهـا مـن الطعـن.. صرخـاتى تشـق الصمـت.. الغبـار يتصاعـد مـن أثـر الشـجار.. المجـرم الّـذى حرقـت عينيـه يزحـف متحسسـاً طريقـه.. أصـوات سـباب المتصارعـين تتعـالى.. ثـم....
ضـوء ينـدلـع فى نهايـة الزقـاق المظلـم.. يقـترب بسرعـة.. أرى رؤوسـاً عـدة تقـترب.. أسـمع أصواتـاً غاضبـة.. لأوّل وهــلة ظــننتهم مزيـداً مـن الأوغاد.. ثـم لمحـت وجوههـم.. خفـق قــلبى.. رأيـت المجـرم الّـذى يقاتـل (أحمـد)

يدفعـه بعيـداً عنـه.. المطـواة تسـقط مـن يـده.. يهـرع مبتعـداً.. زميلـه الأعمـى يحـاول الهـروب.. يتعثّـر.. ينهـض ويسـب ساخطاً.. ألقيـت نظـرة عـلى (أحمـد).. مسـتلقى أرضـاً.. صـدره يعلـو ويهبـط.. الدمـاء تتدفـق مـن جـرح ذراعـه..

أهل الزقاق يحيطون بنا..

- الحمد لله.. قدّر ولطف..
- حد يطلب الإسعاف يا اخوانا.. الراجل بينزف..
- دى عيال ولاد حرام..
- إحنا سَمَعنا صوت صراخ الست جينا نجرى..
- حتة قماش.. حتة قماش..
- يا دكتور (خالد)..
- الإسعاف يا جدعان..

***

- سـاعدنى بعـض أولاد الحـلال فى نقلـه إلى مسـتوصف قريـب.. كان جـرح ذراعـه سـطحيّاً ولله الحمـد.. لـم يمـض وقـت طـويل حـتى كنّـا عـائدين..
- إلى أين..؟..
- عرضـت عليـه أن يـأتى إلى مـنزلى لتنـاول الإفطـار مـع أُسرتى، غـير أنّـه اعتـذر، وغـادرنى إلى (بورتـو مارينـا) حيـث تـرك قاربـه البخـارى فى مرفأهـا، ليسـتقلّه عائـداً إلى (بارادايـس هايتـس)..
- وما كان تعليقه على ما جرى فى تلك الحارة.. أأ.. ماذا كان اسمها..؟..
- (درب خـزيم).. ولم يعلّق بشئ على ما جرى..
- لماذا..؟..
- لأنـه لـم يذكـر شـيئاً ممّـا جـرى.. نـسى كل شئ، وفوجئـت بـه يتسـاءل – بعـد خروجنـا مـن المستشـفى– عـن جـرح ذراعـه كيف ومـتى أُصيب بـه..!!..

***

كنـت فى غايـة الإرهـاق البـدنى والنفسى بعـد مغامـرة الأمـس، فلـم أذهـب إلى العــمل.. هاتفـت (ميخائيـل) وأخبرتـه أنـنى سـأتغيّب اليـوم، واتّفقـت معـه عـلى بعـض الأعمـال الّـتى سـيباشرها بنفسـه فى غيـابى..

غرقـت فى نعـاس عميـق، وفى الظهـيرة كنـت أسـتقل تـرام (باكـوس) عائـدةً إلى (كرمـوز)..

***

العنب العنب العنب..
أحــمر.. أخــضر.. أصــفر..
أســمر وزىّ اللوز.. واطــعم يا ناس م المــوز..

***

- الأسطى (عمّار).. أيوووه.. إلا نعرفه..!!.. ده كان حبيبى..
- الأسطى (عمّار)..!!..
كذا تساءلت بذهول، فقال بثقة وهو يبتعد حاملاً صينيّة الشاى:
- أيـوه يـا مـودام.. مـش سـيادتك تقصـدى لاسـطى (عمّـار) بتـاع مصنـع الصاج الـلى ف البــر القبـلى..؟.. هــو مفيـش غـيره..

***

فيـيـيــى بقعة..
من بـــقاع الأرض طــاااااهرة..
بــسم الله مولاااااااانــــا..
بــنت (وهب) أنجبت ولـــداً.. فأنــجبت خير خـــلق الله إنـــسااااااناً..

***

- أمّــال ياهانــم..!!.. دول عيــالى روحهــم فــ عيالــه.. ربنــا يــرد غيبتــه ويرجّعــه بالســلامة..
إرتفع صوت ساخط من الداخل:
- إخلص يا أسطى (جمعة).. المعجون نشف على دقنى..
- (بحـدّة): يا جدع أصبر شويّة هيّا الدنيا طارت..

***

لا تـين ولا عـنب زيّـك يا بـير العـسل...

***

قالـت وهـى تهش أسراب الذبـاب عـن قــوالب الجـبن الأبيـض المرصوصـة أمامهـا فى الطشـت:
- أيـوه أيـوه.. جـوز الست (محفوظـة) الـلى سـاكنة ف الـدور التـانى.. ربنـا

يفـك سـجنه..

***

(روتانا سينيما)... مش هـاتقدر تـــغمّض عـــينيك...

***

فتحت الباب، ووقفت تحدق فى بعينين واسعتين متسائلتين..

- مين سيادتِك..؟..

لـم تـرق لى.. بالفعـل هـى جميلـة جـدا.. ولكـن المــساحيق الّـتى تلطـخ وجههـا بالإضافـة إلى النظـرة العابثـة المطلّـة مـن عينيهـا الكحيلتـين منحـا جمالهـا طــابعاً سـوقيّاً مزعجـاً.. دعــك مـن أنّ ثوبهـا المـنزلى الشـفاف ذو الفتحـة الواسـعة كشـف عـن عنقهـا الطويـل الجميـل و مسـاحات واسـعة مـن صدرهـا الناصـع البيـاض.. قلـت بثبـات:

- الحاج (ابراهيم) موجود..؟..

- الحاج نايم دلوقت ومانقدرش نصحّوه.. مين حضرتك..؟..

من الداخــل ينبعث صوت (شادية) ..

قــاللى كـلام .. أحـلى كــلام .. من بــعد ما قاله ماهانـــام...

- (أمل الشـافعى).. من الهيئة العامّة لتنظيم الأسرة..

- أهلاً و سهلاً.. أيتوها خدمة..؟..

- كنت عايزة أسأل عن سكّان الدورالتانى.. الأسطى (عمّار) وجماعته..

- (تـــمصمص شـفتيها): حــد عارفلهـم طريـق..؟.. أهـــو مـن سـاعة مـا الراجـل إتمسـك.. والوليـة المجنونـة مراتـه خـدت العيّلـين والأرض انشـقّت وبلعتهـم..

- هو اتمسك ليه..؟..

- العلـم عـــند الله .. هـــوّ الـلى الحكومـة بتمسـكه بنعـــرفو اتمسـك ليـه والــلا هايرجــع الــلا لأ..؟..

- طـب إتـمسك إمتى..؟..

- دى كمـان مانعرفوهـاش.. بـس آنى عرفـت انـه اتمسـك مـن قيمـة زى مـا تقولى كــده ٤ تُشـهُر..

ثم خفضت حاجباً ورفعت الآخر قائلة بتشكك:

- إنمـا سـيادتك يعـنى ولامؤاخـــذة واخـدنى ف دوكـة وعمّـــاله تسـألى وآنى

نجـاوب مـن غـير مـا نعرفـو إنـتى بتسـألى كل الأسـئلة دى ليـه..
- (بارتباك): قـلت لك إنى مندوبة الهيئة العامة لتنظيم الأسرة..
- (بـــحدّة): إسـم النـبى حارسـك وصاينـك.. وهيئـة تنظيـم الأسرة بـدل مـا تسألنى عـن بيـتى جايّـة تسـأل عـن البيـت الـلى فوقينـا..؟.. ومالهـا (عمّـار) اتمسـك إمـتى والـلا ليـه..؟؟!!..
أنقذنى الصوت الواهن الّذى تعالى من داخل الشقّة:
- (تـــوووحة).. الحــمّام..
قـاللى كـلام.. أحـلى كـلام.. من بــعد ما قاله ماهانـــام...
***
- عايزة الحق.. المـرَة (توحة) دى ماتعرفش تغمض عنيها وتنام غير بعد ما تتركب ولامؤاخذة.. والمعلم (ابراهيم) جوزها مبقاش ييجى منه.. بنت الكلب الوسخة فضلت ورايا لحد ما سحبتنى زى البغل على سريرها.. مرة واتنين وتلاتة.. آنى عارف انى غلطان بس أنى برضه طمعان فـ رحمة ربنا وحاسس انه هايسامحنى.. أمّال يا ست.. ده برضك الغفور الرحيم..
***
(إيـجى ـــ نيرجـى) .. الطاقة و الأمان يتواصلان...
***
- بقى له شهور مادَخـَلش البيت..
كـذا قالـت ودموعهـا تنهمـر.. غمرتـنى الشـفقة وأنـا أتأمّـل وجهها الشـاحب وعينيهـا الذابلتـين.. ناولتهـا منديـلاً وقلـت:
- وحدى الله يا ست (إخلاص)..
- (تتنـاول المنديـل): لا إلـه إلا اللـه، (محمـد) رسـول اللـه.. متشـكرين يـا سـت هانـم..
مسحت دموعها وتمخّطت فى المنديل.. قالت:
- مـن بــعد الحكومـة مـا قبضـت عـلى زملاتـه، وهـــو مابينامـش الليـل.. كل مـا عينـه تغفـل يصحـى مفـزوع ويفضـل ينـده عـلى (عـمار) والريّـس (حمـدى) ويبـكى زى العيـال الصغـيّرة..
- ليه يا (إخلاص)..؟..
صمتت ولم ترد..

- (بـإصرار): إيه الـلى خـلا الاسـطى (نعمـان) أعصابـه تنهـار بالشـكل ده..؟..
- سامحينى يا ست هانم آنى مانقدرش نتكلّم..
- ليه..؟..
- (بخشونة مفاجئة): البـيوت أسـرار.. وآنى مانفشيش أسرار بيتى ابداً..
- (بحـزم): ماتفشـيش أسرار بيتـك والـلا مـش عايـزة تقوليـلى ان جـوزك هـوّا الـلى فجّـر الغلايـة الـلى ف المصنـع أيـام الاعتصـام..؟..
شـحب وجههـا -الشـاحب أصـلاً- أكـثر، وحدّقـت بعينـين يطـل منهمـا الهلـع فى وجهـى ثـم هتفـت:
- ماحَصلشى..
- لأ حصـل.. بدليـل إنـه هـوّا الوحيـد مـن العمـال الـلى كانـوا معتصمـين ف المصنـع الـلى ماتقبضـش عليـه..
صرخت:
- كدب.. كدب..
وهبّت واقفة:
- إتفضلى من غير مطرود بدل مانفرّجو عليكى الخلق..
شـعرت بالـدم يتدفـق فى عـروقى.. نهضـت حاملـة حقيبـتى.. قلـت لهـا وأنـا أتوجـه نحـو البـاب:
- أنـا ماشـية.. بـس ماتنسـيش إنّ انـتى وجـوزك شـايلين ذنـب الغلابـة الـلى ضاعـوا.. وانـا مـش هاسـكت.. أنـا صحفيّـة وهافضحكـو أُدام الدنيـا كلّهـا..
غـادرت الشـقة، وبينمـا أهبـط الـدرج العتيـق، سـمعت صـوت مـزلاج البـاب يـُفتح، ثـم جـاءنى صوتهـا المتوسـل:
- مـن فضلـك استنّى يـا سـت هانـم.. آنى محقوقـة لـك.. إتفضّـلى وآنى هانقولـك عـلى كل الـلى نـتى عايـزاه..

***

-٧-

أمل الشافعى

فى ذلـك اليـوم.. كان (نعمـان) جالسـاً أمـام الدكتـور (هشـام مدكـور) الأسـتاذ فى قسـم الأورام بالمستشـفى المـيرى..

لابـد أنّ الطبيـب فحـص صـور الأشـعة، قبـل أن يخفضهـا ويهـز رأسـه قائـلاً:

- زى ما قلت لك..

لابد أيضاً أنّ (نعمان) تساءل بخوف:

- خيـر يا داكتور..؟..

- لازم جراحة استئصال قبل الورمماينتشر..

- (برهبة):جراحـة..؟..

- وفـ أسرع وقت ممكن.. بكره أو بعده بالكتير..

- ....

- العمليـات هنـا ممكـن ماتكونـش جاهـزة.. عشـان كـده هاتطلـع عـلى المستشـفى التخصـصى بتاعـى الـلى فـ (سـموحة).. (يـنزع ورقـة مـن دفـتر التذاكـر الطبيـة ويكتـب عليهـا).. هتصلّـك بيهـم علشـان يستقبلـوا المـدام ويجهـزوا أودة العمليّـات.. بـس المهـم إنك ماتتأخّـرش.. إتفضـل.. (يناوله التذكـرة الطبيـة وصـور الأشـعة والتحاليـل)..

- طب وعمليّة زى دى تتكلف كتير يا داكتور..؟..

خط رقماً على ورقة بيضاء، ثم ناولها له..

- خمسة عند الدخول والباقى بعد العمليّة إن شاء الله..

- (العرق يسيل على وجهه) ....

- (يلاحـظ صمتـه): أنـا عـارف إن المبلـغ ممكـن يكـون كبـير.. بـس العمليات دى بتتكلـف كتـير يـا اسـطى (نعمـان).. وصدقـنى لـو كانـت عندنـا هنـا ف المستشـفى المـيرى غـرف عمليـات جاهـزة ماكنتـش اتأخّـرت معـاك.. لكـن الغـرف كلّـهـا مشـغولة اليومـين دول، وقوائـم العمليّـات طويلـة.. وحالـة مراتـك ماتسـتحملش التأخيـر..

ثم يبتسم مستطرداً:

- علـى العمـوم.. شـيل م المبلـغ ألفايـة.. دى مسـاهمة مـنى.. وربنـا يتمم الشـفا إن شـاء الله للمـدام.. بـس زى مـا قلـت لـك.. إوع تتأخّـر..

***

أكاد أراه بعيـنىّ وهـو يمـشى منكـس الـرأس يمـلأه الهـم متجهـاًّ إلى محطـة تـرام (المنشـيّة)..

واقفـاً فى المحطـة.. الفحـوص والتحاليـل فى مظـروف عمـلاق تحـت إبطـه.. ذقنـه غـير حليقـة.. عينـاه زائغتـان.. لا يـكاد يـرى شـيئاً مـن الزحـام الشـديد المحيـط بـه..

لـم يكـن لديـه أطفـال برغـم أنـه مـتزوّج منـذ خمـس سـنوات.. ولكنهـا إرادة الله.. يـرزق مـن يشـاء إناثـاً ويـرزق مـن يشـاء الذكـور ويجعـل مـن يشـاء عقيمـاً.. هكـذا سـمع الشـيخ (عبـد الـرازق) إمـام المسـجد يـردد..

لـم يكـن لديـه أطفـال بعـد.. ولكنـه كان يحـب زوجتـه (إخـلاص) حبـاً عميقـاً.. طيلـة عمـره كان يهـوى النسـاء ولـه معهـم مغامـرات لا تعـد.. ولكنـه منـذ رآهـا واقفـة تسـاعد أبيهـا المعلّـم (عوضـين) عـلى عربـة البليلـة بعـد وفـاة أمهـا تغيّـر حالـه.. شـدّه جمالهـا.. حـاول معهـا فى البدايـة بالطـرق التقليديّـة.. الثرثـرة أثنـاء التهـام سـلاطين البليلـة.. بعـض النكـت القبيحـة.. محـاولات الإحتـكاك والتحسـيس (فى غفلـة مـن أبيهـا العجـوز طبعـاً).. عـرض عليهـا أن يخرجـا سـويّاً.. «يـا بـت يـا عبيطـة هانفسـحوكى ونأكلـوكى كبـاب».. غـير أنّ البنـت الجدعـة واجهتـه بصراحـة بأنهـا ليسـت مـن هـذا النـوع، وأنّ «برشـامتها لسـه سـليمة» وإذا أراد «مـن غـير لـف ولا دوران» فكهـا فليكـن بحـلال الله..

لـم يكـن «بتـاع جـواز».. حـاول العـودة إلى نظامـه القديـم، ولكنّـه فوجـئ بأنـه لـم يعـد يطيـق مضاجعـة المومسـات (ولكـم أدهشـه هـذا).. توقـف عـن اللعـب بذيلـه ومطـاردة العاهـرات فى الشـوارع ليـلاً.. أدرك مذهـولاً أنّـه -بحـق- يحـب هـذه الفتـاة السـمراء بارعـة الحسـن.. صـار مدمـن بليلـة.. يقـضى لياليـه عـلى غـرزة (الدبّـاغ) بـ (كرمـوز) أمـام عربـة المعلّـم (عوضـين).. حـتى جـاءت تلـك الليـلة الّـتى أحـاط فيهـا ثلاثـة مـن السـكارى بالعربـة وراحـوا يغازلـون الفتـاة ويمـدون أيديهـم سـاخرين مـن أبيهـا العجـوز..

هنا هـب (نعمـان) مـن مكانـه وتحـرّك نحـو العربـة.. لـم يـدر إثنـان مـن السـكارى الثلاثـة بنفسـيهما إلا و أسـيهما يرتطمـان ببعضهمـا بعنـف ثـم يغيبـا عـن الوعـى.. ولـم يكـد الثالـث يشـهر مطواتـه حـتى قبـض (نعمـان) عـلى ذراعـه ولـواه بقـوة فسـمع الجميـع صـوت العظـام تتهشّـم، قبـل أن يعاجلـه بروسـيّة معتـبرة كوّمتـه إلى جـوار رفيقيـه..

- البت بتـّك دى ماتنزلش تانى الشغل يا معلم (عوضين)..

- كلام ايـه ده يـا اسـطى (نعمـان)..؟.. مانـتَ عـارف انّى ماحلتيـش غيرهـا، وبنتعكّـزو عليهـا لجـل ماناكلـو عيش..

- آنى بنطلب مِنّـك إيـد (إخـلاص) يـا معلّـم (عوضـين).. ورزقنـا كلّنـا عـلى الله..

وبينمـا صمـت الرجـل مندهشـاً للمفاجـأة.. إحمـرّ وجـه الفتـاة وأطـلّ الفـرح بوضـوح مـن عينيهـا وابتسـامتها..

توووووت ...

وصـل تـرام (باكـوس).. يركـب إحـدى العربـات.. يقطـع تذكـرة.. الزحـام شـديد فـلا مـكان للجلـوس.. عليـه أن يظـل واقفـاً حتـى يصـل إلى (كرمـوز).. تنهـد بصـبر.. ركاب كثـيرون لا يتوقفـون عـن الثرثـرة.. أحدهـم يرفـع مصحفـاً ويقـرأ منـه بصـوت مرتفـع.. و..«صـلّى عـلى رسـول الله.. تـبرّع لجمعيّـة كفالـة اليتيـم.. يقـول الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلّم) أنـا وكافـل اليتيـم كهاتـين فى الجنـة.. تـبرّع مـن أجـل كفالـة اليتيـم».. فتاتـان صغيرتـان ترتديـان ثيـاب المدرسـة لا تكفّـان عـن الثرثـرة والضحـك.. إمـرأة منقبـة تحـمـل طفلـة صغيـرة لا تكـف عـن البـكاء.. و.. «باكـو شـيكولاتة بالحليـب بربـع جنيـه.. حـلى بقـك و سـلى وقتـك بربـع جنيـه.. أربـع بـواكى شـيكولاتة لحمـادة بجنيـه».. شـاب ملتـح يضـع عـدداً مـن الكتـب تحـت إبطـه ويحـاول التركيـز فى قـراءة أحدهـم.. و.. و...

عربـات الـترام تهـتز طيلـة الوقـت.. ولكـن (نعمـان) كأنـه فى عالـمٍ آخـر منفصـل تمامـاً عمّـا حولـه.. يسـتعيد وجـه امرأتـه الصبـوح، و يقارنـه بمـا صـار عليـه مـن اصفـرار وذبـول بعـد إصابتهـا بالمـرض اللعيـن.. يتذكـر لحظاتهمـا معـاً، وتـكاد الدمـوع تنسـاب مـن عينيـه..

لا يـدرى متـى هبـط فى (كرمـوز).. لـم يعـد إلى بيتـه.. لـم يجـد لديـه

المقـدرة.. راح يهيـم عـلى وجهـه فى الشـوارع.. مـاذا سـيقول لهـا حـين يدخـل عليهـا فتسـتقبله عيناهـا بتسـاؤل ملهـوف عمّـا فعـل..؟..

لازم جراحة استئصال قبل الورم ماينتشر..

للأسـف لا توجـد غـرف عمليّـات فارغـة فى المستشـفى الميرى يـا (إخلاص).. سـيجريها لـك الداكتـور فى مستشـفاه الخصوصـى بـ (سـموحة).. هـذه العمليـات تتكلـف الكثـير.. لكـن لا تقلقـى ..

ع العمـوم .. شيل م المبلغ ألفـاية.. دى مساهمة منى..

و من دون أن يلحظ .. كانت الدموع تغرق وجهه ...

***

السيّارة الفاخـرة تتوقـف بجانبـه.. ينفتـح الزجـاج المجـاور للسـائق.. يـبرز وجه (حـسين مغـاورى) مـن وراءه..

- سلام عليكم يا اسطى (نعمان)..

- سلام ورحمة الله وبركاته..

مشـاعر الغضـب والضيـق تملـؤه.. ينظـر إلى وجهـه.. يرغـب أن يبصـق عليـه.. يصفعـه قلمـين..

- على فين العزم امّـال..؟..

يريـد أن يـصرخ فى وجهـه أن «وانـت مـال أمـك..؟..» غـير أنّـه يتمالـك أعصابـه..

- مشوار كده عدم اللامؤاخذة..

- لو رايح ع المصنع إركب معايا أوصلك فـ سكتى..

- تعيـش يا باشا.. إتفضل سيادتك ماتشغلش بالك..

- يا جدع اركب ما تخافش مش هانخطفوك..

- مآنى أصلى مش رايح المصنع..

- إركب بس آنى عايزك فـ موضوع صغيّر..

- ماينفعش نخلّيها وقت تانى يا باشا..؟.. أصل الـ.

- (يفتـح بـاب السيّارة الأيمـن): لا أصـل ولا فصـل.. هـىّ كلّهـا نـص سـاعة ونرجعـوك تـانى.. يالـلا اركب..

***

لماذا ذهـب معه..؟..

الجـواب بسـيط.. لقـد خـرج مـن المستشـفى المـيرى تائهـاً يترنّـح كالطـير المذبـوح.. سـاعـات طويلـة قضاهـا يقطـع الشـوارع والأزقّـة حـتى كلّـت قدمـاه مـن التعـب دون أن يجـرؤ عـلى العـودة إلى زوجتـه حامـلاً خيبـة الأمـل ولا شئ سـواها..

كـان يعلـم بالتأكيـد أن (حـسين مغـاورى) لا يـأتى الخـير مـن وراءه «لإن الحدايـة مابتحدّفـش كتاكيـت».. وأنـه بالتأكيـد يريـد منـه شـيئاً يتعلّـق بـالإضراب.. ولكـن..

هـو لا ينـوى خيانـة زملائـه أبـداً.. فلمـاذا لا يذهـب..؟.. هـو بحاجـة إلى ألا يعـود لبيتـه.. لإمرأتـه.. يريـد أن يكلّمـه أحـد.. يسـمعه أحـد.. أى أحـد، ولـو كان ثعبانـاً كـ (حـسين مغاورى)..

***

الفيلا فى (العجمى) أنيقة حقاً..

الأرضيّـات خشـب باركيـه.. الحوائـط مطليّـة بالبلاسـتيك الملـوّن.. النباتـات الخـضراء منتـشرة فى كل مـكان.. آيـات قرآنيّـة مختلفـة فى أطـر مذهبـة معلّقـة عـلى الجـدران.. هـواء بـارد مكيّـف.. نافـذة عملاقـة تطـل عـلى حديقـة رائعـة أمـام شـاطئ البحـر مبـاشرة..

- آنى طاوعتـك يـا (حسـين) بيـه وجيـت معـاك عميـانى لحـد هنـا.. ولازمـن تقـولّى إيـه الحكايـة بالظبـط..

- (يرشـف مـن زجاجـة الميـاه الغازيّـة): الـلى خـلاك تصـبر كل ده يـا (نعمـان).. مـش قـادر تصـبر دقيقتـين كمـان لمّـا الراجـل ييجـى..؟..

- (ينهض): ولا دقيقة واحدة.. بالاذن يا باشا آنى ماشى..

- (يجذبه من كم قميصه): يا جدع اقعد هاتروح ازاى كل ده..؟..

- (يشد قميصه بعنف): إن شاالله نروّح على رجليّا.. ماشى يعنى ماشى..

صوت عميق متزن يأتى من خلفه:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

(حـسين مغاورى) يهب كالملسوع هاتفاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. أهلاً يا مولانا..

- أهـلاً بيـك يـا أخ (عـادل).. (يلتفـت لــ نعمـان): إيـه يـا أخ (نعمـان).. لـم لا تـرد السـلام..؟..

- (ببطء): سلام ورحمة الله وبركاته..
- (يصافحهما بحرارة): تفضلا بالجلوس..
رجل مهيب حقاً.. الوجه يشع نوراً (أو هكذا بدا له).. اللحية غزيرة يختلط بياضها بسوادها.. زبيبة صلاة داكنة تزيّن الجبهة.. سبحة من الكهرمان الأزرق تتلاعب بين أصابع اليد.. جلباب أبيض ناصع.. عباءة سوداء داكنة..
- أعتذر عن التأخير.. نسيت نفسى كالعادة أثناء أداء سنة الظهر..
قال (حسين مغاورى) بحماس:
- تقبل الله صالح الأعمال يا حاج..
- (يمسح وجهه بكفّيه): آمين.. منّا ومنكم إن شاء الله..
ثم..
- (مبتسماً بود): كيف الحال يا أخ (نعمان)..؟..
- الحمد لله..
- أول مرّة نتقابل..
أسرع (مغاورى) يقول:
- الحاج (صالح عبد النعيم) برغم إن مشاغله بتمنعه من إنه ييجى المصنع.. إلا إنه بحكم منصبه كنائب لرئيس مجلس الإدارة عارف كل عمال المصنع.. وكل كبيرة وصغيّرة بتحصل عنده خبر بيها..
رفع (نعمان) حاجبه متسائلاً:
- الكبيرة والصغيّرة..؟!..
فتح (مغاورى) فمه ليتكلّم، ولكن الحاج (صالح) بادر بالقول:
- نعم يا أخّ (نعمان).. الكبيرة والصغيرة.. وصدقنى أنا حزين جداً بسبب المشكلة اللى حاصلة بين العمال والإدارة.. ونفسى اننا نحلّها بهدوء وبدون أى شوشرة..
- إدونا حقنا يا بيه.. ويا دار ما دخلك شر..
- ما هيّا دى المشكلة يا أخ (نعمان)..
- مشكلة انك تدى الغلابة الشقيانين حقوقهم يا حاج..؟!!..
- (بهدوء): حقوق الغلابة مش عندى يا أخ (نعمان).. دى عند الحكومة المصريّة.. المبالغ الضخمة اللى بتطالبوا بيها دى أرباح ومكافآت السنين

اللى فاتت لما كانت أغلب أسهم المصنع ملك للحكومة.. وكان المفروض انها تصرفها لكم.. لكن اللى حصل انها مصرفتش حاجة.. وباعت لنا المصنع -أنا وشركائى- من غير ماتقولّنا على الموضوع ده.. أنا راضى ذمتك.. بعد ما دفعنا ملايين وملايين فى شرا المصنع و التزمنا بعدم تسريح أى عمالة زايدة طول الفترة اللى فاتت، وتحملنا أعباءهم المالية.. يبقى مفروض علينا ندفع مستحقات مش ف ذمتنا أصلاً..؟؟!!..

- (بغضب): يعنى احنا كده فلوسنا راحت ف الهوا بينك وبين الحكومة..؟..

- إنت عارف الفلوس دى تطلع أد إيه يا (نعمان)..؟.. أنا أقول لك.. عشرين مليون جنيه..عارف يعنى إيه عشرين مليون جنيه..؟.. يعنى أنا كده أبقى اشتريت المصنع علشان أخسر.. ورغم كده..

وصمت لحظة ليلتقط أنفاسه ثم:

- ورغم كده.. أنا مايهونش عليّا حقوقكم تضيع.. أنا غير الاجانب شركائى.. آنى ابن البلد.. ومانسيبش ولاد بلدى حقوقهم تروح ف الرجلين.. ولو على رقبتى..

- (بدهشة وفرح): يعنى هاتصرفوا لنا الأرباح المتأخّرة..؟..

- إن شاء الله رب العالمين.. بس فيه حاجة صغيّرة..

- (بقلق): حاجة إيه..؟..

- (مبتسماً): كل خير إن شاء الله.. نتكلّم بعد أما نتغدّى..

- مالوش لزوم يا حاج..

- (يربت على كتفه بمودة): إزّاى بقى..؟.. مش لازم ناكل عيش وملح مع بعض.. ؟.. واللا انت منوفى..؟.. هه هه.. ماتتكلّم يا (حسين)..

هتف (مغاورى) بحرارة:

- طول عمرك أهل كرم ومروّة يا حاج..

- ياللا بينا.. إتفضّلوا..

***

المائدة حافلة بمختلف صنوف الأطعمة الّتى رآها ولم يرها من قبل..

أوانى وطواجن مختلفة الأحجام والأشكال والألوان تفوح منها الأبخرة الساخنة محملة بأشهى الروائح..

الجـو حميمى يمـوج بالـدفء .. (حـسين مغـاورى) يـزدرد الطعـام بنهـم شـديد، وكأنهـا المـرّة الأخـيرة الّـتى سـيفعل فيهـا.. بينمـا شمّـر الحـاج (صالـح) عـن ساعديه، وراح يطعـم ضيفيـه بيديـه العاريتـين وهـو لا يكـف عـن الثرثـرة والتهكـم عـلى نهـم (مـغاورى).. كل هـذا جعـل (نعمـان) ينسى مشـاكله الشـخصيّة ويقبـل عـلى الطعـام بشـهيّة، وخاصـة أنّـه لـم يـذق طبيخـاً منـذ أكـثر مـن شـهرين (منـذ بـدء الإضراب)..

تساءل الحاج وهو يناول (نعمان) شريحة من صدر رومى:

- أخبار المدام إيه يا أخ (نعمان)..؟..

توقـف (نعمـان) عـن مضـغ الطعـام، وكأنّمـا تذكـر مـا غـاب عـن ذهنـه مـع تـوالى الأحـداث.. تمتـم بـأسى:

- الحمد لله..

لعق (حـسين مغاورى) أصابعه الملوّثة بالسمن قائلاً:

- للأسـف يـا حـاج.. جماعـة الاسـطى (نعمـان) مريضـة بالمـرض الوحـش.. أنـا حـتى لمّـا قابلـت (نعمـان) كـان راجـع م المستشـفى المـيرى..

قال الحاج (صالح) بألم:

- لا حـول ولا قـوّة إلا بـالله العـلىّ العظيـم .. ربنـا يتـم لهـا الشـفاء بحولـه وقوّتـه.. طـب والدكاتـرة فـ القـصر العيـنى قالوا إيـه..؟..

أجاب (نعمان) بصوت مبحوح:

- لازمها عمليّة..

- (باهتمام): هاتعملها إمتى..؟..

- (يبتسم بمرارة): لمّا ربنا يفرجها..

- ونعم بالله.. إحكى لى يا (نعمان) وماتخبيش حاجة..

قـص (نعمـان) تفاصيـل مقابلتـه مـع الدكتـور (هشـام مدكـور)، ولـم يكـد ينتـه حـتى قـال الحـاج بحـزم:

- ولا تحمل أى هم..

والتفت إلى (مغاورى) قائلاً:

- تخلّـص أكل يـا (حسـين) وتقـوم تتصـل بمستشـفى (هشـام مدكـور) وتحجـز أودة العمليّـات.. السـت جماعـة أخونـا (نعمـان) لازم تعمـل العمليـة بكـرة إن شـاء الله.. والمصاريـف تتسـدد كلهـا النهـاردة قبـل بكـرة

بـإذن الله..

- أمرك يا حاج..

أمـا (نعمـان) فـكان وقـع الـكلام عليـه قويـاً.. بهـت للحظـات.. فتـح فمـه ليعـترض بكلمـات متخاذلـة غـير مسـموعة قبـل أن تفيـض مشـاعره بغتـة.. إنهمـرت الدمـوع كالمطـر مـن عينيـه.. أهـوى عـلى يـد الحـاج (صالـح) يقبّلهـا والكلمـات تتقـاذف مـع رذاذ لعابـه مـن فمـه كالطلقـات، فـأسرع الحـاج يسـحب يـده هاتفـاً بانزعـاج:

- أستغفر الله العظيم.. قوم يا أخى حرام عليك..

***

- الخدمة اللى انا عايزها منّك بسيطة أوى..

قالها الحاج ونفث أبخرة الحشيش بعمق..

فى وقـت آخـر وظـروف اخـرى، كان مثـل هـذا الـكلام ليمـلأ (نعمـان) بالتوجـس والقلـق، غـير أنّ تأثـير السـاعة الماضيـة ومـا جـرى فيهـا طغـى عـلى كل شـكوكه فقـال والنشـوة تملـؤه:

- إنت تؤمر يا حاج..

- (مبتسماً): الأمر لله يا أخى.. جـُزيت كل الخير..

وسحب نفساً طويلاً من النارجيلة.. ثم..

- إنت و الإخوة المعتصمين ف المصنع بتناموا فين..؟..

- ف كذا مكان.. ف العنابـر.. ف الحوش.. ف مكاتب رؤساء العمّال..

- حد بينام ف قاعة الغلايات..؟..

- لأ.

- إشمعنى..؟..

- دى بالـذات إحنـا متفقـين نحافـظ عليهـا مـن أى تخريـب.. داحنـا كمـان عاملـين عليهـا حراسـة..

- عظيم جداً..

ونفث أبخرة الحشيش قائلاً: - إسمعنى بقى كويس.. وركز معايا..

***

الميكروباس يتوقف به على الطريق الأسفلتى الّذى يخترق البر القبلى..

يهبـط.. يلتقـط نفسـاً عميقـاً مـن هـواء الليـل البـارد.. يخطـو عـلى الطريـق

الـترابى المـؤدى إلى المصنـع..
يداه تحتضنان الصندوق بحرص..

***

- إيه اللى فـ الصندوق ده يا حاج عدم اللامؤاخذة..؟..
تساءل وهـو يتطلّع باسـتغراب إلى الصنـدوق المصنـوع مـن الصـاج الّـذى وضعـه (حـسين مغـاورى) أمامـه عـلى المنضد ..
- ماتقاطعنيش..

***

يعـبر البوّابـة الحديديـة.. يسـمع صريرهـا إذ تنغلـق مـن خلفـه.. عـدد مـن رفاقـه يلتفّـون حولـه مرحبـين..
- حمد لله ع السلامة..
- إيه الأخبار يا اسطى (نعمان)..؟..
قال الريّس (حمدى) باهتمام :
- طمنّـا..
- (يبتلع ريقه): بخير ولله الحمد..
سأل (عمّـار): - الدَكتور قاللك إيه..؟..
- (يتلعثـم): أأ.. الحمـد للـه.. قـال.. إإ.. إن العـلاج إبتـدا يجيـب نتيجـة كويّســة.. و.. و.. وقريّـب إن شـاء اللـه تخـف وتبقـى زى الفـل..
- (بارتياح): الحمد لله.. ربنا يطمّنك عليها..
(طحـلاوى)يشير إلى الصندوق متسائلاً بفضـول:
- أمال إيـه اللى فـ الصندوق ده يا (نعمان)..؟..
- (مرتبـكاً): ده.. أ.. دى لقمـة كـده عـلى مـا قسـم .. عـلى شـويّة غيـارات أحسـن غيـاراتى كلّهـا اتوسـخت..
ثم..
- بـالإذن آنى يـا اخوانّـا.. أصلى مهـدود مـ المشـوار.. عايـز نريّحـو الجتـة شـويّة..

***

- هاتدخـل العنـبر الـلى بتنـام فيـه.. تخفـى الصنـدوق فـ فرشـتك أو فـأى حتـة.. المهـم الجـن الازرق مايعـترش فيـه.. تريّـح لـك قيمـة سـاعة زمـن..

وبعدين تطلع لزمايلك برّة.. هاتلاقى الدنيا مقلوبة..

***

ضجيج عال.. أصوات ضحك.. غناء.. تصفيق..

- (بصوته الأجش): عَرفت اللى حصل يا (نعمان)..؟..

- خير يا (عاشور)..؟..

- (يحتضنه بقوة ويضحك بصوتٍ عال): الشدّة زالت.. الإدارة وافقت- مبروك يا (عاشور)..

***

- قبل الفجر بنص ساعة.. العمال هايكونوا إما نايمين.. يا إما سهرانين بيهيّصوا.. إنت بقى هاترجع عنبرك.. تخرج بالصندوق من غير ما حد يشوفك..

***

يتحرّك بخفّة فى الظلام بين الغلايات العملاقة.. الصندوق يرقد بين أصابعه.. أصوات الساهرين تأتى من بعيد وكأنّها قادمة من عالم آخر.. بقايا أضواء كلوبّات الفناء الخارجى تصنع ظلالاً على أرضيّة القاعة بالقرب من النافذة.. قلبه ينبض بقوّة، وأقدامه تخطو بحذر على الأرضيّة المتربة..

خششش...

يتجمّد فى مكانه.. يحاول أن يخترق ظلام القاعة ببصره.. تمر الثوانى.. عيناه تتعوّدان الظلمة و..

خششش..

بصعوبة هذه المرّة يميّز الجسم الأسود الصغير ذو الذيل الطويل يزحف مبتعداً بين الماكينات.. يتنهد.. يتحرّك ليقف بجوار جسم الغلاية الكبرى.. يجلس القرفصاء.. يضع الصندوق أمامه.. ينظر إليه بتمعّن..

***

- عبوة ناسفة..

- بتقول إيه يا حاج ..؟..

- (يتنهد بصبر): أقول عبوّة ناسفة..

- ....
- إيه سكتّ ليه..؟..
- عايز تنسف المصنع يا حاج..؟.. طب ليه..؟.. دى فلوسك..
- (يضحك): أنسف المصنع..!! .. يخرب عقلك يا (نعمان).. هه هه..
- أمال ايـه..؟..
- مصنـع إيـه الـلى هانسـفه بحتّـة عبـوّة زى دى..؟!.. دى يـادوب آخرهـا توقـع بيـاض حيطـة..
- وسعادتك عاوز توقع بياض حيطان المصنع..؟..
- (يضحك): هه هه هه هه هه..
- ....
- هه هه.. إسمعنى بس.. أنا هاشرح لك كل حاجة..

***

- زى مـا قلـت لـك يـا أخ (نعمـان).. مـش انـا الـلى يضحـى بـولاد بلـده ويـاكل حقوقهـم.. ده النبى صلى الله عليـه وسلّم قـال (أعـط الأجـير حقـه قبـل أن يجـف عرقـه).. ورغـم إن الحكومـة هـى الـلى كلـت حقوقكـم، إلا إنى ألزمـت نفسى بيهـا..

بـس برضـه زى مـا قلـت لـك.. قيمـة الأربـاح والمكافـآت المسـتحقة ليكـم عـن السـنين الـلى فاتـت تزيـد عـن عشريـن مليـون جنيـه.. وصعـب عليـا أوى فـ المرحلـة دى إنى أسـدد مبلـغ زى ده.. والأصعـب إنى أقنـع الـشركاء الأجانـب بالسـداد أصـلاً.. وعشـان كـده فكّـرت فـ فكـرة كويّسـة أوى..

كل يـوم بيمـرّ والإضراب مسـتمر.. باخـسر فلـوس أكـتر.. وبالتـالى دفـع المسـتحقات هايتأخـر أكـتر.. فالحـل إن الإضراب يخلـص عشـان عجلـة الإنتـاج تـدور ونعـوّض الخسـاير وابـدأ فى السـداد.. بـس إخوانّـا العمـال رافضـين إنهـم يفضّـوا الإضراب.. واكـتر مـن مـرّة أخونـا الباشـمهندس (عـادل) والأسـتاذ (حسين مغـاورى) حاولـوا يقنعـوا الريّـس (حمـدى) بالحل ده، لكـن كان متعنّـت جـدّاً.. ورفـض أى حـل غـير إننـا نسـدد المبالـغ فـوراً.. وده طبعـاً فـ الظـروف دى مسـتحيل.. ده غـير إنـه لـوى دراع.. وانـا محـدش يلـوى دراعـى..

العبـوّة الناسـفة دى تأثيرهـا محـدود جـداً.. يعـنى مـش هاتسـبب أى أذى

لأى حـد.. بـس انفجارهـا هايسـمح لقـوّات الأمـن إنهـا تدخـل المصنـع وتفـض الإضراب بالقـوّة.. لأن كـده بقـى فيـه تهمـة إتـلاف ممتلـكات خاصـة.. وبمجـرّد مـا الإضراب ينتهـى.. هابـدأ صرف دفعـات مـن مسـتحقّات العمـال تزيـد مـع زيـادة إنتـاج المصنـع.. وربنـا يكـرم إن شـاء الله..

***

لم يتمالك نفسه.. هب واقفاً..

- إنت فاكرنى إيه..؟..
- (بغضب): إيه ده يا أخ (نعمان)..؟.. إنت اتجننت..؟..
- (ثائـراً): بـلا أخ بـلا اخـت.. وعـمّال تقولـلى قـال الله وقـال الرسـول..؟.. روح يـا شـيخ الله يخـرب بيتـك..
- اقعـد بس و اسمع..
- أسـمع إيـه و أتيّـل ايـه..؟.. عايـزنى نخـون زمـلاتى ونوديهـم فـ داهيـة وتقولـلى أسـمع..؟؟!!.. ياخـى (أ...)..
- مـين قـال هايروحـوا فـ داهيـة..؟.. بالعكـس.. دانـتَ كـده بترحمهـم م العـذاب الـلى همـا فيـه..
- إنـت شـايفنى داقـق عصافـير..؟!!.. بقـى لمّـا البوليـس ييجـى يمسـكنى آنى والرّجالـة ويرمونـا ورا الشـمس.. نبقـى كـده بنرحمهـم م العـذاب..؟.. يـا راجـل خـاف ربنـا..
- مانتَ لو قعدت وسمعت هاتفهم..
- مش عايز نفهم.. آنى ماشى..
- (بسرعـة): بمجـرّد مـا الإضراب ينتهـى انـا هاسـحب البـلاغ الـلى هاقـدّمه ضـد العمّـال باتهمهـم فيـه بإتـلاف الممتلـكات.. أقسـم بـالله العظيـم ماهايبيّتـوا فـ الحجـز أكـتر مـن ليلـة أو ليلتـين بالكتـير.. وبعدهـا هايخرجـوا ويرجعـوا شـغلهم تـانى ويصرفـوا مسـتحقاتهم.. أمـا انـت فالبوليـس مـش هايقـرّب منّـك مـن أساسـه.. أنـا ليّـا علاقـات كويّسـة فـ الداخليّـة.. وهاوصّى إن محـدش يتعـرّض لـك..
- ولا نصدق حرف م اللى بتقوله..
- (يعقـد حاجبيـه): عيـب أوى لمّـا تكدبـنى يـا أخ (نعمـان).. أنـا مـش عيّـل صغـيّر عشـان أدّى كلمـة وارجـع فيها.. وبعديـن عمّـال المصنـع دول ولادى..

شفت قبل كده أب بيفرّط فـ ولاده..؟..
يدخل (حسين مغاوري) في هذه اللحظة ممسكاً بهاتفه المحمول في يده..
- أنا لسه قافل مع المستشفى دلوقت.. العمليّة بكرة إن شاء الله.. ومنتظرين الست جماعة الاسطى (نعمان) النهاردة عشان يعملولها التحاليل والتجهيزات قبل العمليّة..
أشار له الحاج (صالح) قائلاً بحزم:
- روح انت استنّى الأخ (نعمان) فـ عربيّتك عشان توصل معاه وتنقل جماعته المستشفى دلوقت..
- أمرك يا حاج..
قالها وانصرف، في حين التفت الحاج إلى (نعمان) وناوله رزمة من الأوراق النقديّة، قائلاً بهدوء:
- خد دول يا أخ (نعمان) علشان المصاريف.. دول طبعاً غير فلوس العمليّة اللى (حسين) هايسددها كلّها وانتوا واقفين.. إتفضّل انت دلوقت خلّص موضوع جماعتك واطمّن عليها.. وبعدين تاخد الصندوق وتعمل اللى اتفقنا عليه..
حاول (نعمان) أن يعترض، ولكن تخاذله هذه المرّة كان واضحاً، فدس الحاج النقود في يده قسراً وقال:
- أنا حَلَفتلك إنى هاسحب البلاغ، وإن الرجالة مش هايقعدوا فـ الحبس غير يوم والا اتنين بالكتير إن شاء الله.. بعد كده يرجعوا الشغل ويصرفوا مستحقاتهم.. ومش كده وبس..
ومال نحوه مستطرداً: - دانتَ هاتبقى الريّس الجديد بتاعهم..
تمتم (نعمان) بكلماتٍ غير مفهومة لم يكترث لها الحاج وقد تيقن من فوزه في معركة الإغواء، فجذبه من ذراعه قائلاً:
- تعالى بقى أمّا أعلّمك تشغل العبوّة ازاى..

***

فتح الصندوق.. أخرج العبوّة.. تأمّلها في الضوء البسيط القادم من الفرجة أسفل البوّابة القريبة.. إناءان مملوءان بسوائل مختلفة متصلان بصمام معلّق به ساعة ميقاتيّة بسيطة ..

ببراعـة راح يثبـت العبـوّة بجسـم البوّابـة.. مـدّ أصابعـه إلى ذلـك الـزر بجانـب السـاعة ليضغطـه.. أصـوات الضحـك والثرثـرة والشـتائم البذيئـة القادمـة مـن الفنـاء الخارجـى لا تنقطـع.. تصلّبـت أصابعـه فى الهـواء.. شـعر بوخـز فى قلبـه.. إسـتعاد ذهنـه صـوّر رفـاق عمـره وزملائـه.. لثـوان ظـل جامداً فـى مكانـه والذكريـات تتـوالى أمـام عينيـه.. للحظـة قـرر أن ينهـض حامـلاً العبـوّة ليعـود بهـا إلى الحـاج (صالـح) فيلقيهـا فى وجهـه.. أو لربمـا فجّرهـا فى فيلّتـه.. غـير أن مشـهد زوجتـه الممـددة عـلى فراشـها وقـد هـزل جسـدها واصفـرّ وجههـا وامتـلأ بالألـم.. هـذا المشـهد قفـز أمـام عينيـه لينـازع بقيّـة الذكريـات.. تقلّصـت ملامـح وجهـه إزاء هـذا الـصراع الدائـر فى أعماقـه.. إرتعـش جانـب فمـه.. لمعـت عينـاه بالدمـوع..

لازم جراحة استئصال قبل الورمماينتشر..

خمسة عند الدخـول و الباق بعد العمليّـة إن شاء الله ..

الدقائق تمرّ.. الموعد المتفق عليه يقترب..

خـد دول يـا أخ (نعمـان) علشـان المصاريـف.. دول طبعـاً غـير فلـوس العمليّـة الـلى (حـسين) هايسـددها كلّهـا وانتـوا واقفـين..

هنـا.. سمع صـوت صريـر بـاب الممـر المـؤدى إلى دورات الميـاه إذ ينفتـح ليخـرج منـه أحدهـم.. خفـق قلبـه مـن الرعـب.. لـو رآه الـقـادم فى هـذا الوضـع لكانـت نهايته..

سـاعده الظـلام الدامـس عـلى الاختفـاء.. لا يـدرى كيـف ولا مـتى امتـدّت أصابعـه لتضغـط زر المفجـر..

مـن مخبـأه راح يراقـب القـادم.. هـذه القامـة المتينـة المدكوكـة والـرأس شـبه الأصلـع و.. إنّـه (عمّـار).. لابـد أنّـه كان يتوضـأ إسـتعداداً لأداء صـلاة الفجـر..

تحـرّك مبتعـداً بخفّةعندمـا شـعر بسـاقه ترتطـم - فى الظـلام - بـشئٍ بـارز و..

كريييييك...

بيـده كتـم صيحـة ألـم كادت تفلـت مـن فمـه.. (عمّـار) متوقـف فى مكانـه.. يـردد بصـوت مبحـوح وجل:

- مييـن..؟..

تمر لحظات ثقيلة من الصمت المخيف.. بغتة تغمر الإضاءة الشاحبة المكان.. يقف شعر ذراعيه من الرعب.. يتحرّك مبتعدا وهو يعرج.. يختبئ خلف ماكينة قريبة.. من بين مراوح الماكينة يرى (عمّار) يدور حول الغلاية.. يلاحظ الجسم المثبت إليها.. ينحنى نحوه..
وهنا خفق قلب (نعمان) بعنف.. ألقى نظرة هلعة على ساعة معصمه.. فتح فمه ليهتف بصديقه أن يبتعد عندما..

بروووووووووم ....

العبوّة الناسفة دى تأثيرها محدود جداً.. يعنى مش هاتسبب أى أذى لأى حد..

لوهلة.. توقف الزمن بالنسبة له.. طنين غريب ملأ أذنيه، وحجب عنهما أيّة أصوات.. سحب الغبار تملأ القاعة.. ورغم ذلك فألسنة النيران تتبدّى بوضوح من بينها..
زحف بوهن على أطرافه الأربعة نحو الجسد النازف الممدد أمامه.. الغبار يملأ أنفه و فمه.. يسعل.. يرى أشخاصاً يهرعون نحوه.. يلتفّون حوله.. يميّز وجوه وأجساد زملائه.. يسمع كلامهم وكأنه قادم من أعماقٍ سحيقة..
- إيه اللى جرى..؟..
- هيييييه (شهقة)..
- (عمّار).. (عمّاااااار)..
- لا حول ولا قوّة إلا بالله..
- ياخوانّا ده لسه عايش..
- حد يطلب الإسعاف ياخوانّا..
عيناه مثبتتان على جسد (عمّار) المسجى أمامه.. السجاجات تملأ وجهه وجسده.. النيران مشتعلة فى ملابسه (قبل أن يطفئها الرجال).. وذراعه.. ذراعه ممزق مهترئ تماماً.. الدماء تتدفّق منه بغزارة شديدة.. (عاشور) يمزّق قميصه بهيستريا.. يحاول أن يربطه حول ما تبقى من

الـذراع ليوقـف الـنزف.. لـو أراد الله وعـاش (عمّـار)، فسـيفعل بـذراعٍ واحـدة.. لقـد صـار أكتعـاً..

- (عـمّااااااااار)...

لـم يـدر بنفسـه إلا وهـو ينفجـر فى البـكاء والعويـل كالثـكالى.. يلقـى بجسـده عـلى جسـد رفيـق عمـره.. يـصرخ باسـمه مِـراراً.. الرفـاق يحاولـون إبعـاده ولكنّـه يتشـبث بـه بـكل قوّتـه..

هتف (طحلاوى) وهو يحاول شده:

- يا (نعمان) حرام عليك الراجل كده هايموت منّك..

- (عـمّااااااااار) ...

يسـمعهم يتسـاءلون بحـيرة عمّـا حـدث.. ينظـرون بدهشـة إلى جسـم الغلايـة الّـذى تفحـم و تناثـرت أجزائـه بفعـل الانفجـار.. تـرى هـل سـيعرفوا..؟.. ولـو عـرفوا.. مـاذا سـيفعلون بى..؟.. و(عمّـار)..؟.. هـل سـينجو..؟.. هـل سيسـامحنى..؟..

- (عـمّااااااااار)...

الريّـس (حمـدى) ينحـنى عـلى الأرض.. يلتقط شيئاً مـا.. يتفحّصـه.. يرفعه أمـام الأعـين المذهولة..

- ساعة..؟؟!!..

كذا تساءل أحد الرجال..

- إيـوة ساعة..

- بـس الغلاية ماكانش فيها ساعات..!!..

نهض الريّس (حمدى) قائلاً بحزم:

- الساعة دى كانت متركبة فـ القنبلة اللى خربت الغلاية..

سـاد الوجـوم بـين الجميـع عقـب قولـه لثوان، قبـل أن يـردد أحـد الرجال بذهول:

- قـنبلة..؟؟!!..

وتساءل (عاشور):

- مين اللى هايركب قنبلة فـ الغلاية..؟.. ولـيه..؟؟!!..

لم يكد يتم تساءله حتى أدرك الجميع الجـواب..

أدركوه عندما سمعوا أصوات الصيحات القويّة القادمة من الخارج..

عندمـا رأوا الأرديـة السـوداء والأحذيـة العـسكريّة الثقيلـة تمـلأ القاعـة والمصنـع كلـه..

عندما هوت الهراوات وكعوب البنادق على رؤوسهم وأجسادهم..

عندما لطّخت دمائهم جدران القاعات الّتى أفنوا فيها أعمارهم..

***

عنـد هـذه النقطـة توقفـت عـن الـكلام، وانخرطـت فى بـكاءٍ حـار.. بالواقـع منعـت نفسى بصعوبـة مـن البـكاء أنـا الأخـرى.. مزيـج غريـب مـن مشـاعر الغضـب والشـفقة والحـزن والترقـب يصطـرع فى أعـماق.. هـل أخطـأ (نعمـان)..؟.. نعـم بالتأكيـد.. ولكـن.. يـسهل عـلىّ إطـلاق الأحـكام بينما أجلـس رائقـة البـال خاليـة مـن الهمـوم.. مـاذا كنـت سـأفعل أو سـتفعل أنـت يـا دكتـور (حـازم) لـو كنّـا فى موضعـه..؟.. سـأكون كاذبـة لـو قلـت أنـنى لـن أخـون.. لا أدرى.. لقـد فقـدت زوجـى وطفـلى.. وأفهـم جيّـداً ذلـك الشـعور بالعجـز وأنـت تـرى أحبّائـك يغـادرون الدنيـا، وأنـت واقـف تنظـر بـلا أدنى قـدرة أو حيلـة.. لقـد أحكـم السـفلة حصارهـم حولـه حقـاً، واسـتغلوا حاجتـه ومـرض زوجتـه أقـذر اسـتغلال..

***

لـم يقـض وقتـاً طويـلاً فى الحجـز.. قبـل أن ينتصـف اليـوم.. تـم إخراجـه مـن الزنزانـة.. وجـد (حـسين مغـاورى) ينتظـره فى غرفـة البـك الضابـط.. غـادر القسـم معـه، واسـتقلا سـيّارته..

- طب وبقية الرجالة يا (حسين) بيه..؟..

- الليلة هايباتوا فى بيوتهم إن شاء الله يا (نعمان)..

- طب وماخرجوش معانا ليه..؟..

- مـش بالسرعـة دى يـا أخـى.. الحـاج (صالـح) اللـه يكرمـه كلّـم معارفـه علشـان يخرّجـك انـت دلوقـت حسـب اتفاقنـا علشـان تـروح تشـوف مراتـك فى المستشـفى.. ألـف مـبروك عـلى فكـرة..

- (تتلاحق أنفاسه): هى.. العمليّة.. الـ..؟..

- (مبتسـماً) : حصـل.. أنـا لسّـة مكلّـم المستشـفى.. الدكتـور (هشـام مدكـور) طمّـنى إن العمليّـة تمـت بنجـاح.. والمـدام دلوقـتى فـ غرفـة الإنعـاش..

- (تطفر الدموع من عينيه): الحمد لله.. الحمد لله..
- ألف حمد لله ع السلامة يا (نعمان)..
- (بتأثّر): الله يسلّمك يا بيه.. كتّر ألف خيرك وخير الحاج.. (ثم بقلق).. بس بقية الرجالة.. هايخرجوا إمتى..؟..
- سيب الموضوع ده علينا احنا بقى.. المهم انت دلوقت تروح تطّمن على الجماعة فـ المستشفى.. الحاج مسدد المصاريف كلّها لغاية مالدكاترة يكتبوا لها على خروج.. وطبعاً مش محتاج اقوللك إن إتفاقنا لازم يفضل سر محدش ياخد خبر بيه..

***

مضت الأيّام دون أى خبر عن الرجال.. إطمأنّ إلى خروج زوجته وعودتها بأمان إلى دارها.. حاول مِراراً الإتصال بـ (حسين مغاورى) على هاتفه المحمول دون رد.. إستقل توك توكاً إلى البرّ القبلى.. وجد بوّابة المصنع مغلقة.. دار حول السور.. تمكّن من التسلل عبر فتحة يعرفها جيّداً.. المصنع خالٍ تماماً.. ليس به صرّيخ إبن يومين كما يقولون.. الماكينات محترقة تماماً.. ليست الغلاية الكبرى فقط.. الكل محترق.. بعضها ملئ بثقوب طلقات البنادق..

أقسم بالله العظيم ماهايبيّتوا فـ الحجز أكتر من ليلة أو ليلتين بالكتير.. وبعدها هايخرجوا ويرجعوا شغلهم تانى ويصرفوا مستحقاتهم..

ها قد مضى إسبوعين يا حاج.. لم يخرج الرجال من محبسهم، ولم يعودوا إلى أعمالهم كما أقسمت.. هل تراجعت عن وعدك أم أنّك كنت تلعب بى من البداية..؟..

أثار الخاطر جنونه.. غادر المصنع، وهرع ليستقلّ أوّل ميكروباص إلى (العجمى).. ظل يطرق البوّابة الخارجيّة لفيلا الحاج (صالح) بعنف حتّى خرج إليه حارس ملتح ضخم الجثة صاح به:
- إيه الدوشة اللى إنت عاملها دى يا أخينا انتَ..؟.. عاوز ايه..؟..
قال بصوت متهدج من المجهود والإنفعال:
- عاوز نقابل الحاج (صالح)..

- (بخشونة): الحاج مش موجود دلوقت.. إبقى تعالى وقت تانى..
- نستنّوه لمّا يعاود..
- مش هايعاود النهاردة.. ده مسافر ومش راجع قبل شهر..
- مسافر فين..؟..
- مش شغلك.. واتفضّل بقى ورّينى عرض كتافك..
- آنى مش ماشى من هنا غير لمّا نقابله.. آنى عارف إنّه جوّه.. ولازمنّ ندخله..
- (بغضب): لااه.. إنت باين عليك الذوق مش نافع معاك.. (يدفعه أمامه) .. يالا غور من وشّى قبل ما أطلبلك البوليس..

***

«نسألك يا من هو الله الّذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العـ..»

نظرت إلى شاشة هاتفى المحمول.. أشارت لى (إخلاص) لأقف فى الشرفة الضيّقة للحصول على استقبال أفضل للصوت ففعلت..
- خيراً يا (ميخائيل)..
- الأستاذ (أنسى فيلمون) من توكيل (تى بى كلاسيك) إتصل بى يا ريسة منذ دقائق.. يريد إستغلال برنامجنا الجديد فى بث دعاية إعلانيّة لمنتجاته..
- لماذا لم يتّصل بالمحطة ..؟..
- (بلهجة خاصة): الرجل قريبى يا ريسة، ويريد عمل بعض البيزنس بعيداً عن المحطّة.. أنت تعلمين أنّ أحد شروط التعاقد بيننا وبين المحطّة هو حصولها على النسبة الأكبر من أى تعاقد على مواد إعلانيّة ودعائية نجلبها للبرنامج و..
- هذا كلام لا تصلح مناقشته على الهاتف أيّها الذكى.. مّر علىّ فى المكتب عند عودتك لنتناقش..
- أمرك يا ريسة..
- كيف أخبار العمل..؟..
- تمام..
- لا تنس أن تتصل بى فى حال حدوث أى شئ..

- بالتأكيد..

أنهيت المكالمة وعدت إلى (إخلاص)..

- آنى طبعاً كنت فـ حال غير الحال.. فـ يوم من دى الأيام لَقيته داخل عليّا بيقوللى ياللا هاتدخلى المستشفى وتعملى العمليّة.. منين يا (نعمان) يرد ويقوللى ربنا مابيسيبش حد.. ماخبيش عليكى يا ست هانم.. آنى كانت حالتى صعبة أوى.. ماناكفتش معاه كتير.. رحت المستشفى اللى فـ (سموحة).. نضافة إيه وأبهة إيه.. المهم.. عملولى العمليّة.. فقت لقيت (نعمان) جنبى.. والداكتور بيقوللى مبروك.. قعدنا أد ما قعدنا ف المستشفى ورَجَعنا البيت..

- وفـ الفترة دى ما جابش سيرة اللى حصل فـ المصنع..؟..

- مرّة واحدة سألته عملتوا إيه ف المصنع يا (نعمان) ، فرد عليّا وطمّنى إن الإدارة وافقت تصرف للعمّال حقوقهم..

- ولمّا رجعتوا البيت..؟؟..

- لمّا رَجَعنا وابتديت نفوق لنفسى، لاحظت إن حاله اتقلب.. سرحان ومهموم على طول.. ساكت مابيتكلّمش، واللقمة بياكلها بالعافية.. وبطّل ينزل الشغل.. فضَلت وراه إنّى نعرف ماله.. مفيش فايدة.. قاللى إنّه مربط مع الريّس (حمدى) على أجازة كام يوم كده لغاية ما يطمّن عليّا.. قلت له طب آنى عايزة نزور (محفوظة) مرات (عمّار).. زىّ مايكون شاف عفريت.. إتجنن وزعق فيّا.. ليه يا (نعمان)..؟.. ضرب لخمة.. ماعَرَفش يرد.. وبعدين راح قايللى هيّا يعنى كانت جَت سألت عليكى وانتى ف المستشفى..؟.. الخلاصة علشان ماطوّلش عليكى يا ست هانم.. جه فـ يوم وخرج.. غاب طول اليوم.. ورَجع ع العشا مضروب وعينه وارمانة.. إتخضّيت.. مين اللى عمل فيك كده ياخويا..؟.. قاللى الحرّاس اللى فـ فيللا الحاج (صالح) صاحب المصنع.. وفجأة لقيته بيعيّط زى العيّل الصغيّر، وحكى لى ع اللى حصل ف المصنع، والاتفاق اللى كان بينه وبين الحاج (صالح) ربنا ينتقم منّه..

- يعنى ماعرفش يقابل صاحب المصنع..

- لا صاحب المصنع ولا الكلب اللى اسمه (حسين مغاورى).. ومن ساعتها وهو بعيد عنّك راكباه العفاريت.. طول ماهو قاعد بيكلّم

نفسـه.. عــمّال يستسـمح فــ زملاتـه.. جبـت لـه الشـيخ (ابراهيمـ) رقـاه وبخره مفيـش فايـدة.. لغايـة مـا فـ يــوم خــد فــ وشّــه وهــج م البيـت..

- راح فين..؟..

إنهمرت دموعها من جديد وهى تقول:

- سـارح فــ الشــوارع بيكلّـم نفسـه.. يفضـل طـول النهـار يلـف بــحرى عـلى رجليـه.. ينـده عـلى (عــمّار) و(عاشـور) والريّـس (حمـدى).. وييجـى آخـر الليـل ينـام ف أى حِتّـة.. نـاس كتـيرة شـافوه وحاولـوا يرجعـوه بيتـه ماعرفــوش..

قالتهـا وعـادت تبـكى بحـرارة.. فى هــذه المـرّة لـم أسـتطع أن أمنـع نفسى.. أخرجــت منديــلاً ورقيّــاً مــن حقيبــتى وأنــا أهبـط درج البنايــة.. مسـحت دموعــى وارتديــت منظـارى الشـمسى، بينمــا كلماتهــا الضارعــة تــتردد فى ذهــنى:

- سـايقة عليـكى النـبى يـا سـت هانـم.. لـو تعـرفى سـكة تخرّجـى بيهـا الرجالـة مـن حبسـهم مـن غـير مـا تجيـبى سـيرة (نعمـان) يبقـى كـتّر خـيرك.. كفايـة الـلى صابـه.. داحنـا غلابـة واتلعـب بينـا والله..

***

الله أكبر.. الله أكــبر..

جغرافيّـاً يقـع جامـع (القائـد إبراهيـم) فى حـى (الأزاريطـة)، ولكنّـه ارتبـط عنـدى بــ (محطـة الرمـل) المجـاورة لـه.. وكالعـادة يسـبق جميـع مسـاجدها فى تـلاوة الأذان..

برغـم أنّ السـاعة لـم تتجـاوز الثالثـة عـصراً، إلا أن الشـمس كانـت محجوبة تمامـاً بغطـاء كثيـف مـن الغيـوم الرماديّـة.. غيـث خفيـف بـدأ يتسـاقط مـن السـماء.. مـن الواضـح أنّهـا نـوّة عنيفـة بالفعـل..

أشــهد أن لا إله إلا الله..

واقفـة عـلى الكورنيـش أدخـن سـيجارة.. سرحـت قليـلاً وأنـا أتأمّـل الأمـواج العاليـة، ومراكـب الصيـد مـن بعيـد تجاهـد للعـودة إلى الميـنـاء قبـل أن تشـتد العاصفـة ..

أشـهد أنّ مـحمّداً رسـول الله..

برغـم نُـذر النـوّة إلا أنّ شـارع البحـر المبتـل مكتـظ بالسـيّارات والمـارة

والباعـة الجائلـين وأسراب العشـاق المتناثريـن عـلى سـور الكورنيـش.. نـداءات الباعـة والميكروباسـات لا تتوقـف.. بينمـا عـلى الجانـب الآخـر مـن الطريـق تـتراص الكافيتريـات السـياحيّة أسـفل البنايـات القديمـة رائعـة المنظـر المنتـشرة عـلى طـول الكورنيـش..

حـيّ على الصلاة..

لَكَم عشقت هـذا المشهد الملحمى الرائع الّـذى تمتزج فيه الأصوات بالألـوان والروائـح والـرذاذ المتطايـر القـادم مـن البحـر.. لوحـة نـادرة تأملتهـا مـراراً وحـدى وبصحبـة (مجـدى) أثنـاء خطبتنـا وبعـد زواجنـا.. كان مصـوّراً عاشـقاً للجمـال، وكان يـرى أن عـشرات الصـور والـكادرات لا تكفـى لإبـراز روعـة ميـدان (سـعد زغلـول) والكورنيـش المواجـه لـه..

- ليس الموضـوع تناسـقاً للألـوان أو النسـب.. إنّـه سر يكمـن فى روح المكان ذاتـه.. الـروح الّـتى تتداخـل فيهـا الألـوان والأشـكال والأصـوات والوجـوه والأغـانى وزخّـات ميـاه البحـر ورائحـة اليـود.. الـروح الّـتى تحمـل تاريخـاً طـويلاً وذكريـات قديمـة مطبوعـة عـلى الأرض والبحـر والهـواء.. إنهـا الحيـاة..

كـذا سـمعته يـردد ذات يـوم بينمـا نحـن مسـتندين إلى سـور الكورنيـش نلتهـم حبّـات الترمـس أو سندويتشـات الفـول و الفلافـل مـن (محمـد احمـد)..

- الأمـر يفـوق قـدرة أى مصـوّر أو رسّـام أو كاتـب.. فقـط كامـيرا السـنيما هـى الّـتى تسـتطيع إحتـواء هـذا الزخـم مـن الجمـال..

حـيّ على الفلاح..

كنـت مبهـورة بهـذا المزيـج العجيب من الشـاعريّة والواقعيّة فى شـخصيّته.. فتـارة هـو الفنّـان الرقيـق الحسّـاس.. وتـارّة هـو الصحفـى الجـاد قـوى الشـكيمة والّـذى يقـود كتيبـة كاملـة مـن الصحفيـين فى الجريـدة بقبضـة مـن حديـد.. فى الواقـع كانـت هـذه الـروح هـى الّـتى جعلتـنى أنجـذب إليـه أثنـاء المرحلـة الجامعيّـة، وأذكـر أنّ نوعـاً مـن التنافـس عـلى قلـبى إشـتعل بينـه وبـين (بـشير الهلالى) طالـب الحقـوق الشـاب، وصاحـب الميـول السياسـيّة الناصريّـة الّـتى جلبـت عـلى رأسـه الكثـير مـن المشـاكل.. كلاهمـا شـاب ومتحمّـس وصاحـب شـخصيّة جذّابـة -عـلى اختـلاف ميولهمـا- وفـوق كل

ذلك كانا يحبانى.. غير أننى وجدت نفسى -فى النهاية- أميل إلى (مجدى) الفنّان صاحب الروح المرهفة.. دعك من أنّ (بشير) كان يغادر المعتقل ليعود إليه مرةً أخرى، وانتهى من دراسة الحقوق فيما لا يقل عن التسع سنوات..

- أنت تملك الحماس والإخلاص يا (بشير).. ولكنّك تسلك الإتجاه الخاطئ..

فيسأله (بشير) محنقاً بلكنته الريفيّة قليلاً:

- كيف ذلك أيها الفيلسوف..؟..

يتجاوز (مجدى) إسلوبه العصبى ويجيب بهدوء:

- الثوريّة الّتى تنادى بها دوماً فى الندوات والمقالات لن تؤدى إلا إلى فوضى مدمرة.. المجتمع المصرى الآن محتقن بالفعل لأسباب لا تخفى على أحد، ونُذر الإنفجار تتوالى، والثمن سيكون دمويّاً بحق.. فهل نسعى مع كل هذا إلى التعجيل بالكارثة، أم نبذل جهودنا لتلافيها..؟..

- (بسخرية عصبيّة): وماذا تقترح..؟..

- (يرفع سبابته): لا حل سوى الإصلاح.. الإصلاح من أسفل إلى أعلى..

- (بحدة): وأنا أقول لك أنّ الإصلاح غير وارد طالّما الفاسدين واللصوص والحثالة على كراسيهم ويمسكون بالبلد من عنقها.. ألا تعلم أيّها العبقرى أنّ تنظيف الدرج يبدأ من الأدوار العليا إلى الأدوار السفلى..؟..

- (بهدوء): وبناء الهرم يبدأ من القاعدة إلى القمة.. لا تنس ذلك..

الله أكبر.. الله أكبر..

بعد رحيله.. كنت كثيراً ما أترك سيّارتى وأستقل الترام كما كنّا نفعل، لأقف بالساعات فى ذات الموضع.. أغوص بكيانى كلّه فى ذكريات الماضى الدافئة.. أكاد أراه أمامى يرفع يثبت الكاميرا إلى الحامل الخاص بها.. أو يرفع أصابع يديه أمام وجهه مستخدماً إبهاميه وسبباتيه كإطار ليحدد به كادراً ما أثار إعجابه.. أسمعه يهمس فى أذنى بكلمات دافئة يخفق لها قلبى، بينما أصابعه تحتضن أصابعى.. و.. و..

تسألنى لماذا قَدِمت إلى محطة الرمل يا دكتور (حازم)..؟.. لأقابل الريس (فتح الله) بالطبع..

***

وضعــت الفتــاة الشــابة صينيّــة القهــوة عــلى المنضــدة أمامــى قائلــة بتهذيــب:

- إتفضّلى ..

- (مبتسمة): شكراً..

- العفو..

- متشكرين يا (عزّة) يا بنتى..

قالهــا الريّــس (فتــح الله) شــاكراً وهــى تنــصرف، ثــم التفــت إلىّ ونهــض يناولــنى الفنجــان الّــذى يتصاعــد منــه البخــار زكى الرائحــة قائــلاً:

- من ساعة ما حصل اللى حصل وآنى مش قـادر نورّى وشى للناس..

شكرته وتناولت رشفة من القهوة متسائلة:

- ليه يا ريّس (فتح الله) ..؟..

جلس على المقعد المقابل لى قائلاّ بمرارة:

- لأنى طـلَعت ريّـس كرودية.. ريّـس هــفأ.. خدتـنى المريسـة وازاى وازّاى بقـى نسـمعو كلام (حمـدى) والـلا (عاشـور) والـلا أى حـد مـن العمّـال اللى آنى ريّـس عليهـم ..؟.. وسـبت شـويّة ولاد كلـب يلعبـوا بيّـا وبالـلى خلفـونى الكـورة..

- يعنى العـمّال فـ المعتقل دلوقت يا حاج..؟..

- ربنا يفك أسرهم..

- أىّ معتقل بالظبط..؟..

- الله أعلم..

وصمت لحظة ثم استطرد:

- عارفـة يـا بنـتى آنى إيـه أكـتر حاجـة مزعّــلانى..؟.. إنى مـن بعـد مـا عَرَفـت إن اللجنـة النقابيّـة إتخلّـت عنّـا جـالى الضغـط ودخلـت المستشـفى وكنّـت هانـروح فيهـا.. كانـوا إخـواتى وزمايـلى عاملـين الإضراب فــ المصنـع ومطلّعين عـين أم الإدارة، وآنى راقـد ع السريـر مشـلول مـش عـارف نتحـرّك.. مـش عـارف نـروح لهـم ونفضلـو معاهـم فــ وقفتهـم..

وعـاد يصمـت للحظـات ليلتقـط أنفاسـه.. إرتشـفت مـن القهـوة، وتأمّلتـه.. كهـل فى السـتّين مـن عمـره.. شـارب أبيـض كـث.. التجاعيـد تمـلأ الوجـه.. جلبـاب بسـيط فـوق جسـد نحيـف.. أمـا العينـين فباهتتـين مغرورقتـين

بالدموع..

- آنى حاولت نسأل فـ مديريّة الأمن.. الظابط الكبير اللى هناك شتمنى وقاللى الموضوع كبير واحسن لى أبعد واربى عيالى بدل ماتلط..

- ....

- إلا يا بنتى ماتعرفيش تكلّمى لنا حد نعرفو منّه خدوا الرجالة على فين..؟.. دى حالة أهاليهم تصعب ع الكافر..

- (متجاهلة سؤاله): طب وقابلت (نعمان) إمتى..؟..

إلتقط نفساً عميقاً وقال:

- (نعمان) غاب مع اللى غابوا.. شهر كامل مانعرفش عنّه ولا عن زملاته أى حاجة.. لغاية ما لَقيته جاى لى البيت.. فَرَحت.. خدته فـ حضنى.. سألته خرج إزاى وان كان لوحده والا معاه بقية الرجالة.. قعد يبكى.. إيه اللى جرى يابنى..؟.. حكى لى الحكاية الطويلة اللى سيادتك عارفاها.. إستنّيته لمّا خلّص حكايته.. وتفّيت ف وشّه وضربته قلمين، وطردته.. كنت هنتجـَن.. بقى انت يا كلب يا وسخ اللى ضيّعت زملاتك اللى طول عمرك آكل شارب نايم معاهم.. لا حول ولا قوّة إلا بالله.. بينى وبينِك.. لمّا هديت وقعدت نفكر فـ كلامه صُعب عليّا.. ولاد الكلب عـَرفوا يستغلّوا عيا مراته ويضحكوا عليه.. ومين عارف لو آنى أو أى حد م الرجّالة كنّا ف مكانه كنّا هانعملوا إيه..

- بس مين اللى حرق باقى مكن المصنع..؟.. مش الإدارة طلبت منّه إنه ينسف غلاية واحدة بس..؟!..

لم يجب.. نهض إلى بوفيه خشبى عتيق جداً.. فتح أحد أدراجه وأخرج منه صحيفة مهترئة.. تناولتها منه.. عدد قديم هو من صحيفة (الجمهوريّة).. وجدت دائرة مرسومة بقلم حبر أحمر على أحد الموضوعات..

- هذا وقد أكّدت التحقيقات أنّ التخريب الّذى قام به العمال المتمرّدون قد شمل جميع ماكينات وأجهزة المصنع باعتراف العمّال أنفسهم وذلك كنوع من الضغط على إدارة المصنع لإجبارها على صرف بعض المستحقات الماليّة التى يرونها -العمّال- من حقهم.. وأعلن السيّد (مراد شلبى) مدير التحقيقات بشركة (مصر للتأمين) أنّ فريقاً

مـن موظفـى الشركـة يقـوم بعمـل حـصر للخسـائر والأضرار الّـتى أصابـت الماكينـات توطئـةً لتقديـر مبلـغ التأمـين المسـتحق، الّـذى سـتمنحه الشركـة لمـلاك المصنـع..

تساءلت بدهـشة :

- الإدارة هـى اللى حرقت المكن..؟!!..

- ولاد الكلـب الحراميّـة ضربـوا عصفوريـن بحجـر.. إتخلّصـوا م الغلابـة الـلى بيطالبـوا بحقوقهـم، وهــبروا مبلـغ التأمـين..

- بـس همّـا كـده بيخـسروا كتـير.. لـو حاولـوا يبـدأو مـن جديـد هايلاقـوا أسـعار المكـن إرتفعـت جـداً ومبلـغ التأمـين ممكـن مايغطيهـاش..

- ويـبدأوا من جـديد ليه..؟.. ما خلاص كدة المصلحة خلصت..

- إزّاى..؟..

- هوّا ده بقى العصفور التالت..

- عصفور..!!!..

- إيـوة يـا بنـتى.. الـشركا المصريـين والأجانـب لمّـا اشـتروا المصنـع م الحكومـة، خـدوا معـاه إعفـاءات ضريبيّـة وجمركيّـة لمـدّة عـشر سـنين يخلصـوا بعـد ٣ شـهور.. فضلـوا يشـتغلوا ويصـدروا ويكسـبوا طـول الــ ٩سنين الـلى فاتـوا مـن غـير مـا يدفعـوا ملّيـم للضرايـب والجـمارك.. ولمّـا مـدّة الإعفـا قرّبـت تخلـص خـلاص فكـروا انّهـم يخلعـوا م الموضـوع كلّـه بـدل مـا يدفعـوا فلـوس أد كـده للحكومـة.. وجـت لهـم حكايـة العمّـال ع الطبطـاب..

والتقط نفساً عميقاً ثم أضاف:

- دلوقـتى يقـدروا يخلعـوا بالأربـاح الـلى حققوهـا ومبلـغ التأمـين زى الشــعرة م العجـين..

- (بذهول): معقولة..؟؟!!!.. طب فين الحكومة والنيابة والتحقيق..؟؟!!..

- (بسـخرية مريـرة): خـبر ايـه يـا بنـتى..؟.. هــو انى برضـه الـلى هانقولّك..؟.. مـا حضرتـك أكيـد عارفـة إن الحكومـة مـش نايمـة عـلى ودانهـا وعارفـة كل حاجـة.. بـس الدنيـا مصالـح يـا عـم صالـح..

***

سألته وأنا أتأهب للانصراف:

- تعرف الباشمهندس (أحمد خشبة) يا حاج (فتح الله)..؟..

- (يصمت للحظات): مش واخد باللى ولامؤاخذة يا ست هانم.. ده كان معانا فـ المصنع..؟..

- لا.. ده مهندس معمارى مش ميكانيكى..

- (بعد تفكير): لا والله يا بنتى مافتكرش إنّى نعرفه.. أصلى آنى طول عمرى م البيت للمصنع وم المصنع للبيت.. ومنعرفش حد غير زملاتى اللى فـ المصنع ربنا يفك أسرهم..

***

إنـه الغـروب.. أعلـم أنـّك تأخـرت كثـيراً، ولكنـى لا أطـلب منـك سـوى سـاعة أخـرى يـا صديقـى.. لا تقلـق.. طبعـاً سأسـعد كثـيراً لـو شرّفتـى بالمبيـت فى مـنزلى المتواضـع، ولكنـى لا أريـد أن أسـبب لـك أيـّة ضغـوط أو مشـاكل.. القـارب الـّذى أقلّـك مـن (الإسـكندريّة) إلى هنـا موجـود وجاهـز ليعيـدك إليهـا مـتى شـئت..

لا أخفـى عليـك.. فى أوّل جلسـاتى مـع الباشـمهندس (أحمـد خشـبة) لـم آخـذ أمـره مأخـذ الجـد.. فقـط جلسـت منصتـاً إليـه مجاملـةً لابنـتى (آيـة) الـّتى طلبـت مـنّى أن أفـعـل بنـاءً عـلى طلـب معيدتهـا السـابقة مـدام (أمـل الشـافعى) كمـا سـمعت منـذ قليـل عـلى التسـجيل الصـوتى.. فى البـدء بـدا لى شـاباً عابثـاً يبحـث عـن إثـارة لـم تمنحـه إيّاهـا ثـروة والـده.. وفى أعمـاق كنـت أنـوى إلقـاء الموضـوع خلـف ظهـرى بعـد انتهـاء أوّل جلسـة ..

غـير أنّ القصـة بـدأت تشـدنى رويـّداً رويـداً.. كانـت عـلى قـدرٍ كبـير مـن المنطـق.. برغـم غرابـة هـذا المنطـق..

ثـم تلـك الـتراجيديا المأسـاويّة الـّتى سـمعتها مـن كليهمـا -(أحمـد) و(أمـل)- عـن تمـرّد العمّـال والمؤامـرة القـذرة الـّتى انتهـت بهـم إلى المحاكمـة العـسـكريّة فالمعتقـل ولا شئ سـواه.. كل هـذا يصعـب أن يكـون مجـرّد تلفيـق عـلى سـبيل الدعابـة مثـلاً أو قـتل وقـت الفـراغ..

إنتابتـنى حـيرة شـديدة إزاء هـذه القضيـّة الغامضـة.. برغـم أن عمـلى الفعـلى هـو الطـب النفسـى، إلا أنـى أعتبرالتحليـل النفسى هـو عشـقى الأوّل والأخـير.. أجـد متعـتى فى ممارسـته والتنقـل بـين أسـاليبه ومدارسـه المختلفـة.. ورغـم قلّـة عـدد الحـالات الـّتى مارسـت معهـا أسـاليب التحليل النفـسى، إلا أنـى أزعـم أنّهـا أكسـبتنى خـبرة لا بـأس بهـا فى هـذا المجـال..

عـندما سـمعت القصّـة للمـرّة الأولى مـن (أحمـد)، فكّـرت فى أنّ الأمـر لـن يعـدو كونـه وسـاوس.. صحيـح أنـّه لـم يبـد عـلى الشـاب أنـه مـن النـوع الهسـتيرى المُهيّـا لإختـلاق الأوهـام.. كلامـه مـتّزن وممنطـق إلى حـدٍ كبـير..

ولكـن..
مـن قـال أنّ الهيسـتريا ضروريـة لإختـلاق الـــوهم..؟.. التفاعلات النفسـية الّـتى تجـرى فى ثنايـا العقـل معقّـدة جــداً.. وأغلبهـا لا نـدرى عنـه شـيئاً.. هـل شاهــدت فيلـم (fight club)..؟.. لا..؟.. فى هــذا الفيلـم عـانى البـطل مـن ضغــوطٍ نفسـيّة واجتماعيّـة هائلـة يعـانى منهـا المجتمـع الغـربى كلّـه.. وكـرد فعـل دفاعـى.. إبتكـر عقلـه شـخصية وهميّـة جعلـه يراهــا أمامـه رأى العـين، ومنـح هـذه الشخصيّــة جميـع الصفـات الإيجابيّـة الّـتى يفتقــر هـو إليهـا فى مواجهـة الضغـوط الّـتى يتعــرّض لهـا.. فعـل عقله كل هـــذا دون أن يبـد للأشخـاص الخارجيـن المحيطـين بـه أى شئ غـير عـادى.. فهـل ينطــبق هـــذا ــفكرت- عـلى حالـة مهندسـنا الشـاب..؟.. وإذا كانـت الإجابـة بنعـم، فمـا سـبب هـــذه الوسـاوس..؟.. ولمـاذا بـرزت الآن..؟..

***

سألت والدته فى إتصال هاتفى:

- هـــل عــانى الباشـمهندس (أحمـد) مـن أيّـة مشـكلات أو ضغـــوط منـذ عودتــه مــن (الإسـكندريّة)..؟..

- (لحظـات مـن الصمـت ثـم): لا.. لا أعتقـد.. كنّـا سـعـداء جداً –والـده وأنا- بعودتــه، ولـم ندّخـر جهـداً لإسـعاده.. حـتّى عــندما أراد أن يسـتقلّ بحياتـه وعملـه، لـم نقـف أمـام إرادتـه.. بالواقـع لـم نفعلهـا معـه منـذ مولـده..

***

إنصـبّ تفكـيرى لبعـض الوقـت عـلى التفتيـش عـن أسـباب اختـلاق عــقل الفـتى لهـذه الضـلالات.. كان هــذا قبـل الجلسـة الطويلـة الّــتى جلسـتها مـع (أمـل الشـافعى) فى مكتـبى بقسـم الأمـراض النفسـيّة والعصبيّـة الّـذى أرأسـه بكليّـة الطـب.. بلبلـت الأحـداث الرهيبـة الّـتى سـمعتها مـن الإعلاميّـة الشـابة كل أفـكارى واسـتنتاجاتى.. إذن فالأمـر ليـس مجـرّد أوهـام إختلقهـا عقـلُ مضطـرب.. هنـاك أرضيّـة واقعيـة تسـتند عليهـا الأحـلام الّـتى يراهـا خــلال نومـه..

إذن فالسؤال هنا طبقاً للمعطيات الجديدة هو:

مـا هـــو الظـرف الزمــانى والمـكانى والموضوعــى الّــذى تتقاطـع فيــه القصّتـان.. قصـة رحلـة (أحمـد) إلى (الإسـكندريّة) وقصـة تمـرّد العــمّال..؟..

سـؤال بـلا إجابـة.. لأنّ الفـتى لـم يذكـر لقائـه بـأي مـن أطـراف القصـة الثانيـة، بـل عـلى العكـس نفـى ذلـك نفيـاً قاطعـاً.. وعندمـا سـألت (أمـل) الريّـس (فتـح الله) -الوحيـد البـاق خـارج المعتقـل مـن أطـراف القصّـة- نفـى مـعرفته بمـن يُدعـى الباشـمهندس (أحمـد خــشبة)..

طبعـاً لـم أؤمـن لحظـة بموضـوع تناسـخ الأرواح هــذا.. الديـن والعقـل والمنطـق يرفضانـه رفضـاً باتّـا.. برغـم كل الأدلّـة الّـتى تسـوقها (أمـل).. هـى نفسـها لا تؤمـن بـه، ولجـأت إلىّ بحثـاً عـن تفسـير عمـلى حقيقـى للحالـة الّـتى يمـر بهـا (أحمـد).. لـذا كانـت أوّل خطـوة فى طريـق فـك طلاسـم هــذا اللّغـز هـى اسـتبعاد هــذا التفسـير العبـثى تمامـاً..

***

- مأساة حقيقيّة..

كـذا قالـت (نشـوى) -زوجـتى- بعـد أن رويـت لهـا قصـة تمـرّد العمّـال والمأسـاة الّــتى انتهـت بهـا كمـا حكتهـا لى (أمـل).. سـألتها وأنـا أرقــب قطـرات المطـر الّـتى تـضرب زجـاج النافـذة:

- ماذا ترين أن نفعل..؟..

إعتدلت فى فراشها مرددة باستغراب:

- نفعل..؟..

- أقصد ماذا نفعل إزاء ما أخبرتك به عن العمال المظلومين..؟..

- وما الّذى بيدنا لنفعله..؟..

إلتفتّ إليها قائلاً بتوتّر:

- أى شئ لإنقـاذ الأبريـاء القابعـين فى المعتقـل.. يمكنـنى أن أحــدث (زكريّـا بـك).. أنـت تعلمـين مـدى نفـوذه ومـا يمكـن أن يفعلـه.. علاقـتى بـه جيّـدة جـداً و..

سـطع الـبرق فى هــذه اللحظـة ليـضئ السـماء المظلمـة خارجـاً، وانعكـس ضـوءه عـلى وجههـا الغاضـب وهـى تقاطعـنى باسـتنكار:

- ومـاذا..؟.. هـل سـتطلب منـه التدخـل للإفـراج عنهـم..؟.. هـل تتوقـع أن يـستجب لـك إذا فعلـت..؟؟!!..

بــوووووووم (هـزيم الرعد).. لم أرد..

- هــل نسيت أن هـؤلاء البؤساء تمّت محاكمتهم عـسكرياً..؟.. ألا تعرف

مـا هـى الجهـة الوحيـدة الّـتى لهـا سـلطة تحويـل مدنيـين إلى المحكمـة العــسكريّة..؟.. وهـل أنت مسـتعد للوقـوف فى مواجهـة هــذه الجهـة..؟..

كانــت محقــة بالفعــل فى إســتنكارها وأسـئلتها.. عــدت أتأمّــل الأمطــار المنهمـرة بغـــزارة فى الخـــارج وقلــت بتخـــاذل:

- ولكـن يـا (نشـوى).. هــؤلاء المسـاكين تعرّضـوا لظلـمٍ شـديد.. ونحـن نعلـم ذلـك.. مـاذا سـنقول لله تعـالى عندمـا يسـألنا عـمَّ فعلنـا لرفـع هـذا الظلـم..؟..

أزاحــت الأغطيــة عنهــا ونهضــت مــن الفــراش.. إقتربــت مــنى ووضعــت كفّهــا عــلى كتفــى قائلــة برفــق:

- يـا حبيـبى.. لا يكلّـف الله نفسـاً إلا وسـعها.. هــذه مشـكلة كبـيرة.. أكـبر منـك بكثـير.. كمـا أنّهـا لا تخصّـك مـن الأسـاس، وتدخّلـك فيهـا لن يـؤدى إلى أيّـة نتيجـة، بـل عـلى العكـس سـيثيرغضب الكبـار عليـك..

إلتفتّ إليها.. نظرت إلى عينيها مباشرة وهى تتابع:

- لا تنـس أن الإنتخابـات عـلى الأبـواب، وسـتليها حكومـة جديـدة.. مركـزك قـوى.. وفـرص تولّيـك رئاسـة الجامعـة قويـة، فـلا تـدع أى شئ يضيّعهـا..

تنهدت مستسلماً، فابتسمت وهى تربت على وجهى قائلةً:

- (ضـوء الـبرق يلتمـع فى عينيهـا): إذهــب لتتوضـأ وتصـلى ركعــتىّ قيـام الليـل، وسـيجعل اللـه لـك بحولـه وقوتـه مـن أمـرك رشـداً..

بـــووووووم (هزيم الرعد)..

***

ليـس الأمـر إذن متعلّقــاً بــأى صـورة بتلـك الخرافــة المسـمّاة (تناسـخ الأرواح).. أبسـط دليـل عـلى ذلـك أنّ (عمّـار) إن لـم يكـن حيّـاً يُـرزق فى هـذه اللحظـة فى زنزانتـه، فــقد كان كذلـك منـذ عــدة أشـهر مضـت.. ومـن البديهـى أن خرافـة التناسـخ تقـوم عـلى عــودة روح الميّـت إلى الحيـاة مـرّة أخـرى فى جسـد قـادم جـديد إلى الدنيـا، وليـس فى جـسد شـاب يافـع مثـل (أحــمد خشـبة).. أى أنّ الـروح المتناسـخة العائـدة إلى الحياة-وفقـاً لمنطـق الخرافـة- تــحلّ فى الجسـد الجديـد وهـو فى بطـن أمـه، وهـو الأمـر الّـذى يدحـض التفسـير تمامـاً لأن كلا الشـخصين -(أحمـد) و(عـمّار)- متقاربـين فى العــمر لـو افترضنـا أنّ (عــمّار) فى الأربعينـات مـن عمـره..

إذن ما لم يكن الأمر متعلّقاً بخرافة التناسخ، فما تفسير ما يراود الفتى من أحلامٍ ورؤى، حدثت فى الواقع بشكل يتطابق مع هذه الأحلام..؟..

حسناً.. التفسير الّذى يوفق بين معطيات هذه القضيّة الغامضة ويتوافق معها -هكذا فكّرت- هو أنّ (أحمد خشبة) يمر بأزمة ضمير حادة.. نعم.. هو ما سمعت.. أزمة ضمير..

المشكلة بدأت كالتالى:

الشاب العابث اللاهى يعثر أخيراً على هدفه الّذى يبحث عنه.. يسافر إلى (أوروبا) لتلقى العلم.. يقابل معمارياً إشتراكيّاً بارعاً -نسيت اسمه- يعلّمه أنّ المعمارى الحق لا يفصل قناعاته السياسيّة والإجتماعيّة عن حرفته..

وبدونهما لا يستحق المعمارى أن يكون كذلك فعلا مهما بلغت حرفيّته وبراعته.. ويصبح بالفعل مجرّد مقاول كل مهمّته هى بناء أكبر عدد من المكعّبات الخرسانيّة العملاقة لحشر أكبر عدد من البؤساء داخلها..

يعود الفتى إلى وطنه مُحمّلاً بآمالٍ كبرى.. يحلم بتغيير فعلى يحققه فى العقليّة المعماريّة المصريّة.. يملك علمه.. يملك خططه.. يملك ثقته بقدراته.. يرفض عروض والده بالثراء.. يترك (بارادايس هايتس).. يهبط ليعيش وسط الناس فى (الإسكندريّة).. على مدى أشهر طويلة يحاول أن يحقق أحلامه.. يُصدم من الكم الهائل من الفساد و الجهل و التخلّف المستشرى فى المحليات وبين الناس.. يمر الوقت ولا شئ يتحقق.. المشكلة أن الشاب تربى فى مجتمعٍ آخر، تعوّد فيه على أن يأمر فيُجاب.. لذا فكان من الصعب أن يقنعٍ بالمزيد من الصبر، وبأنّ ما تعقّد فى قرون يستحيل فكه فى أشهر..

لا يا أستاذى.. لست مغاليا و لا متجنّيا.. ما تعيشه (مصر) حاليا هو نتاج مئات السنين من القهر والذل.. لقد التوت طبيعة الناس أنفسهم..

عـاد إلى (بارادايـس هايتـس).. مّـر بفـترة مـن التخبّـط، ثـم ارتـد إلى صوابه، وبـدأ يمـارس عملـه مـن جديـد بصـورة أخرى..
وهنـا بـدأ يسـمع الأنـين.. بـدأ يحلـم بــ (عــمّار) و(عاشـور) و(نعمـان) والمصنـع والتمـرّد و.. و..
لمـاذا هــذه الأحــلام وهــؤلاء الأشــخاص..؟.. ولمــاذا هـــذا التوقيــت بالــذات..؟..
الجـواب كمـا ذكـرت آنفـاً هو أزمـة الضمـير.. الباشـمهندس (أحمد خــشبة) مـازال فى أعمـق أعــماقه مؤمنـاً بالمبـادئ الّـتى تشرّبهـا عـلى يـدىّ أسـتاذه الإنجلـيزى.. متأثّــراً بهـا إلى أقــصى درجــة.. برغـم الهزائـم الّـتى تلقّاهـا والفشـل الّـذى مُـنى بـه فى (الإسـكندريّة) أو هــكذا يظـن..
مـن هنـا نشـأ صراع عنيـف فى أعماقـه بـين مبادئـه الّـتى تفتّـح ذهنـه عــليها، وبــين رد فــعله تجـاه هزيمتـه، والمتمثـل (أى رد الفعـل) فى تنكّـره لهـذه المبـادئ وإسـقاطها مـن حــساباته.. هـذا الـصراع المتصاعد يـدور فى جنبات عقلـه الباطـن، بينمـا عقلـه الواعـى لا يـدرى عنـه شيئاً.. لـذا، فـإن العقـل الباطـن يحـاول تنبيـه العقـل الواعى كوسـيلة لحسـم هـــذا الـصراع.. ويكون هــذا التنبيـه عـن طريـق الأحـلام الّـتى تنتـاب (أحمـد) أثنـاء نومـه.. إنهـا الرسـالة الّـتى يحـاول عقلـه الباطـن إيصالهـا إليـه.. أن هنـاك بؤسـاء كثيريـن يعانـون ظــلماً فادحــاً.. بــؤساء تتجاهـل أنـت معاناتهـم برغـم مسـؤليّتك الّـتى تؤمـن بهـا نحوهـم..

تنمـو مشـاعر التقـزز بداخـلى وتتضخـم.. ومعهـا كانـت ذكريـات حيـاتى فى (بارادايـس هايتـس) تـراودنى فأشـعر بحنـين شـديد إليهـا..
يومـاً بعـد يـوم.. كانـت فكـرة محـددة تترسـخ فى ذهـنى: هـذا ليـس مـكانى.. وهـؤلاء ليسـوا قومى..

المرجّـح أنّ الفـتى عـرف بقصـة إضراب العمّـال بشـكلٍ أو بآخـر أثنـاء إقامتـه بــ (الإسـكندريّة) ولكـن رد الفعـل الهيسـتيرى الناتـج عـن إخفاقـه وفشـله – مـن الواضـح أنّ هـذا الفشـل شـكّل لـه صدمـة عنيفـة –جعـل هـذه القصـة تنسـحب مـن ذاكرتـه المؤقتـة إلى عقلـه الباطـن الّـذى وجـد فيهـا ورقـة

رابحـة لحسـم الـصراع بـين الضمـير ورد الفعـل..
الأحــلام.. الذكريـات.. أصـوات الأنـين.. كل هــذه إشـارات مــن العقــل الباطــن للــصراع الدائــر فيــه بــين المبــادئ والمســئوليّة وبــين رد الفعــل الانهــزامى الّــذى اتخــذه الفــتى..
شرحـت كل هــذا لــ (أحمـد) و(أمـل) الجالسـين قبالـة مكتبى، فتبـادلا نظرة صامتـة طويلـة، قبـل أن تتمتـم الأخـيرة مأخـوذة:
- تفسير غريب حقاً..
تراجعت فى مقعدى قائلاً:
- ولكنّه الأكثر منطقيّة وقرباً إلى الواقع..
ونظرت إلى (أحمد) الّذى لم يتفوّه بـحرف منذ بدأت الكلام وقلت:
- ما رأيك يا باشمهندس..؟..
هـز رأسه وكأنّه يفيق من حلم جديد، وقال:
- لا أدرى يـا دكتـور.. كلامـك منطقـى ومنظـم، ولكنـى لا أسـتطيع الإقتنـاع بأنــى لــم أعــش هــذه الذكريـات مــن قبــل.. لا أعــرف كيــف أصــف لــك الأمــر، ولكــن هـــذه الأحــلام ليســت أحلامــاً عاديّــة.. عندمــا كنــت أحلــم فى العــادة، كنــت أنــسى تفاصيــل الحلــم بمجــرّد إســتيقاظى، أمــا فى هــذه الحالــة فالأمــر يختلــف.. إنــى أســتيقظ مُتذكــراً كل شئ.. كل التفاصيــل.. كل مــا أراه يلتصــق بذاكــرتى.. الوجــوه والأصــوات والروائــح.. حــتى فنيّــات الخراطـة (لاحـظ أنـى لـم أعمـل بهـا مـن قبل)..حيـاة بأكملهـا أكاد أوقـن أنــى عشــتها مــن قبــل..
تنهدت قائلاً:
- هـــذا لأن أحلامـك كمـا قلـت لـك ليسـت عادية.. الحياة والتفاصيـل الّتى تعتقـد أنّـك عشـتها سـابقاً، رأيتهـا كلّهـا أثنـاء إقامتـك فى (الإسـكندريّة)، لـذا فهـى تبـدو لـك مألوفـة.. هـذا يختلـف نوعـاً عـن ظاهـرة الـ (ديجـا ـ فــو) الشـهيرة، فى أنّـك رأيـت التفاصيـل بالفعـل مـن قبـل.. والتصاقهـا بذهنـك بعـد استيقاظك هــو نـوع مـن الوسـائل العقليـة الدفاعيّـة لحسـم الـصراع النفـسى الدائر فى أعــماقك..
- (بتوتّـر): ولكنـى متأكـد أنـى لـم أر هــؤلاء الأشـخاص الّذيـن أحلـم بهم مــن قبل..

- أنـت رأيتهـم بالفعـل.. ولكنّـك نسـيت.. أنـت تعلـم أن ذاكـرة الإنسـان تحتفـظ بـكلّ مـا مـرّ ويمـرّ بـه طيلـة حياتـه، ولكـن عقلـك الواعـى أزاح هــذه الذكريـات مـن ذاكرتـك المؤقتـة.. أطفـأ المصبـاح الّـذى يضيئهـا فتـوارت.. فعـل هـذا كى يـرضى ضمـيرك عـن تجاهلـك للمـآسى الّـتى رأيتهـا أو سـمعت عنهـا.. ولكـن ضمـيرك لـم يفعـل، وراح يوخـزك بهـذه الأحـلام وأصـوات الأنين لتتذكــر..

تساءلت (أمل) باهتمام :

- وماذا عن الكابوس الأخير..؟..

عقدت حاجبىّ متسائلاً بدورى:

- أى كابوس..؟..

(بتوتـر): منـذ إسـبوع كامـل.. كل ليلـة.. نفـس الأحـداث.. نفـس الوجـوه.. نفـس النهايـة البشـعة .. الإحــتراق بـين ألسـنة النـيران..

- الأمر واضح ..

قلتها بحسم، فتطلّعا إلىّ بأعين متسعة مليئة بالتوتر والفضول..

- جــزء مـن القصّـة (الّـتى تعرفهـا ولكنّـك نسـيتها كمـا قلـت لـك) بالـغ الشـناعة.. وهــو فى الغالـب يتعلّـق بــما مــرّ بــه (عــمّار) ورفاقـه عقـب دخولهـم المعتقـل.. هـذا الجـزء الشـنيع مـن القصّـة يحـاول عقلـك الباطـن تذكـيرك بـه بالطريقـة العتيـدة.. بالرمـز.. نظـراً لبشـاعة التفاصيـل الّـتى قـد لا تحتمـل تذكّرهـا..

- وهـل هناك ما هـو أكثر شناعة من السقوط فى النار..؟!!..

- لاحـظ أنّـك لا تكمـل سـقطتك.. عقلـك يقـوم بإيقاظـك قبـل أن تفعـل حـتى لا تمـوت بالصدمـة العصبيّـة.. ولكـن المخيـف بالفعـل هـو مـدى فظاعـة الذكـرى الّـتى تجعـل العقـل الباطـن يداريهـا ويحـاول الإشـارة إليهـا برمـز مثـل النـيران..

قالت (أمل) بتوتر:

- الأكـثر بشـاعة أنّ هــذه الذكريـات الّـتى يجاهـد عقلـه الباطـن لحمايتـه منهـا حــدثت -وربمـا تحـدث فى هــذه اللحظـات- فى الواقـع للعمّـال البؤسـاء..

نـظرت إليهـا بـشئ مـن الضيـق.. الواقـع أنهـا كانـت تتكلّـم وكأنّهـا تقـرأ مـا

يعتمـل فى أعمـاق.. ثمـة شـعور حـاد بتأنيـب الضمـير ينخـس روحـى منـذ سـمعت منهـا تفاصيـل الإيقـاع بالعمّـال والظلـم الّـذى تعرّضـوا لـه..
حـاول أن تفهمـنى يـا صديقـى.. منصـب رئيـس جامعـة (الإسـكندريّة) الّـذى أسـعى إليـه يمثـل طـموحاً عشـت أتعاطـاه طيلـة سـنوات طويلـة مضـت.. وفى الفـترة الأخـيرة كانـت نشـاطاتى سـواء فى الحـزب أو فى الجامعـة كنائـب رئيسـها لشـئون البيئـة مثـار إعجـاب الجميـع.. لدرجـة أن صديقـى الحميـم الدكتـور (زكـريا) قـال لى ذات مـرّة أنّ القيـادات العليـا تتابـع مجهـوداتى برضـا، وأنّهـا تضمـر لى أمـراً عظيمـاً..

ألا تعـرف مـا هـى الجهـة الوحيـدة الّـتى لهـا سـلطة تحويـل مدنيـين إلى المحكمـة العـسكريّة..؟.. وهـل أنـت مسـتعد للوقـوف فى مواجهـة هـذه الجهـة..؟..

الأمـر دقيـق بالفعـل ولا يحتمـل أيـة مخاطـرات.. مجـرّد إثـارتى لهـذا الموضـوع سـيقلب المنضـدة عـلى رأسى ويثـير السـخط عـلىّ بـدون أيّـة فائـدة.. وأصـير «لا طلـت بلـح الشـام ولا عنـب اليمـن» كمـا يقولـون.. لا العـمّال سـيخرجون مـن محبسـهم، ولا أنـا سـأحقق طموحـاتى.. فـلا مجـال إذن لأعـمال بطوليّـة هـى إلى الحماقـات أقـرب..
دعـك مـن أنـى لا ألـم بكافـة تفاصيـل الموضـوع، وهنـاك الكثـير ممـا لا أعرفـه بخصـوص العمّـال والأسـباب الّـتى تدعـو إلى محاكمتهـم عـسكريّاً.. كل مـا أسـتند إليـه هــو أحـلام يراهـا فـتى مضطـرب نفسـيّـاً، وقصـص روتهـا لى منتجـة برامـج تبحـث عـن الإثـارة الصحفيّـة والفرقعـة الإعلاميّـة.. فمـن الجنـون إذن أن أخاطـر بطموحـاتى إسـتناداً إلى مثـل هـذه المعطيـات الواهيـة..
لأتجاهلـنّ الأمـر، ولا أحمّلـن نفسى مسـئوليّة ليسـت لهـا أصـلاً.. وليكونـن هـذا هـو الـرد عـلى إزعـاج الضمـير الّـذى ينغـص عـلىّ حيـاتى منـذ أن عرفـت القصة..
قلت لـ (أحمد) وكأنّما أُخاطب نفسى:
- إنـس.. إبعـد الأمـر تمامـاً عـن ذهنـك.. لا مسـئوليّة عليـك فيمـا أصـاب

هـؤلاء البؤسـاء.. يـداك نظيفتـان تمامـاً مـن دمائهـم ومعاناتهـم.. طمـئن ضميرك المعـذب مـن هـذه الناحيـة.. عـليك أن تنخـرط فى عملـك.. تقـدم إنجـازات مثمـرة.. هـذا هـو المجـال الوحيـد الّـذى يمكـن أن تخـدم النـاس فيـه.. غـير ذلـك فأنـت لا شـأن لـك بـه، ولا تعـرف عنـه شـيئاً مـن الأسـاس.. دعـه لـولىّ الأمـر فهـو عليـه أقـدر..

والتقطت نفساً عميقاً ثم أردفت:

- هــذا هــو العـلاج الوحيـد لمشـكلتك.. التجاهـل والنسيان والانــشغال بالعمـل..

***

كانـت هـذه هـى الجلسـة الأخـيرة الّـتى جمعتـنى بالباشـمهندس (أحمـد خشـبة) ومــدام (أمـل الشـافعى).. لا أخفيـك سراً أنـى كنـت مرتاحـاً إلى إغـلاق ملـف هــذه الحالـة الشـائكة الّـتى سـببت لى الكثـير مـن الضيـق وتأنيـب الضمـير..

تفرّغـت فى الأيـام التاليـة لمتابعـة عمـلى فى الجامعـة وإدارة مستشـفاى الخـاص لعـلاج الأمـراض النفسـيّة والعصبيّـة هنـا فى (بارادايـس هــايتس)، وفى ذات الوقـت حرصـت عـلى مواصلـة نشـاطى الحـزبى..

كانـت بـوادر مشـكلة جديـدة قـد بـدأت فى الظـهور عـلى السـطح بعـد سلسـلة التحقيقـات الصحفيّـة الّـتى نشرتهـا واحـدة مـن الصحـف اليوميّـة الخاصـة حـول تمـرد عــمّال أحـد المصانـع واعتصامهـم فى المصنـع فى محاولـة لإجبـار الإدارة عـلى صرف مسـتحقاتهم المتأخـرة منـذ سـنوات، وعـن مؤامـرة دبرهـا مالـك المصنـع للإيقـاع بهـم..

كانـت التحقيقـات جريئـة فعـلاً.. مصاغـة بإسـلوب رائـع شـديد اللهجـة، وتطالـب بفتـح ملف العـمّال المعتقلين من جـديد ومحاسـبة مـن ظلمهم.. وقـد أثـارت عواصـف مـن الإهتمـام عـلى أصعـدة مختلفـة.. نوقـشت أكـثر مـن مـرّة فى برامـج التـوك شـو اليوميّـة، وتقـدّم عــدد مـن نـوّاب المعارضة فى مجلـس الشـعب بطلبـات إحــاطة و استجوابات لعـدد مـن المسـئولين عـلى رأسـهم وزيـرا الداخليّـة والقـوى العاملـة و ئـيس إتـحاد العـمّال وغيرهم..

أمـا فى الجامعـة، فقـد كانـت ردود الأفعـال أقـوى ممّـا تخيّلـت وتخيّـل الكثـيرون.. فى البـدء لـم يبـد أن أحــداً سـمع بالأمـر مـن أساسـه.. غـير أنّ

المظاهـرات إنــفجرت بغتـة ودون سـابق إنـذار.. راح آلاف الطلبـة والطالبات يجوبون أرجاء الجامعة منددين بالظلم والظـلمة ومــطالبين بإنقاذ العــمّال البؤسـاء.. أثـار هــذا دهــشتى فى بـادئ الأمـر لبعـد المسـافة بـين العالمـين (عالـم الطلبـة وعالـم العـمّال)، وتـساءلت عـن السـبب الّـذى يدفـع آلاف الشـبان والشـابات إلى التظاهـر مـن أجـل عـدد مـن العمّـال، قبـل أن أُدرك الجـواب عـلى الفـور، وأنـا أنظـر إلى الشـاب الملتحـى الأسـمر الّـذى يقـود المظاهـرة حامـلاً مكـبراً صوتيـاً، والّـذى يعـرف الجميـع أنّـه أحـد أبـرز قـادة النشـاط الطـلابى لطلبـة الإخـوان المسـلمين.. إسـمه (مصطفـى عبـد الـرازق) فيمـا أذكـر.. يحيـط بـه عــدد آخــر مـن الطلبـة الملتحـين يـرددون الصيحات الحماسـيّة بصـدق، بينمـا تتعـالى مـن الخلـف الأصـوات الرفيعـة الصـادرة مـن حناجـر الطالبـات المنتقبـات والمختمـرات السـائرات خلـف المظاهـرة..

لا شـك لـدىّ فى صــدق حماسـة هــؤلاء الشـباب، ولكـن اقـتراب موعــد إنتخابـات مجلـس الشـعب القادمـة يطـرح أسـئلة عديـدة حــول حجـم وتوقيـت و -وهــو الأهـم- الدوافـع الحقيقيّـة للمظاهـرة..

قــام حـرس الجامعـة بإغـلاق البوابـات لمنـع المظاهـرات مـن الإنتقـال مـن الحـرم الجامعـى إلى الشـارع، ووقـف العــقيد (سـليمان قــنديل) -قائـد الحـرس- يتوعّـد المتظاهريـن بتكسـير عظامهـم وضيـاع مسـتقبلهم، بينمـا أصابـت الدكــتور (ماجـد رسـلان) - رئيـس الجامعــة الحـالى- حالـة مـن الجنـون وهـو يـرى جحافـل الطـلاب تـدق أبـواب الجامعـة بينمـا أصواتهـم تزلـزل المـكان..

- كل واحـد يرجـع عـلى مدرّجـه.. الـلى مـش هايسـمع الـكلام هايتفصـل فصـل نهـائى ومسـتقبله هايضيـع..

كــذا صرخ بــكل قوّتــه، دون أن يلتفــت إليــه أحـــد.. كان الجــو متوتـراً عــصبيّاً مقبضـاً.. وشـعرت بالشــفقة إزاء عصبيّـة الدكتور (ماجد) وهــو يرى مسـتقبله مهـدداً مابـين غضـب الطلبـة وجحافـل الأمـن..

- الله أكبر ولله الحمد..

- يـا حريّة فينك فينك.. أمن الدولة بينا وبينك..

- مش هنخاف مش هنطاطى إحنا كرهنا الصوت الواطى..

تتـوالى هتافاتهـم الحماسـيّة عـبر مكـبرات الصـوت، لتضيـع بينهـا صرخـات

قائـد الحـرس ورئيـس الجامعـة.. وعـبر أسـياخ حديـد البوّابـة الرئيسـيّة.. وعـلى امتـداد شـارع (سـوتر) بـدت شـاحنات الأمـن المركـزى الضخمـة بلونها الزيتـونى المميّز، وكأنّهـا مجموعـة مخيفـة مـن العمالقـة هائـلى الحجـم.. وتراصـت صفـوف الجنـود سـود الثياب أمـام الـبوّابة، لتتصادم صـيحاتهم القويّـة مـع هتافـات المتظاهريـن..

مـرّت اللحظـات عـصيبة.. الـكل متوتـر.. الـكل يـصرخ.. الأعصـاب مشـدودة.. العـرق ينهمـر عـلى الـوجوه.. «مـش هنخـاف مش هـنطاطى».. عـدد مـن الرجـال يرتـدون الملابـس المدنيّـة والمناظـير الشمسـيّة الداكنـة واقفـون فى الخـارج يراقبـون الموقـف باهتمـام.. لا يحتـاج المـرء لكثـير مـن الـذكاء ليعـرف أنّهـم مـن مباحـث أمـن الدولـة.. «هـاه.. هـااه..».. الفتيـات المنتقبـات يواصلـن الهتـاف بينمـا ترفعـن أكفّهـن المتشـابكة.. مـن هـذه المسـافة أرى عـروق جبهـة (مصطفـى عبـد الـرازق) تنتفـخ ووجهـه الغـارق فى العـرق محمـرّ بشـدة، وهـو يهتـف عـبر مكـبر الصـوت.. «إحنـا كرهنـا الصـوت الـواطى».. جنـود الأمـن المركـزى يدقـون الأرض بأقدامهـم صانعـين إيقاعـاً مخيفـاً ، بينمـا أصابعهـم تقبـض عـلى هراواتهـم .. «هـاه... هـااه»..

***

- هـل تعرف لماذا وقع اختيارنا عليك..؟..

سألنى العقيـد (محمـد السمّان)، فارتـج عـلىّ للحظـات ولـم أدر بـم أرد.. إبتسـم قائـلاً:

- أنـت تعلـم بالتأكيـد أن أهـم ركائـز عملنـا هـو المعلومـات.. لقـد صرنـا فى هـذا المجـال أكـثر خـبرة وكفـاءة مـن المخابـرات الأمريكيـة ذاتهـا.. لدينـا قنـوات معلومـات متدفقـة طيلـة الوقـت عـن كل شئ وكل شـخص فى البلـد.. الهمسـات فى البيـوت مسـجلة لدينـا عـلى الأشرطـة.. تأوهـات النسـاء المنبعثـة مـن تحـت رجالهـن نسـمعها أولاً بـأول.. هـل أنـت معـى..؟..

جف ريقى وأنا أجيب:

- نعم..

- لدينـا ملـف كامـل عنـك يـا دكتـور.. معلومـات عـن عائلتـك.. زوجتـك وأبنائـك.. سـجلّك المهـنى.. بعثتـك إلى (اليابـان).. علاقاتك بزملائك.. سـنوات

الإعـارة الّـتى قضيتهـا مـا بـين (السـعوديّة) و(الكويـت).. المؤتمـرات الّـتى تشـارك فيهـا.. مستشـفاك فى (بارادايـس هايتـس).. نشـاطك فى الحـزب.. كل شئ..

ونظر إلى عينىّ مباشرة مستطرداً بلهجة خاصة:

- حـتى موضـوع شـقيقك الأكـبر الراحـل الّـذى تـوفى فى المعتقـل عقـب القبـض عليـه بتهمـة الإنتمـاء إلى الجماعـات المتطرّفـة..

قلت بصوتٍ مبحوح:

- كان ذلك قبل مدة طويلة..

إبتسم قائلاً:

- بالتأكيد..

وأشار إلى كوب عـصير الليمون المثلج الموضوع أمامى على المنضدة :

- إشـرب الليمون قبل أن يـسخن ..

شكرته وأنا أرتشف من الكوب ، فى حين تراجع هو فى مقعده متابعاً :

- عندمـا فكرنـا فيمـن سـنقوم بتوليتـه رئاسـة الجامعـة خلفـاً للدكتـور (ماجـد رسـلان) –وأنـت تعلـم أن هـذا القـرار لا يخـرج إلا مـن عــندنا– كان لدينـا بعـض المواصفـات الّـتى لابـد مـن توافرهـا فى الشـخص المطلـوب..

و راح يـعد على أصابعه:

أولاً : أن يكون عضواً فى الحزب، ويحوز رضا قيادته..

ثانياً : أن يكون أكاديمى محترم ذو سمعة طيبة..

ثالثاً : ألا يكون له أى نشاط سياسى خارج الحزب ..

رابعـاً : ألا تكـون لـه سـابقة تعامـل أو حـتى تعاطـف مـع الإخـوان المسـلمين..

خامسـاً: أن يكـون مشـهوداً لـه بالتديّـن، وذلـك لحـرق كارت الديـن الّـذى يلعـب عليـه الإخـوان دومـاً..

سادسـاً: القـدرة عـلى اتخـاذ قـرارات حازمـة لخدمـة مصلحـة ووظيفـة الجامعـة، والّـتى تقتـصر فقـط عـلى تقديـم العلـوم للطلبـة ولا شئ آخـر..

وصمت لحظة وكأنما يتابع أثر كلماته علىّ ثم أردف:

- وكل هـذه المواصفـات وجدناهـا تنطبـق عليـك يـا دكتـور (حازم).. فـكان إسـمك هـو المرشـح المثـالى..

كان انفعـالى قــد بلـغ ذروتـه، فتمتمـت بعبـارات شـكر متداخلـة جعلتـه يبتسـم قبـل أن يقـول بجديّـة:

- أول وأهـم وأخطـر أزمـة سـتواجهك هـى النشـاط الإخـوانى فى الجامعـة.. وهـو السـبب الحقيقـى فى إقالـة سـلفك الدكتـور (ماجـد) - وليسـت المظاهـرات الأخـيرة فقـط- برغـم كفاءتـه الإداريـة، ولكـن الكفـاءة الإداريـة ليسـت كل شئ كمـا سـبق وأخبرتـك.. النشـاط الإخـوانى متغلغـل فى الجامعـة بشـكل قـوى جـداً، ويـكاد يتفـوّق عـلى نظـيره فى جامعـتىّ (القاهـرة) و(عـين شـمس).. والخطـة الجديـدة لمحاصرتـه هـى جعـل طلبـة الإخـوان عـبرة لمـن يعتـبر.. لقـد أعلـن لقـد تحـدى هـؤلاء الفتيـة الأمـن، مدفوعـين بتعليمـات مـن الكبـار مـن أجـل مكاسـب سياسـية، فـلا أقـل مـن أن يـرى النـاس أن الثمـن فـادح حقـاً، وسـيكلّفهم مسـتقبلهم ذاتـه..

إلى جانـب مـا سـنفعله نحـن.. نريـد فصـل عديديـن، ومنـع آخريـن مـن خـوض الإمتحانـات.. إتحـاد الطلبـة القـادم لابـد أن يخلـو ممـن لا تتضمّنـه قائمتنـا.. الشـدة يـا دكتـور .. ننتظـر أن نـرى منـك الكثـير منهـا..

قلت بصوتٍ مبحوح:

- سأكون عند حسن الظن بإذن الله..

وارتشفت من عصيرالليمون، بينما هو يقول:

- الجامعـة مـن أخطـر المنابـر الّـتى يتسـلل منهـا الفكـر الإخـوانى وينتـشر بـين الشـباب، وقـد لاحظنـا زيـادة معـدل هـذا الإنتشـار فى الفـترة الأخـيرة بمـا يهـدد أمـن واسـتقرار الجامعـة وقدرتهـا عـلى أداء مهمتهـا..

وأشعل سيجارة مستوردة نفث دخانها متابعاً:

- ولكـن سياسـتك فى إدارة كليـة الطـب أثنـاء توليـك منصـب عمادتهـا تجعلنـا نتفـاءل بصـدد قدرتـك عـلى التعـاون معنـا، لحفـظ الأمـن والاسـتقرار فى الحـرم الجامعـى.. فهـل أنـت جاهـز..؟..

***

بكل تأكيد..

لا تظلمنى يا صديقى ولا تفهمنى بشكل خاطئ..

لسـت إسـتغلالياً ولا خائنـاً.. وليـس فى الأمـر شـبهة لصفقـة بيـنى وبـين الأمـن..

كـل مـا هنالـك أن للجامعـة وظيفـة محـددة هـى العلـم ولا شئ سـواه كما قـال العقيـد (محمـد السـمّان).. ومـن الطبيعـى أنّ أى محاولـة لإسـتغلالها -أى الجامعـة- كمنبـر للتظاهـر أو أى غـرض آخـر سـياسى أو غـير سـياسى لابـد مـن مقابلتهـا بمنتهـى الشـدة والحـزم وإلا صـارت الأمـور «ميغـة» واسـمح لى.. هـذا جانـب..

الجانـب الآخـر هـو موقفـى الفكـرى مـن المعارضـة السياسـيّة بشـكل عـام ومعارضـة الإخـوان بشـكلٍ خـاص.. هـذا الموقـف نابـع مـن آراء لفقهـاءٍ عظـام فى الديـن الإسـلامىّ الحنيـف.. الإسـلام يأمـر المؤمنـين بالطاعـة المطلقـة للحاكـم أو ولىّ الأمـر.. يقـول الله عـز وجـل فى كتابـه العـزيز: بسـم الله الرحمـن الرحيـم (وأطيعـوا الله وأطيعـوا الرسـول وأولى الأمـر منكـم).. أى ربـط تبارك وتعـالى طاعـة الحاكـم (ولىّ الأمر) بطاعتـه وطاعـة رسـوله الكريـم صلى الله عليـه وسـلّم، وعليـه فـإن معصيـة الحاكـم تعـد معصيـة لـرب العـزّة وللرسـول الكريـم.. بـل لقـد ذهـب بعـض الفقهـاء الثقـات، إلى أنّ معصيـة الحاكـم والثـورة عليـه لا تجـوز حـتى ولـو سرق أو زنى، مـادام ينطـق بالشـهادتين ويـؤدى الصـلاة.. هـذه الفتـوى ليسـت إعتباطـاً، ولهـا بالتأكيـد مغـزى وهـدف أكـبر.. ألا وهـو وأد الفتنـة الّـتى ستنشـأ بسـبب تمـرّد الرعيّـة عـلى راعيهـم.. هـذه الفتنـة الّـتى قـد تغـرق البـلاد فى بحـورٍ مـن الـدم.. بالتأكيـد قـرأت شـيئاً مـن التاريـخ الإسـلامى يـا صديقى، وتعلـم المـآسى الّـتى جـرت بسـبب تمـرّد بعـض الثـوّار عـلى حكـم الخلفـاء الأمويـين والعباسـيين مـن بعدهـم.. ومـا كانـت النتيجـة..؟.. لا شئ.. الحكـم ظـل بـاق كمـا هـو، ولكـن أنهـار الدمـاء شـقت أراضى (مـصر) و(الحجـاز) و(الشـام) و(العـراق).. فالحـل المثـالى فى رأيى هـو الصـبر عـلى البـلاء والتـضرّع إلى الله عـز وجـل لرفعـه.. هـذا فى حالـة فسـاد وظلـم الحاكـم، وهـو مـا ليـس موجـوداً لدينـا فى (مـصر) بالمـرّة ولله الحمـد..

مـن هـذا المنطلـق، كنـت دومـاً رافضـاً لأى نـوع مـن الدعـاوى الّـتى تنـادى بالثـورة عـلى النظـام وإسـقاطه مهمـا كانـت النوايـا الكامنـة وراء هـذه الدعـاوى صادقـة.. إنهـا مسـألة عقيـدة وإيـمان، و ليسـت مزايـدة للحصـول عـلى مكاسـب مـن النظـام.. لـذا فقـد كانـت سياسـتى أثنـاء رئاسـتى لقسـم الطـب النفـسى ثـم عمـادتى لكليّـة الطـب هـى الوقـوف بحـزم أمـام أى

محاولة لإستغلال الأنشطة الطلابيّة فى التحريض ضد النظام.. كثيراً ما كنت أشعر بشئ من تأنيب الضمير وأنا أُعاقب طالباً أو أنهر طالبةً، ولكنّها مسئوليّتى أمام الله وإدارة الجامعة من بعده..

وبذلك لم يكن صعباً علىّ الموافقة على عرض (سمهِ أمراً لو شئت) العقيد (محمد السمّان)..

***

كما لك أن تتوقع كان هناك الكثير من الضجيج والمشاكل..

كنت -هذه المرّة بالذات- فى منتهى الشدّة والحزم.. قمت بفصل عدد كبير من الطلبة ومنعتهم من أداء إمتحانات هذا الفصل الدراسى، وأعطيت الحرس الجامعى صلاحيّات كبيرة وصلت لدرجة السماح لهم بتفتيش سيّارات الأساتذة الجامعيين أنفسهم.. بالطبع سبب هذا ثورة عارمة بين الأساتذة ضدى، ولكننى كنت مصراً.. طلبة الإخوان يقومون بإدخال لافتات وسمّاعات وميكروفونات وبروجكتورز يستخدمونها فى التظاهر.. يسرّبون هذه الأجهزة خلسةً إلى داخل الجامعة برغم رقابة الأمن المشددة.. فلا مجال إذن لإستثناء سيارات الأساتذة من التفتيش، والمفروض أنّ هذا جزء من النظام الجامعى - الّذى أُضعه أنا بصفتى رئيساً للجامعة- وعليهم أن يتقبّلوه.. دعك من أنّ عدداً من هؤلاء الأساتذة الغاضبين ينتمى فعلياً إلى الجماعة المحظورة، ولدىّ قائمة كاملة بأسمائهم.. وهو ما أعلنته فى إجتماع لمجلس الجامعة كان مخصصاً فى الأصل لمناقشة زيادة الميزانيّة المرصودة لتطوير البحث العلمى، واستغلّه بعض الأساتذة الغاضبون لمناقشة الإجراءات الأمنيّة الّتى يرونها غير مقبولة..

ثارت إحتجاجات كثيرة.. وانبرت صحف المعارضة تهاجم مواقفى، وخضت معارك كلاميّة حامية على شاشة برامج التوك شو دافعت فيها عن سياسة الجامعة، وأعلنت مبدأى الرافض تماماً لتسييس الجامعة..

أقام الطلبة المفصولون دعاوٍ قضائيّة ضد الجامعة حكمت لهم بمواصلة الدراسة وخوض امتحانات الفصل الدراسى، غير أنّ العقيد (السمّان) أخبرنى أن أتعامل مع تلك الأحكام باعتبارها حبراً على ورق، لأنّ القضاء مخترق بعناصر من الإخوان ففعلت..

مـع قـدوم موعـد إنتخابـات إتحـاد الطـلبة، منعـت عـدداً مـن الطـلاب المعروفـين بانتماءاتهـم الإخوانيّـة مـن الترشـح لعضويّـة الإتحـاد.. ثـارت العديـد مـن الإعـتراضات، وحـاول وفـدُ مـن هـؤلاء الطلبـة مقابلـتى فرفضـت، بـل أن إحـدى الطالبـات المنتقبـات حاولـت إعتراضى أثنـاء توجهى إلى سـيارتى لمناقشـتى بشـأن منـع الطلبـة مـن خـوض الانتخابـات، رفضـت مناقشـتها فـأصرّت لدرجـة أغضبتـنى بشـدة، فـثرت وكـدت أن أصفعهـا عـلى وجههـا، لـولا أنّ رجـال الحـرس الجامعـى المحيطـين بى تدخلـوا فأبعدوهـا، ودفعهـا أحدهـم بقـوّة فألقاهـا أرضـاً.. أثـار مشـهدها وهـى تنهـض باكيـة شـفقتى، غـير أنـى لـم أكـن لأسـمح لمشـاعرى بـأن تسـيطر علـىّ أثنـاء أدائى لعمـلى.. كان الأمـن قـد أرسـل إلىّ بقائمـة الطلبـة المسـموح لهـم بخـوضِ الانتخابـات (وسـأكون صريحـاً معـك وأقـول لـك أنّهـم المسـموح لهـم بالسـفوز بعضويّـة الاتحـاد)، وبالتـالى لـم يكـن هنـاك مجـالاً للمناقشـة بشـأن ترشـح آخريـن قـد ينجحـوا وقـد لا يفعلـون..

أعـلم أنّ هـذه الإجـراءات الّـتى اتخذتهـا قـد تبـدو مـن النظـرة الأولى متعسـفة أو غـير شرعيّـة (ولا أكذبـك خـبراً بأنـى كنت كثـيراً ما أتألّم بـسبب ضيـاع فصـولاً دراسـيّة عـلى طـلبة فى سـن أبنـائى) ولكـن النظـرة المتأنيّـة بالتأكيـد سـتغيّر الكثـير مـن المفاهيـم.. الـضرورات تبيـح المحظـورات أحيانـاً.. والـضرورة الّـتى أمامـى الآن هـى قطـع الطريـق أمـام الفصائـل السياسـيّة المعارضـة كالإخـوان وغيرهـم لتسـييس الجامعـة واتخاذهـا منـبراً لبـث فكـر التمـرّد والثـورة عـلى النظـام.. فـلا منـاص مـن اتخـاذ بعـض الإجـراءات الّـتى قـد تبـدو تعسّـفية غـير مشروعـة لتحقيـق الهـدف الأهـم الّـذى هـو مـشروع بـكل تأكيـد.. وبينمـا أنـا غـارق حـتى أذنىّ وسـط كل هـذه المشـكلات، وصلـنى فى مكتـبى طـردُ صغـير يحمـل شـعار (فـيديكس).. قمـت بتمزيـق المغلـف البلاسـتيكى الخارجـى، فوجـدت بداخلـه شريحـة موبايـل مطبـوع عليهـا شـعار واحـدة مـن شركات المحمـول، ومعـه ورقـة بيضـاء مطويّـة.. فضضتهـا، وجـرت عينـاى بسرعـة عـلى كلماتهـا القليلـة..

***

عزيزى (د.حازم أبو زيد)..

للأهميّـة القصـوى.. أرجـو منـك تشـغيل الشريحـة المرفقـة بهـذه الرسـالة

علـى وجـه السرعـة، وسـتتلقى مـنّى إتصـالاً بمجـرد أن تفعـل إن شـاء الله.. الأمـر عاجـل وشـديد الخطـورة..

(أمل الشافعى)

***

قـرأت الرسـالة بسرعـة، وشـعرت بالدهشـة لغموضهـا، ولكنـنى لـم أتوقف عندهـا طويـلاً.. وضعـت الشريحـة والرسـالة داخـل المغلـف البلاسـتيكى، ثـم وضعـت الأخـير فى حقيبـتي، وعـدت لمتابعـة عمـلى..

نسـيت قصـة الشريحـة تمامـاً بقيّـة اليـوم مـع انشـغالى فى العمـل، غـير أنـنى تذكرتهـا مـرّة أخـرى ليـلاً وأنـا مسـتلقٍ عـلى فـراشى أردد أذكار النـوم بصـوتٍ خفيـض خاشـع فى ظـلام غرفـة النـومِ.. تذكرتهـا بغتـة فتوقفـت عن الترديـد، ورحـت أفكـر فيهـا وقـد عاودتـنى الحـيرة إزاء غموضهـا وإسـلوبها الموحـى بالخطـورة..

نهضـت مـن الفـراش محـاذراً إيقـاظ زوجـتى المسـتغرقة فى النـوم إلى جـوارى، وهبطـت إلى غرفـة المكتـب (الّـتى نجلـس فيهـا الآن).. جلسـت إلى مكتـبى، ودسسـت الشريحـة الأليكترونيّـة فى محمـول قديـم الطـراز وقمـت بتشـغيله.. مـرّت لحظـات مـن السـكون ثـم..

تـررررن.. تـرررررررررن..

نظـرت للهاتـف بدهشـة.. أَمِـن المعقـول أن تكـون جالسـة بانتظـارى..؟!!.. ضغطت زر ok و أنـا أدس مسماع الـ (hand – free) فى أذنى و..

- (بنبرة ارتياح): أخيراً..
- (بحذر): مدام (أمل)..؟..
- ظللت أجرب الإتصال بك طيلة اليـوم ..

تجاوزت دهشتى وسألتها:

- هل هناك ما يدعو لهذه الإجراءات البوليسيّة..؟..
- بالتأكيد..

إنتظرت أن تشرح لى، ولكنها لزمت الصمت.. سألتها:

- كيف حال الباشمهندس (أحمد)..؟..
- ليس على مايرام..
- أمازالت تنتابه تلك الأحلام..؟..

- لم تتوقف ليلة واحدة..

- (بدهشة): أمازال ضميره يؤنبه إزاء تجاهله لهموم العمّال..؟! ..

- ليست مسألة ضمير بأى حال..

نفَد صبرى بالفعل إزاء كل هذا الغموض الّذى تتصنّعه.. قلت بحدة:

- لِمَ لا تتكلمى بوضوح إذن بدلاً من هذا الفيلم..؟..

مرت لحظات من الصمت، قبل أن تقول بحروف بطيئة مُنذرة:

- ما لـدىّ يتفـوق عمليّـاً عـلى أفـلام (هوليـود) ذاتهـا، حـتى أنـنى أحيانـاً أكاد لا أصـدق مـا وقعـت عليـه..

- (بنفاد صبر): وما الّذى وقعت عليه بالضبط..؟..

- هل يسمح وقتك بـأن أحكى لك..؟..

نظـرت إلى السـاعة ذات النقـوش الذهبيّـة الموضوعـة عـلى مكتـبى، فوجـدت عقاربهـا تقـترب مـن الثانيـة صباحـاً.. لا بـأس.. سـأدعها تتحـدث لــ ١٠ دقائـق أخـرى، فـإذا وجـدت كلامهـا غـير ذى أهـميّة، فسـأقطع الإتصـال عـلى الفـور.. أنـا رجـل صاحـب مسـئوليّات، وليـس لـدىّ وقـت لأى هـراء..

- تفَضلى..

***

-٩-

أمل الشافعى

إنـس.. إبعـد الأمـر تمامـاً عـن ذهنـك.. لا مسـئوليّة عليـك فيمـا أصـاب هـؤلاء البؤسـاء.. يـداك نظيفتـان تمامـاً مـن دمائهـم ومعاناتهـم.. طمـئن ضميرك المعـذب مـن هـذه الناحيـة.. عـليك أن تنخـرط فى عملـك.. تقـدم إنجـازات مثمـرة.. هـذا هـو المجـال الوحيـد الّـذى يمكـن أن تخـدم النـاس فيـه.. غـير ذلـك فأنـت لا شـأن لـك بـه، ولا تعـرف عنـه شـيئاً مـن الأسـاس.. دعـه لـولىّ الأمـر فهـو عليـه أقـدر..

***

لـن أكـذب عليـك دكتـور (حـازم).. تحليلـك لحالـة (أحمـد) كان منطقيـاً جـداً.. ولكنـى لـم أهضـم منطقـك الّـذى حاولـت إقناعـه بـه ليـنزع موضـوع العمّـال مـن ذهنـه.. بـل أنـى شـعرت - ولعـلّى مخطئـة- أنّـك أنـت نفسـك غـير مقتنـع بهـذا المنطـق.. أنـت رجـل متديّـن يـا سـيدى وتعلـم أنّ (السـاكت عـن الحـق شـيطان أخـرس) كمـا أخبرنـا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلّم.. والجـرم واضـح و صريـح أمـام أعيننـا.. فـلا مجـال للتبريـر واختـلاق الحجـج للتهـرب مـن مسـئوليّة فضـح الظلـم..

فى أعمـاق كنـت أعـرف أنـى لـن أقـف مـكتوفة اليديـن (فيمـا بعـد حكيـت القصـة كلهـا لزميـل دراسـة قديـم لى يعمـل حاليـاً صحافيّـاً فى إحـدى صحـف المعارضـة بموضـوع العمّـال وكتـب عنـه سلسـلة تحقيقـات أثـارت ضجـة).. ولكنـى لـم أتفـوه بكلمـة عـن نواياى لــ (أحمـد).. المسـكين كان يمـر بحالـة لا مثيـل لهـا مـن العصبيّـة والتوتـر والخـوف.. حاولـت تهدئتـه و- أسـأل الله أن يسـامحنى- إقناعـه بمنطقـك.. نصحتـه بالانغمـاس أكـثر فى العـمل، وذكرتـه بأننـا أضعنـا وقتـاً ثمينـاً.. وكنـت أرى بالفعـل أن الانشـغال بالعمـل قـد يسـهم كثـيراً فى علاجـه، غـير أنّـه أجابـنى بابتسـامة مريـرة:

- كيـف تنتظريـن منـى أن أعمـل بينمـا سـاعات نومـى اليوميّـة لا تزيـد عـن الثلاث سـاعات..؟!..

كان محقـاً.. نظـرت إلى وجهـه الشـاحب ووجنتيـه البارزتـين، والهـالات الداكنـة (الّـتى ازدادت سـواداً فى الفـترة الأخـيرة) حـول عينيـه.. العينـين

المحمرّتـين الزائغتـين.. هـل هـذا وجـه قـادر عـلى العمـل..؟!! ..
تنهدت قائلة:
- أسأل الله تعالى أن يشفيك..
كنّـا جالسـين فى مقدمـة زورقـه الخـاص الّـذى ينقلنـا مـن (بارادايـس هايتـس) إلى (الإسـكندريّة).. البحـر هـادئ بالفعـل، والجـو لطيـف.. نظـرة غريبـة إنبعثـت مـن عينيـه..
- (أمل)..
- نعم..
- من فضلك لا تتخل عنّى..
وراح جسـده يرتعـش.. شـعرت بشـفقة حـادة تجاهـه.. رغمـاً عـنّى وجدتـنى أنـهض مـن مقعـدى لأربـت عـلى كتفـه مهدئـة..
- ستجدنى بجوارك دائماً.. فقط هدئ من روعك..
رفـع عـينين مترقرقتين بالدموع.. حدّق فى وجهى.. قال بصوتٍ متهدج:
- أحبك..
- ماذا..؟!..
لـم يـردّ.. وفى اللحظـة التاليـة، فوجئـت بـه يمـد ذراعيـه بغتـةً ليحتضنـى ويضمـنى بقـوّة إلى صـدره.. وشـعرت بشـفتيه تلتصقـان بـشفتىّ.. أخذتـنى المفاجـأة لأوّل وهلـة.. مـلأت أنفـى رائحـة أنفاسـه المعتقـة برائحـة الـتبـغ.. إنتفـض جسـدى كلّـه.. دفعتـه عـنّى بـكل قـوّتى صارخـة:
- هل جننت..؟..
لا أعـرف إن كانـت دفعـتى هـى السـبب أم هــو جسـده المتهالـك بفعـل الإنفعـال وقلـة النـوم.. طـار جسـده إلى الخلـف كـأنّما تلقـى قنبلـة فى صـدره.. تجـاوز حاجـز القـارب واختفـى مـن أمـام ناظـرىّ، وسـمعت صـوت إرتطامـه بالميـاه..
صرخـت أنـادى عـم (خليـل) -قائـد القـارب- الّـذى بـدا وكأنـه لـم يلحـظ أى شئ ممـا جـرى بسـبب ضجيـج محـرّك القـارب.. هـرع الرجـل مذعـوراً لـيرى مخدومـه الشـاب بـين الأمـواج.. أوقـف المحـرك، فى حـين قذفـت أنـا طـوق نجـاة مربـوط بحبـل نحـو الفـتى الّـذى بـدأ يسـبح عائـداً إلى القـارب..
***

الكثـير مـن الإعتـذارات.. الكثـير مـن التوسـلات.. الكثـير مـن الدمـوع إنهمـر مـن أعـين كلانـا.. عـدت إلى بيـتى وقـد اتخـذت قـراراً حاسـماً بقطـع علاقـتى بهـذا الشـاب المنحـرف الـّذى لا يسـتطيع التحكـم فى مشـاعره، ولا يفـرّق بـين أُنـثى وأخـرى..

غمـرنى شـعور عـارم بالمهانـة والنـدم عـلى اندفاعـى فى علاقـتى بـه إلى الحـد الـّذى جعلـه يتجـرّأ عـلىّ إلى هـذه الدرجـة ويقـدم عـلى فعلتـه الطائشـة الـّتى فعـل.. قالـت لى والـدتى بحـزم بعـد أن قصصـت عليهـا مـا جـرى:

- إنه خطأك بالطبع..

- كيف يا أماه..؟..

إنفجرت غاضبة:

- منـذ حادثتـك وأنـتِ تنسـين دومـاً أنـّك أُنـثى، وتتعاملـين مـع الجميـع كأنـّك رجـل.. وكـم مـن خلافـات نشـبت بيـنى وبـين والـدك بشـأن هـذه النقطـة، لأنـه كان فـخوراً بـكِ ودأب عـلى منحـك حريـّة مطلقـة مسـاوية للـّتى يمنحهـا لشـقيقك الرجـل..

- ولكن يا أمى..

- لا تقاطعيـنى.. أنظـرى إلى أفعالِـك منـذ بـدأت تلـك المشـكلة الـّتى قصصتهـا عـلىّ.. لا أتحـدث عـن أسـفارِك الكثـيرة، ولا سـهرك لأوقـات متأخـرة خـارج البيـت لأنـى أعلـم أنـّكِ تكونـين فى العمـل (برغـم تحفظـى عـلى نوعيـة العمـل الـّتى تدعـو المـرأة إلى التأخـر ليـلاً) ولثقـتى فى أخلاقـك.. كلامـى هنـا عـن ذهابِـك إلى (كرمـوز) ليـلاً بصحبـة شـاب غريـب مضطـرب نفسـيّاً، ومحاولـة السرقـة الـّتى تعرضـت لهـا.. والحيـوان الـّذى مـد يـده عليـك.. ثـم ذلـك الشـاب الوقـح الـّذى لـم يقـدر ثقتـك بـه وحـاول أن يُقبلـك.. مـا الـّذى جعلـك تنحدريـن إلى هــذا الحـد..؟.. كيـف سـمحتى لنفسـك أن تصـل بـكِ الأمـور إلى هـذه الدرجـة الـّتى انهـار معهـا إحـترام النـاس لـك بهـذا الشـكل المخـزى..

كانـت تتكلـّم، ومـع كلماتهـا امتـلأت نفسـى بالخـزى والمـرارة.. حاولـت أن أرد.. لـم أسـتطع..

- مالِـك أنـتِ ومـا يعانيـه هـذا الفـتى المخبـول..؟.. أهـو زوجـك أم أخيـك

أم قريبـك..؟!!.. مـا الّـذى حـشرك فى كـل هذا العـك..؟!!..

حـقاً.. مـا الّـذى «حـشرنى» فى كل هـذا «العـك»..؟!!.. كنـت قـد أخبرتـك مسبقاً -لـو تذكـر- دكتـور (حـازم) أنـنى متحـيرة بشأن دوافعـى للوقوف إلى جـوار (أحمـد ممتاز خشـبة) فى المحنـة الغريبـة الّـتى يمـر بهـا.. الآن أقـول لـك وبعـد أن فكـرت فى الموضـوع بهـدوء ورويّـة، أنّهـا كانـت حالـة تعاطـف إنسـانى لا تخلـو مـن فضـول صحفـى مهـنى إكتسـبته بحكـم عمـلى.. هـذا فقـط هو مـا حـشرنى»..

- كـونى عاقلـة يـا بنيّـتى كمـا كنـت دومـاً.. تخلـصى كليـاً مـن هــذا الموضـوع الشـائك، واقطعـى علاقتـك نهائيـاً بذلـك الشـاب المخبـول الوقـح..

لا بأس.. كنت قد اتخذت هذا القرار مسبقاً..

- حاضر..

- وأعدّى نفسِك لأنّ هناك عريساً يرغب فى رؤيتك..

عـريس..!!! ..

- طبيب أطفال.. زميل لشقيقك الأكبر فى (جَدّة)..

لا رد..

- (محمود) شقيقك يثنى بشدّة على أخلاقه وتديّنه ونجاحه فى عمله..

لا رد..

- عرف ظروفك، ووافق عليها..

لا رد..

- هـل أُصابِك الخرس..؟!..

- ماذا تريدينى أن أقول يا أُماه..؟..

- رأيك..

- ولمـاذا رأيى..؟!!.. ألـم يـثن (محمـود) عـلى أخلاقـه وتديّنـه..؟.. إذن مـا الحاجـة لـرأيى..؟!.. كل مـا عـلىّ إذن أن أُعـد نفـسى كىّ أروق لـه..

- (بغضب): (أمل)..

- منـذ مـتى عهدتيـنى مـن هـذا النـوع مــن النسـاء يـا أمـى..؟.. هـل نسيت كيـف تزوجـت (مجـدى)..؟.. كنتـم جميعـاً عـدا أبى رحمـة الله عليـه ترفضونـه وتفضلـون عريسـاً آخـر أغـنى، ولكنـنى تحديـت الجميـع وأصررت عليـه لأنـنى أحببتـه..

- وما كانت النتيجة يا فالحة..؟..

- جعلنى أسعد إنسانة فى العالم..

- وماذا ترك لك بعد وفــ..

بـترت تساؤلها وهـى تنظـر لى بوجـهٍ شـاحب.. عضـت بأسـنانها على شـفتها السـفلى.. نظـرت لهـا صامتـة، فقالـت والدمـوع تترقـرق فى عينيهـا:

- أريد أن أطـمئِن عليك قبل أن أموت يا (أمل)..

شعرت بالدموع تحتشد فى عينىّ أنا الأخرى.. إحتضنتها قائلة:

- بعد الشر عليكِ يا ست الكل..

إستكانت بين ذراعىّ وهى تقول:

- العمـر يجـرى يـا بنيّـتى ولـن أعـش أكـثر ممـا عشـت.. منـذ أن نفّـذ الله مشيئته واختـار زوجـك وطفلـك إلى جـواره وأنـا أتعـذب كل يـوم، عندمـا أفكـر أنـنى سـأموت وأتـركك وحيـدة فى هـذه الدنيـا..

ربتّ على ظهرها وقلت:

- لسـت وحيـدة يـا حبيبـتى.. لـدىّ إخـوتى وأبنائهـم وبناتهـم أطـال الله فى عمـرك وأعمارهـم جميعـاً.. لـدىّ عمـلى وزمـلائى و..

قاطعتنى و هـى ترفع رأسها نحوى:

- الدنيـا تلاهـى يـا بنيّـتى.. ولا أحـد فـاضى لأحـد.. لابـد للواحـدة منّـا مـن رجـل ليكـون ظهـراً لهـا ليحميهـا..

- ربنا موجود يا أماه..

- مـاذا سـتفعلين عندمـا يتقـدم بـك السـن وتصبحـين وحيـدة لا مؤنـس لـكِ..؟..

- (بمرح): سأتزوج حينئذ..

- لن تجدى من يرضى بك وقـد كبرت سنّك وأصبحت عجوزاً..

وحرّكت أصابعها على وجنتى مردفة برقة:

- أنـتِ لسـت عجـوزاً بعـد، وجميلـة كالقمـر.. ومرغوبـة.. فلِـمَ ترفضـين حـتى مجـرد التفكـير فى الأمـر..؟..

- لأننى مازلت أحب زوجى الراحل ولا أتخيّل نفسى مع أحدٍ سواه..

- (بضراعـة): فقـط إمنحـى هـذا العريـس الجديـد فرصـة.. قابليـه لمـرّة واحـدة ثـم اقبليـه أو ارفضيـه..

صمتّ مفكرة للحظات ثم تنهدت قائلة:
- حسناً يا أمى.. كما تـشائين..

***

غـادت الحمـام -بعـد دش سـاخن- ضـامرّة أطـراف البرنـس الأبيـض عـلى جسـدى.. أمـام المـرآة جلسـت أمشـط خصـلات شـعرى المبتلّـة.. غريـبٌ هـذا.. ثمـة شـعور غـير مألـوف يداعبـنى.. بالأحـرى هـو شـعور مألـوف ولكنّـه قديـم.. قديـم جـداً ولـم أشـعر بـه منـذ سـنين طويلـة.. مـا سر هـذا السـعادة الغامضـة الّـتى تتلاعـب فى أعمـاق..؟.. أتـرانى مازلـت مراهقـة تفـرح بإعجـاب شـاب مثـل (أحمـد خشـبة) بهـا..؟.. أم هـى بهجـة خفيّـة أرفـض الإعـتراف بهـا سـببها وجـود مـن لايـزال يرغـب فى الإرتبـاط بى..؟.. يالحماقـتى..!!..

أسـنان المشـط تتحـرك بـين خصـلات الشـعر الّـتى كانـت فائقـة النعومـة فى يـوم مـن الأيّـام، ثـم لـم تعـد كذلـك.. منـذ مـتى -فكـرت- فقـد شـعرى نعومتـه..؟..

لمـع الخاطـر بذهـنى فى لحظـة.. إقتربـت بنصفـى العلـوى مـن سـطح المـرآة المغطـاة بعـض مواضعـه بالبقـع الداكنـة.. لاحظـت وجـود خطـين منحنيـين يحيطـا بالجفنـين السـفليين.. وثمـة خطـوط خفيفـة جـداً عـلى جانـبىّ شـفتىّ..

نهضـت واقفـة وسـحبت حـزام البرنـس تاركـةً البرنـس نفسـه يهـوى عـلى الأرض.. تراجعـت خطـوة للـوراء، وتفرسـت فى تفاصيـل جسـدى العـارى.. بالتأكيـد لـم يعـد هـو ذات الجسـد الـنضر الرشـيق الّـذى انـتزع تلـك التنهيـدة الحـارّة مـن صـدر (مجـدى) ليلـة الدخلـة والّـتى دفعـت الدمـاء السـاخنة إلى وجنـتىّ.. لـم أصر بعـد كـرة مـن الشـحم ، ولكـن.. مـتى تهـدل صـدرى بهـذه الصـورة..؟.. مـتى امتـلأ ردفـاى بهـذا الشـكل..؟.. مـا هـذه الاسـتدارة الّـتى صـارت عليهـا بطـنى..؟.. كـرش..؟!!.. هـل حقـاً صرت مـن صاحبـات الكـروش..؟!!..

تنهدت بحرارة..

هاقـد بـدأ مـرور الزمـن- كمـا تقـول أمـى - يـترك آثـاره عـلى ذلـك الوجـه والجسـد الّـذى همـس (مجـدى) يومـاً فى أذنى أنّـه لـن يشـيخ أبـداً..

(مجـدى سـليم).. طالـب الإعـلام النموذجـى.. الرجـل كمـا ينبغـى أن يكون.. الشـخصيّة الكاسـحة الطموحـة قويّـة الشـكيمة.. الـذكاء المتوقـد والبديهـة فائقـة السرعـة.. الطـول الفـارع والوسـامة الأخّـاذة.. صوتـه القـوى الواثـق -الرفيـق برغـم ذلـك- وهـو يصارحـنى أسـفل إحـدى الشـجرات المتناثـرة فى باحـة الكليّـة.. بأنّـه يميـل إلىّ ويرغـب فى الارتبـاط بى.. لحظـة أقـرب إلى الحلـم.. تفاصيـل لا تبـارح ذاكـرتى.. أصـوات الطيـور.. الأفـق المصبـوغ بلـون الشـفق الأحمـر.. الهـواء الخريفـى البـارد قليـلاً.. أوراق الشـجر الصفراء المفروشـة والمتطايـرة مـن حولنـا.. أنفـاسى المأخـوذة.. شفتـاه الرفيعتـان يحيـط بهمـا شـارب ولحيـة دقيقـان.. ثـم العيـنين.. العينـان البنيّتـان اللتـا تهمسـان بالكثـير والكثـير.. هـل كان مـن الممكـن أن أرفـض..؟..

(مجـدى سـليم).. الصحفـى الموهـوب.. الاسـم اللامـع الّـذى صعـد بسرعة الصـاروخ ليتـولى منصـب مديـر التحريـر فى واحـدة مـن أهـم الصحـف المصريّـة فى الفـترة الأخـيرة.. أداء متميـز.. إسـلوب راق.. إدارة حازمـة.. ذكاء فى التعامـل مـع الحكومـة..

- فى ظـل الظـرف الراهـن يمكنـك مهاجمـة أيّـة أوضـاع فى البلـد بـشرط الإبتعـاد عـن مؤسسـة الرئاسـة..

قلت له معترضة:

- ولكن هذا يعد بالفعل قصوراً فى ممارسة الصحافة..

- أعلـم هـذا، ولكنّهـا قواعـد اللعبـة الصحفيّـة فى (مـصر) وعلينـا أنّ نقبلهـا كمـا هـى إذا أردنـا العمـل كصحفيـين لخدمـة هـذا البلـد..

أدرك بالفعـل قواعـد اللعبـة مبكـراً جـداً ولعـب عليهـا محافظـاً عـلى الخـط الرفيـع الفاصـل بـين الصحفـى الـذكى البـارع والصحفـى المنافـق المـوالس فحقـق نجاحـاً كنـت أفتخـر بـه دومـاً رغـم إبتعـادى عـن الصحافـة وانخراطـى فى مجـال إنتـاج البرامـج..

جلسـت عـلى طـرف الفـراش وأشـعلت سـيجارة.. نظـرت إلى صـورتى المنعكسـة عـلى زجـاج المـرآة.. لا داعـى للمزيـد مـن الذكريـات يـا (أمـل).. لقـد ذهـب زوجـك وطفلـك ولـن يعـودا وبذهابهمـا انتهـت حياتِـك فعليّـاً.. هـلا أخبـرتيـنى مـا الّـذى تفعلينـه فى حياتـك..؟.. ما الّـذى ترمين إليـه من وراء كل هـذا العمـل والنشـاط والتقافـز مـن مـكانٍ لمـكان..؟.. المـال..؟.. هـذه

ليست الحقيقة وأنتِ تعلمين هذا، فأسرتك ميسورة الحال والحمد لله.. الطموح..؟!!.. لا تكذبى.. أى طموح تبغين تحقيقه بإنتاج تلك البرامج السخيفة الّتى تعلمين جيّداً فى أعماقك مدى تفاهتها وسذاجتها..؟..

أنفث دخان سيجارتى..

إضاعة الوقت.. هذا هو الجواب الّذى أنتظره.. أنت وحيدة يا صديقتى.. وحيدة وبائسة وبلا هدف.. ويوماً ما كما قالت أمك ستتلفتين حولك فلا تجدين أحداً.. الكل مشغول بحاله.. ستنكمشين حول نفسك بينما جبال الجليد تتعالى من حولك حتى تقضين نحبك بعد سنوات من الوحدة والوحشة دون حتى أن يشعر أحد باختفاءك من على خارطة الأحياء..

ضممت ركبتىّ إلى صدرى وأحطتهما بذراعىّ.. كنت أرتعش لا أدرى أمن البرد أم من الحزن.. برد قارص مخيف وحزن عميق ثقيل.. جذبت أغطية الفراش لألفها حول جسدى العارى.. نظرت إلى أصابعى.. كانت السيجارة ترتعش بين سبابتى ووسطاى، بينما الدموع تحتشد فى مقلتىّ..

وعندما يبلغهم جيرانك بأنّ رائحة عفونة قادمة من شقتك -عندها فقط- سيذكرون أنّ لهم صاحبة ظلت فى طى النسيان لسنوات وسنوات قبل أن تموت وحيدة منسيّة..

***

كانت نوبة اكتئاب إعتدت زيارتها لى من آنٍ لآخر من بعد وفاة زوجى وطفلى.. يوم أو يومين أقضيهما فى الفراش لا أحادث أحداً ولا أتناول طعاماً، وتكاد أمى تموت خلالها هلعاً و حزناً علىّ.. ثم لا ألبث أن أعود إلى حالتى الطبيعيّة..

أرجو عُذرك يا دكتور (حازم) لإسترسالى بعيداً عن موضوعنا.. خلاصة القول أننى عدت لممارسة عملى.. كاد العمل أن يتعثر تماماً مع انشغالى بمشكلة (أحمد)، لولا أنّ (ميخائيل) مساعدى الشاب كان بالفعل شديد البراعة والإخلاص فى تحمّل مسئولية إدارة العمل طيلة فترة غيابى.. لم يعد (أحمد) للعمل، فأبلغت السيّد (رأفت) مالك المحطة بذلك، وأخبرته بأننى سأعود للتعامل مع المهندس (محمود مفيد)، وأرسلت

لـ (أحمد) ما تبقى من مستحقات مالية نظير العمل الّذى قام به..
عدت إلى العمل مجدداً، وفى الأيّام التالية حققنا معدل إنجاز مرتفع، وتم تصوير حلقات البرنامج بالتتابع، حتى جاء اليوم الّذى زارنى فيه العريس الجديد بصحبة (محمود) شقيقى فى موقع التصوير..
الدكتور (إيهاب عبد المولى).. طبيب أطفال فى منتصف الأربعينات من عمره.. لم يتزوج لإنشغاله بعمله فى (جدة).. دعوتهما لتناول بعض المرطبات فى كافيتريا قريبة -وما أكثرها هاهنا فى (مارينا) حيث يتم تصوير البرنامج- ورحنا نتبادل أحاديث عامة..
أعترف أنّه كان لا بأس به.. خفيف الدم وذو حضور.. ولاحظت أنه كان يطيل النظر إلى وجهى.. تحدث عن عمله فى المملكة العربيّة السعوديّة، والمتاعب الّتى تواجه المغتربين دوماً، حديثه شائق متزن فعلاً.. أصغيت له بإنصات وهو يحكى عن نفسه، واستشعرت لذة أدهشتنى فى أعماق وأنا أحدثه عن نفسى وعملى إجابة لتساؤلاته..
بينما كنّا نتجاذب أطراف الحديث إرتفع رنين هاتفى المحمول.. ألقيت نظرة على شاشته.. كان رقم (أحمد خشبة).. شعرت بالدهشة لوهلة ثم ضغطت زر (Cancel)، وعدت إلى متابعة الحديث مع ضيفىّ، غير أن رنين المحمول إرتفع مرّة أخرى.. إعتذرت لهما، ونهضت مبتعدة إلى ركنٍ قصىّ من المكان..
- (ببرود): السلام عليكم..
فاجأنى صوته المضطرب:
- آسف لإزعاجك يا (أمل).. ولكن هناك شيئاً مهماً أُريدِك أن تعرفيه..
- خيراً يا باشمهندس..
- هل أمامك تليفيزيون الآن..؟..
- (بدهشة): تليفزيون..؟!!..
- نعم..
نظرت إلى الشاشة العريضة الـ flat الّتى تعرض أغانى غربيّة تبثها قناة (Melody Hits) وقلت:
- أمامى تليفزيون بالفعل..
أسرع يقول:

- شاهدى إذن القناة الفضائية المصريّة..
- هـل تتصل بى لتطلب منّى متابعة القناة الفضائيّة المـصريّة..؟!!..
- هناك شيئاً هاماً لابد أن ترينه..
- (بصرامـة): إسـمع يـا باشـمهندس.. لا وقـت لـدىّ لعبثـك هـذا.. لـو كانـت هـذه وسـيلة جديـدة للـ..
قاطعنى بلهجة ضارعة:
- أعدِك أن يكون هـذا آخر ما أطلبه منك.. لن أزعجِك مرّةً أُخرى..
إزدادت دهشـتى للهجتـه.. توجهـت إلى أحـد العاملـين بالكافيـه، وطلبـت منـه تحويـل الإرسـال إلى الفضائيّـة المصريّـة لدقيقـة واحـدة.. إسـتجاب العامـل الشـاب بدماثـة، فشـكرته و رحـت أتابـع مـا تنقلـه الشاشـة..

***

(إيجـى ـــ نيرجـى).. أوّل شركـة مـصريّـة عالميّـة متخصصـة فى إنتـاج وتوليـد واسـتخلاص طاقـة الريـاح.. وقـد أثبتـت الأبحـاث والدراسـات العلميّـة أنّ طاقـة الرياح مـن أهـم وأوفـر مصادر الطاقـة المتجـددة غـير المسـتغلّة.. ووفقـاً لجـداول الإحصـاءات والدراسـات الجغرافيّـة وتقاريـر متابعـة الأرصـاد الجوّيّـة فـان المنطقـة الممتـدّة بطـول السـاحل الشـمالى لـ (مـصر)، والمطـلّ عـلى البحـر الأبيـض المتوسّـط تعتـبر مـن أغـنى مناطـق العالـم بطاقـة الريـاح نظـرا لتـلاقى تيّـارات هوائيـة مختلفـة أقواهـا بالطبـع الريـاح الشـمالية الغربيّـة القادمـة مـن (أوروبّـا) شـمالاً..

***

سألنى:
- هل تشاهدين إعلان (إيـجى – نـيرجى)..؟..
- نـعم..
- هل ترين وجه الضيف المتحدث على الشاشة..؟..
كان وجـه المُعلّـق يظهـر مـن حـينٍ لآخـر بـين المشـاهد المصـوّرة لمحطات وماكينـات (إيجـى ـ نيرجـى).. وكانَ ظهـوره مصحوبـاً بظهـور شريـط أزرق أسـفل الشاشـة يحمـل بحـروف بيضـاء واضحـة إسـم الرجـل (د.يوسـف محـى الديـن) وموقعـه فى الشركـة (المديـر التنفيـذى للمـشروع)..
- نـعم أراه.. مـا شأنه..؟..

- (بانفعالٍ جارف): نفس الملامح.. نفس الصوت.. نفس الرجل.. أراه فى الكابوس الّذى يزورنى كل ليلة.. هل تذكرينه..؟..

***

وجه ممتلئ أصلع ذو نظّارات.. يلقى نظرة ثابتة على وجهى.. يربت على رأسى.. يقول بصوتٍ عميق :

- لا تقلق.. قليلٌ من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

***

- دقائق ويكون الشواء جاهزاً..

ثم شعرت بقدمه تركلنى فى منتصف ظهرى لتدفعنى بقوّة لأطير عبر الباب المفتوح وأهوى لأسفل..

***

- هل تعنين أنّ مدير التنفيذ بشركة (إيجى ـ نيرجى) هو من رآه الباشمهندس (أحمد) فى كابوسه يقذفه فى النار..؟!!..

- هكذا أخبرنى..

- إذن فقد جُنّ تماماً..

- (بحسم): مُطلقاً..

- ما دخل (إيجى ـ نيرجى) وموظفيها بأزمة ضمير الفتى والأحلام الّتى تؤرقه..؟!!..

- دار هذا التساؤل بذهنى، وأعترف بأننى فى البداية ظننته قد جُنَّ.. ولكن ما عرفته بعد ذلك جعلنى أغيّر رأيى كليّةً..

- هلا أوضحت أكثر..

***

جالسين نتبادل النظرات فى ذلك المكتب الفاخر بمبنى شركة (إيجى ـ نيرجى) بـ(الزمالك)..

همس:

- أشكرك لأنّك قبلت المجئ..

- (بخفوت): الشكر لله..

فتح فمه ليتكلّم، ولكننى عاجلته بهمس حاد:

- ولكن اعلم أنّ أى تصرّف أحمق يصدر منك، سأقابله بمنتهى الشدّة..

أنـت رأيـت بنفسـك أنـنى لسـت رخـوة ولا ضعيفـة، وأعـرف جيـداً كيـف أُدافـع عـن نفسـى.. دعـك مـن أنّـنى سـأتركك تواجـه مشـكلتك بمفـردك، ولـن تـرانى مـرة أخـرى..

- أعدك أننى لن أُضايقك أبـداً ..

عاد الصمت ليسود بيننا.. مرّت ثوان ثم تساءلت:

- هل أنت واثق من أنّه نفس الوجه..؟..

- (بحسم): ثقة كاملة..

فى تلـك اللحظـة دلـف (د.يوسـف محـيى الديـن) إلى الغرفـة.. رحـب بنـا معتـذراً عـن تأخـره علينـا، وتسـاءل عمّـا يمكنـه أن يقـدم لنـا مـن خدمـات.. متوسـط القامـة.. ممتـلئ الجسـد.. أنيـق الملبـس.. فى حـوالى الخامسـة والأربعـين مـن العـمر..

- (أمل الشافعى).. من محطة (asc) ..

و أشرت إلى (أحمد):

- (أحمد ممتاز).. مُعِد..

- (بابتسامة دبلوماسيّة): تشرّفنا..

بطـرف عيـنى لمحـت (أحمـد) يحـدق فى وجهـه بعينـين متسـعتين.. يالحماقتـك..!!.. سـتفضحنا بنظراتـك تلـك أيهـا الــ..!!..

أسرعـت أتكلّـم حـتى أشـتت إنتباهـه.. أخبرتـه أن المحطـة بصـدد إعـداد برنامـج جديـد عـن مسـتقبل الطاقـة فى منطقـة الـشرق الأوسـط خـلال السـنوات المقبلـة و..

- سيكون هنـاك العديـد مـن خـبراء الطاقـة البتروليّـة والنوويّـة.. ويسـعدنا أن تكـون ضيـف البرنامـج للحديـث عـن تجربـة (إيجـى ـ نيرجـى) فى مجـال إسـتخلاص وإنتـاج الطاقـة المتجـددة..

قال دون أن تفارق الإبتسامة شفتيه:

- تشرفـنى بالطبـع المشـاركة فى برنامجكـم.. ولكـن المشـكلة هـى أنّ وقـتى ضّيـق جـداً، و..

دار نقـاش روتيـنى بيننـا لبعـض الوقـت.. كان الهـدف مـن هـذه الزيـارة هـو أن أتحقـق مـن شخصيّة الرجـل، وأن يتحقـق (أحمـد) مـن الوجـه الـّذى يـراه فى أحلامـه.. أعلـم أن إنقيـادى وراء تلـك الهواجـس قـد يبـدو لـك يـا

دكتـور (حـازم) عبثيّـاً سـاذجاً لا مـبرر لـه، فضـلاً عـن كونـه جالبـاً للمشـاكل، كمـا حـدث لى مـن قبـل، ولا أخفيـك سراً أنـنى بعـد مكالمـة (أحمـد) لى - تلـك الـّتى أشـار فيهـا لأوّل مـرّة إلى العلاقـة بـين (يوسـف محـى الديـن) والشـخص الـّذى يـراه فى أحلامـه- لـم أكـترث لـه.. أنهيـت المكالمـة وأنـا أنـوى ألا أتدخـل فى هـذا الموضـوع مـرّة أخـرى.. غـير أنـنى وفى ذات الليلـة لـم أسـتطع النـوم.. ظللـت طيلـة الليـل أسـترجع توسـلاته، وصوتـه الضـارع وهـو يرجـونى أن أقـف إلى جـواره يـتردد فى أذنىّ..

- أكاد أُجـن.. لـم أسـتطع النـوم طيلـة الأيـام الفائتـة إلا لسـاعات معـدودة.. كلّمـا اسـتغرقت فى النعـاس، أرى هـذا الرجـل يلقـى بى فى فـرن مشـتعل..

- حـتى الأقـراص المخـدرة لـم تجـد معـى.. أتدريـن..؟.. بعـد كل هـذا، صرت أفكـر كثـيراً فى المـوت.. لا أجـد مخرجـاً آخـر مـن هـذا العـذاب..

لـم أسـتطع النـوم أنـا الأخـرى.. وكيـف يمكـن أن أنـام، وأنـا أعلـم أن هنـاك مـن يتعـذّب بهـذه الصـورة..؟.. نهضـت مـن فـراشى فتوضـأت وصلّيـت ركعتـين، وجلسـت أقـرأ القـرآن.. بعـد قليـل كنـت قـد إتـخذت قـرارى..

(إنّ اللـه فى عـون العبـد مـادام العبـد فى عـون أخيـه).. صـدق رسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم..

- هنـاك شئ مـا بالـغ البشـاعة حـدث لـ (عمّـار) ورفاقـه فى محبسـهم أكـثر مـن مجـرد السـجن.. وهـذا الأصلـع هـو المسـئول عنـه..

لكن..

حقـاً يبـدو كلامـك هـذه المـرّة يـا (أحمـد) بعيـداً جـداً عـن الواقـع.. ويـزداد بعـداً وأنـا أسـتمع إلى الرجـل وهـو يتحـدث.. مـا شـأن (د.يوسـف محـى الديـن) المديـر التنفيـذى فى (إيجـى ـ نـيرجى) بمجموعـة مـن العمّـال المعتقلـين..؟!!.. الرجـل يتـحـدث بطلاقـة عـن الطاقـة المتجـددة ومشروعـات الشركـة للاسـتفادة منهـا، ولا يبـدو أن هنـاك مـا يشـغله سـواها.. فلِـمَ يشـطح خيالـك بعيـداً إلى هـذه الدرجـة..؟!!..

هكذا صارحت الفتى البائس برأيى بمجرد خروجنا من مبنى الشركة..

- لا تدع خيالك يذهب بعيداً.. تذكر كلام الدكتور (حازم)..

كان رد فعله عصبيّاً..

- ألا تفهمين..؟.. لا حيلة لى فيما أراه وأشعر به.. الرجل بالفعل متورط فى عملٍ قذر يخص العمّال البؤساء مهما بدا لك العكس..

- إذا كان المتحدث مخبولاً، فليكن المستمع عاقلاً.. أخبرنى ما الصلة الّتى يمكن أن تربط هذا الرجل بمأساة العمّال، وسأصدق كلامك..

صمت للحظة، ثم قال بلهجة غريبة:

- حالياً لا أعرف.. ولكننى سأفعل..

عند هذه النقطة، قررت أننى قدمت لـ (أحمد ممتاز) كل ما بوسعى أن أقدمه.. الفتى صار بالفعل بحاجة إلى علاج نفسى مكثف.. عدت إلى (الإسكندريّة) ليستغرقنى العمل من جديد.. وأثناء ذلك تكررت زيارات (إيهاب) لى أكثر من مرّة.. إجتاحتنى الدهشة بحق.. قبل أيّام قليلة كنت أحيط نفسى بسياج من ذكريات حياتى السابقة يمنع أى محاولة للاقتراب منّى.. كنت أرى -كما ذكرت لك- أنّ حياتى الفعليّة إنتهت بوفاة زوجى وطفلى، وأنّ ماهو قادم من الأيّام ليس إلا تحصيل حاصل، وتأهبت لإستئنافها من هذا المنطلق.. ولكنّ ياللعجب.. زيارة (إيهاب) لى ومكالمته الهاتفيّة لم تسبب لى نفوراً من أى نوع، بل على العكس وجدتنى أسعد بها بل وأصبحت أنتظرها أيضاً.. نتحادث بالساعات، وترتسم إبتسامة راضية حنونة على شفتىّ أمى وهى ترانى متربعة على الأريكة وسماعة الهاتف ملتصقة بأذنى.. أنصت.. أثرثر.. أضحك.. أرى ابتسامتها الدافئة فأجيبها بأخرى من أعماق قلبى..

تعددت الزيارات والمكالمات.. صارحنى (إيهاب) برغبته فى الإرتباط بى، وطلب منّى أن أفكر فى عرضه برويّة ريثما يعود من (الرياض) إن شاء الله بعد شهر واحد يصفى خلاله ما تبقى من أعماله حتى يتسنى له أخيراً العودة إلى (مصر)، فوعدته بأن أمنحه جواباً محدداً عند عودته سالماً بإذن الله..

مضى إسبوع أو أكثر ، ثم استقبل بريدى الأليكترونى ذات صباح رسالة من (أحمد خشبة) مرفق بها ملف فيديو..

***

الجزء الثالث

الحقيقة

2 مليــار نســمة فى العالــم لا يحصلــون عــلى حصتهــم مــن الطاقــة الكهربائيــة، وبالتــالى ليــس هنــاك حــل ســوى الاعتماد عــلى الطاقــة المتجددة لتمكــين النــاس مــن العيــش بصــورة أفضــل..

بروفيسور (بيرين مايجارد) رئيس هيئة طاقة الرياح فى العالم
والحاصل على جائزة (نوبل) فى الإستخدام السلمى للطاقة
عام ٢٠٠٥

***

لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

***

جــزء مــن حــوار تليفزيــونى مــع الدكتــور (يوســف محــيى الديــن) المديــر التنفيــذى لمشروعــات (إيجــى ـ نيرجــى):

- دكتــور (يوســف).. هــلا شرحــت لنــا مــدى حاجــة (مــصر) لإســتغلال الطاقــة المتجــددة..؟..

- لجــوء (مــصر) لإســتغلال طاقاتهــا المتجــددة أصبــح أمــراً حتميّــاً ليــس فقــط مــن أجــل التنميــة الاقتصاديّــة، بــل لمنــع كارثــة طبيعيّــة ناتجــة عــن التغــيرات المناخيّــة، ونضــوب مصــادر الوقــود فى العالــم، وارتفــاع نســبة ثانى أكســيد الكربــون فى الهــواء، وذوبــان الكتــل الجليديّــة فى القطبــين الشــمالى والجنــوبى، ممــا ســيؤدى إلى غــرق المــدن الســاحليّة المصريّــة الواقعــة عــلى شــاطئ البحــر الأبيــض المتوســط، ومــدن الدلتــا.. مــازال أمامنــا بعــض الوقــت لتجنــب هــذه الكارثــة ولكــن بــأسرع مــا يمكــن، وذلــك بانتقالنــا مــن حــرق الوقــود إلى اســتغلال الطاقــة المتجــددة والمتوفــرة بكــثرة..

- وهل تمتلك (مصر) مصادر طبيعيّة مناسبة من الطاقة المتجددة..؟..

- بالفعــل تمتلــك (مــصر) ثــروات طبيعيّــة كبــيرة مــن الطاقــة المتجــددة

ممثلة فى الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، فالشمس متعامدة عليها طوال العام، ولديها طاقة رياح هائلة تؤهلها للتصنيع المحلى للطاقة، وستؤدى لتنمية إقتصاديّة وصناعيّة واستغلال الطاقات المهدرة سواء كانت طبيعيّة أو بشريّة..

- وهل هذه الطاقة المتجددة مستغلّة بالشكل الأمثل..؟..

- بالرغم من أن (مصر) على رأس قائمة الدول الإفريقيّة الأغنى بالإمكانيّات الطبيعيّة، إلا أنّ استغلالها لهذه الإمكانيّات متواضع للغاية..

- هلا حدثتنا عن إحدى التجارب الناجحة للاستغلال الإقتصادى للطاقة المتجددة..؟..

- فى (ألمانيا) مثلاً أدى إستغلال طاقة الرياح إلى توفير ١٢٠ ألف فرصة عمل جديدة، وفى (الدانمارك) الّتى بدأت تنفيذ برنامج الطاقة المتجددة منذ عام ١٩٧٩ بسبب إرتفاع أسعار الوقود بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، أمكن توفير ٣٥ ألف فرصة عمل، وطاقة متجددة للتصدير بحوالى ٧ بلايين يورو، واستطاعت كذلك تحقيق معدل للنمو السنوى يصل لحوالى ٣٠ ٪..

- وهل تطمح شركة (إيجى- نيرجى) لتحقيق معدل استخدام أفضل للطاقة المتجددة المصريّة..؟..

- (إيجى ـ نيرجى) شركة مصرية مدمجة مع واحدة من أكبر شركات الطاقة فى العالم وهى شركة (نيو ميدل إيست فور إينرجى).. وهدفنا هو توفير استغلال أمثل للطاقة المتجددة فى (مصر) وذلك لتحقيق نهضة إقتصادية وصناعيّة من خلال أبحاث علمية دقيقة وبالاعتماد على أحدث تكنولوجيا مستوردة فى هذا المجال..

- وما هى خطتكم لتحقيق هذه الأهداف..؟..

- قام الفريق البحثى الخاص بالشركة بعمل سلسلة من الأبحاث والدراسات الجغرافيّة والجداول الإحصائيّة، وبناءً على كل هذا قام الخبراء بتحديد مواضع إنشاء سلسلة من محطات استقبال واستخلاص طاقة الرياح بطول الساحل الشمالى المصرى ومدن الدلتا و(القاهرة) والمدن المطلة على ساحل البحر الأحمر مثل (شرم الشيخ) و(الغردقة)، بالإضافة إلى عدد من لوحات التوزيع و٤ محطات محولات رئيسيّة..

وبالفعـل تمكنّا مـن تغطيـة مـا يزيـد عـن ٢٠ مليـون وحـدة سـكنية وصناعيّـة وتجاريّــة..

- وهل هناك خطط مستقبليّة محددة..؟..

- وضعنــا خطــة لزيــادة عــدد محطــات الاســتقبال ولوحــات التوزيــع، ونشرهـا فى مواضـع مختلفـة مثـل مـدن وقـرى الصعيـد والمناطـق النائيـة كـ (حلايـب) و(شـلاتين) و(شرق العوينـات).. ونتوقـع أن نغطـى الجمهوريـة كلهـا فى أقــل مـن عامـين..

- ومـاذا عـن مـدى تفاعـل الحكومـة المصريـة مـع مثـل هـــذا المـشروع الضخــم..؟..

- قامــت الحكومــة بالفعــل بتوفــير كافــة التســهيلات الممكنــة لإنجــاز المـشروع إقتناعـاً منهـا بوطنيّـة أهدافـه والمكاسـب الهائلـة الّتى سـتعود على (مـصر) مـن وراءه، وإنـى لأنتهـز الفرصـة وأوجـه الشـكر لـكل المتعاونـين معنــا، وعــلى رأســهم السـيّد رئيـس الجمهوريّــة..

- فى النهايــة نشــكرك شــكراً جزيــلاً دكتــور (يوســف) عــلى الوقــت الّــذى منحتــه لنــا ولإجابتــك عــن تســاؤلاتنا..

- (بابتسامة واثقة): عفواً..

***

بالطبـع الـدول الناميـة –ومنهـا (مـصر)- ليـس باسـتطاعتها شراء الطاقـة، ولذلـك عـــند ارتفــاع ســعر الطاقــة ســيكون هــذا بمثابــة النهايــة للــدول الناميــة..

بروفيســور (بيريــن مايجــارد) رئيــس هيئــة طاقــة الريــاح فى العالــم والحاصــل عــلى جائــزة (نوبــل) فى الاســتخدام الســلمى للطاقــة عام ٢٠٠٥

***

(التسـجيل مُلتقـط بواسـطة كامـيرا رقميّـة.. الصـورة مهـزوزة غـير واضحـة المعالـم إلى حـدٍ مـا.. الإضـاءة رديئـة.. يظهـر فى منتصف الكادر رجـل أصلع هـو (يوسـف محـى الديـن)، مُقيّـداً إلى مقعـد خشـبى..عارى الجسـد، وثمـة دمـاء متجلّطـة عـلى جانـب وجهـه، وكدمـة زرقـاء حـول عينـه اليـسرى)..

(الكامـيرا تقـترب ببـطء مـن الرجـل المُقيّـد.. صـوت (أحمـد ممتـاز) يـأتى مـن خـارج الـكادر.. مـن الواضـح أنّـه هـو نفسـه حامـل الكامـيرا)..

- تكلّم.. أَعِد ما قلته لى منذ دقائق..

(برغم عدم وضوح الصورة، إلا أنّ ارتعاش شفتىّ الرجل واضح)..

- (بصوت غاضب): قلت تكلّم..

- (باستعطاف): سيقتلوننى لو فعلت..

(ومـن خـارج الـكادر هـوت قبضـة شـخص مـا عـلى جانـب وجـه يوسـف.. يتـأوه.. تتناثـر قطـرات مـن الـدم عـلى وجهـه.. يبـكى بصـوت مسـموع)..

- وستموت هنا والآن لو لم تفعل..

(ضربة أخرى)..

- (بكاء حار): ....

- (بغضب): تكلّم يا حيوان.. ماذا فعلتم بالعمّال..؟..

(الضربات تنهال على وجه يوسف و جسده.. الصراخ يتعالى)..

- إصرخ كما تشاء.. لن يسمعك أحد هاهنا..

ثـم..

- (فتحى).. عينه..

(ملعقـة يتصاعـد منهـا البخـار تقـترب مـن وجـه يوسـف أسـفل عينـه اليمـنى مبـاشرة)..

- (يـصرخ): الرحمة..

- تكلّم وإلا اقتلعنا عينك..

(الملعقة تكاد تلتصق بـجلد الوجه)..

- (برعب): سأتكلّم..

- مـاذا فعلتم بالعمّال..؟..

- (برعب): ....

***

أرجو أن تقدر موقفى جيداً..

لسـت قاتـلاً عـلى الإطـلاق.. ولا أسـتطيع ذبـح دجاجـة كمـا يقولـون.. منظـر الدمـاء يجعلـنى أتقيـأ.. غـير أن كل هـذا لا شـأن لـه بعملى فى (إيـجى ـ نـيرجى).. أنـا أتعامـل مـع أوراق.. أرقـام.. رسـوم بيانيّة.. جـداول إحصائية

علـى شاشـات الكمبيوتـر.. ولا أخالـك تـرى فى هــذا أى شئ غـير مـشروع..
أنـا مجـرد مديـر تنفيـذى لمـشروع ضخـم تشـترك فى تمويلـه رؤوس أمـوال هائلـة وأسـماء لامعـة فى عالـم البيزنـس.. آااه .. أرجـوك لا داعـى لمزيـد مـن العنـف.. سـأشرح لـك كل شئ.. فقـط أزح هــذا النصـل مـن عـلى وجهـى..
بـدأ كل شئ أثنـاء فـترة دراسـتى فى (الولايـات المتحـدة الأمريكيـة).. الحقيقـة أنـى إنتقلـت إلى الــ states لإسـتكمال الدراسـة بعـد انتهـائى مـن دراسـتى بالجامعـة الأمريكيّـة فى (مـصر)، ويـسّر ذلـك لى ثـراء أسرتى.. غـير أنّـك تعـرف بالطبـع أن المـال وحــده لا يصنـع النجـاح.. لابـد مـن الاجتهـاد والاجتهـاد الشـديد.. وكنـت أنـا طيلـة عمـرى مثـال للطالـب المجـد الّـذى لا يعنيـه أى شئ فى الحيـاة قـدر تسـجيل أعـلى الدرجـات والتقديـرات..
إسـتغرق الأمـر مـنى سـنوات طويلـة مـن العمـل الشـاق الـدؤوب، صرت بعدهــا الدكتــور (يوســف محــى الديــن) أسـتاذ الاقتصـاد وعلـوم إدارة الأعمـال.. وخـلال هـذه السـنوات أثـارت ذهــولى -كمـا كانـت تفعـل دومـاً- العقليّـة الغربيّـة شـديدة التميّز والكفـاءة فى إدارة المؤسسـات المختلفـة.. النــظم الصارمــة الّــتى يخضــع لهــا الجميــع.. الديمقراطيّــة.. الحريّــة.. الثقافــة.. الاقتصــاد الحــر والســوق المفتــوح الخاضــع لقانــون العــرض والطلـب.. إنبهـرت بـكل هـذه المزايـا، وقارنتهـا بالكـم الهائـل مـن الـركام الفكـرى المـوروث الّـذى يجثـم عـلى العقليّـة الشرقيّـة فيزيدهـا تخلفـاً وراء تخلـف.. لهـذا يتقـدم هـؤلاء القـوم ونتراجـع نحـن..
غـير أنـى كنـت مالـكاً لخيـاراتى.. أمامـى أن أنطلـق لألتـحق بالعالـم الحـر المتمديـن المتحـضر، أو أن أعـود لأغـوص فى وحـل عالـم قــديم متخلـف إنتهـى أمـره منـذ قـرون.. لأكونـن أحمـق ابـن أحمـق لـو تـرددت لحظـة..
حصلـت بالطبـع عــلى الجنسـيّة الأمريكيّــة، وصرت مواطنــاً أمريكيّــاً.. إنخرطـت فى العمـل بمركـز بحـثى مرمـوق، وفى إحـدى المنتديـات الاقتصاديّة كان لقـائى الأول بــ (كمـال فـودة) رجـل الأعمـال الأمريـكى -مـصرى الجـذور - الشـهير..
توطـدت علاقتنـا خـلال جلسـات المنتـدى، وتحدثنـا طويـلاً عـن النظـم الاقتصاديّــة الحديثــة، ولاقــت آرائى حــول إقتصاديّــات الســوق المفتــوح إستحسـانه.. وذات مـرّة تحـدث إلىّ حـول مـشروع ضخـم ذو طبيعـة خاصـة

ينـوى البـدء فيـه..

-١١-
كمال فودة

ليـس هــذا مجـرّد مـشروع إنتاجـى عـادى دكتـور (محـي الديـن).. هـذا بيزنـس عـلى أعـلى مستوى، وقائـم عـلى تطبيقـات لنظريّـات ودراسـات علميّــة دقيقــة فى مجــالات متنوعــة كالطبيعــة والبيولوجــى والطاقــة والاقتصــاد..

لسـت عالمـاً متخصصـاً فى أيٍ مـن هــذه المجـالات السـابقة، فأنـا رجـل أعمـال كمـا تعـرف، ولكـنّى سـأحاول أن أقـدم ملخصـاً وافيـاً عـن طبيعـة مشروعنـا..

العلـم يقـول أنّـه ينبعـث مـن كل منّـا مـا يُعـرف بــ (السيال الحيـوى).. وهـو نـوع مـن الطاقـة الروحيّـة تنبعـث مـن أجسـادنا طيلـة الوقـت، تؤثـر بشـكلٍ أو بآخـر عـلى المحيطـين بنـا..

ألا تشّـعر أحيانـاً أنّـك ترتـاح لفـلان أو أنّ عِـلان طلّتـه حلـوة كمـا تقولـون عندكـم فى (Egypt)..؟.. وفى المقابـل ألا تحـس أحيانـاً بالنفـور أو الإنقبـاض مـن أحـد الأشـخاص عنـد رؤيتـه ولـو كانـت للمـرّة الأولى..؟..

ليسـت هــذه المشـاعر نوعــاً مــن التخاريــف أو المعتقــدات البدائيــة.. السـيال الحيـوى يلعـب هنـا دوراً هامـاً فى إحداثهـا.. وتأثـيره يختلـف مـن شـخصٍ لآخـر، وكذلـك قـوة هــذا التأثـير..

نـوع مـن الطاقـة هـو إذن.. طاقـة حقيقيّـة ملموسـة وإن كانـت رؤيتهـا غـير ممكنـة بالطبـع إلا فى مجـال للأشـعة تحـت الحمـراء.. ومـادام الأمـر كذلـك، فهـو كغـيره مـن أنـواع وأصنـاف الطاقـة يمكـن اسـتخلاصه واسـتغلاله وِفقـاً لقوانـين فيزيائيّـة معيّنـة..

هنـاك العديـد مـن البحـوث الشـهيرة الّـتى تحدثـت عـن السـيال الحيـوى، ولكـن أهمهـا بالطبـع الدراسـات الّـتى أجراهـا العلمـاء اليابانيّـون.. تلـك الدراسـات الّـتى كانـت نقطـة البدايـة الّـتى إتخذهـا علمـاء (هاليبرتـون) – وهــى مؤسسـة بحثيّـة أمريكيّـة خاصـة- لبحـث وسـائل اسـتخلاص هــذه الطاقـة، وكيفيّـة الاسـتفادة منهـا..

لـن أصـدع رأسـك بكثـير كلام عن عـشرات الدراسـات ومئـات التجـارب الّتى جـرى إجراءهـا عـلى مـدى سـنوات طويلـة.. فقـط سـأحدثك عـن النتيجـة النهائيـة الّـتى توصلـوا إليهـا، وهـى أنّ هـذه الطاقـة يمكـن اسـتخلاصها بسـهولة مـن الأجسـاد المحتـضرة.. إسـتخلاصها وتخزينهـا فى أنابيـب مجهـزة خصيصـاً لهـذا الغـرض..

كانـت التجـارب الأوّليّـة تُجـرى عـلى حيوانـات التجـارب كالفـئران والقـردة والخنازيـر.. يتـم توصيـل الأقطـاب والأنابيـب بأجسـادها، ثـم حقنهـا بمنشـطات قويّـة للقلـب، تدفـع قلوبهـا إلى الخفقـان بقـوة تعجـز عـن تحمّلهـا فتتوقـف.. كان الحيـوان يلقـى مصرعـه، فتتدفـق طاقتـه الحيويّـة فى الأنابيـب لتتجمّـع فى أنبوبـة رئيسـيّة تحمـل رقـم التجربـة.. وهكـذا ظلّـت التجـارب تُجـرى عـلى هـذا المنـوال، حـتى اقـترح البروفيسـور (ديفيـد جولدمـان) -رئيـس فريـق العلمـاء- تنويـع وسـائل قتـل حيوانـات التجـارب، وقيـاس معـدلات طاقـة السـيال الحيـوى المنبعثـة عنـد كل وسـيلة.. وكانـت المفاجـأة..

الحيوانـات الّـتى ماتـت غرقـاً أو حرقـاً أو سـلخاً أو صعقـاً بالكهربـاء أو.. أو.. بـلا بـلا.. سجلت معـدلات انبعـاث للطاقـة الحيويّـة أعـلى بمراحـل مـن الحيوانـات الّـتى ماتـت بعـد حقنهـا بالأنسـولين أو منشـطات القلـب.. لا أقـل مـن أضعـاف أضعافهـا.. وكلمـا زادت فـترة الاحتضـار، زادت كميّـة الطاقـة الّـتى نحصـل عليهـا..

ثـم كانـت الخطـوة التاليـة هـى البـدء فى إجـراء التجـارب عـلى نوعيـة مختلفـة مـن حيوانـات التجـارب..

***

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

***

لا أحـب أن أدخـل فى جـدل أخـلاق حـول مـدى بشـاعة قـتل إنسـان

للحصـول عـلى سـياله الحيـوى.. لسـت واعظـاً ولا رجـل ديـن.. ولكـن بصـدق أقـول أنّ العيّنـات البـشريّة الّـتى قامـت مجموعـة البحـث بتعذيبهـا لإنـتزاع طاقتهـا الحيويّـة كانـوا مـوتى مـن الأسـاس.. لا .. لا أعـنى بذلـك أنّهـم كانـوا مـرضى بأمـراض قاتلـة.. ولكـن نظـرة واحـدة إلى هويّاتهـم أو أحوالهـم تكفـى لجعـل كلامـى مفهومـاً..

مهاجـرون غـير شرعيـون مـن (المكسـيك) و(الصـين) و(باكسـتان) و(مـصر) والعديـد مـن الـدول.. عنـاصر إرهابيّـة ذات أصـول عربيّـة ثبتـت عليهـم تهمـة الإرهـاب، وتجاهلتهـم بلادهـم تمامـاً.. مدمـنى المخـدرات ومـرضى الإيـدز.. كل هـؤلاء وغيرهـم كثـير عنـاصر بائسـة فى المجتمـع لا فائـدة منهـا، ومضارهـا عديـدة، والأمـل معـدوم فى أن ترتقـى وتلعـب دوراً فى بنـاء أى مجتمـع.. أى أنّهـم عمليّـاً لا يـزيدون فى شئ عـن حيوانـات التجـارب الّـتى تُجـرى عليهـا البحـوث.. فمـا المشـكلة إذن فى الاسـتفادة مـن موتهـم مادامـت حياتهـم غـير ذات فائـدة..؟..

قـد يقـول قائـل أن هنـاك ظـروفاً عديـدة تسـببت فى الحالـة الّـتى صـار عليهـا هـؤلاء كالفقـر والجهـل والدكتاتوريّـة، وأنّهـم غـير مسـئولين مسـئوليّة كاملـة عمّـا هـم فيـه.. هـذا أقـول لـه أنـنى لسـت باحثـاً اجتماعيـاً.. أيـاً كانـت الأسـباب فهـى لا تهمـنى.. لدينـا هنـا مخلوقـات نبذهـا العالـم لسـببٍ أو لآخـر، فـلا مانـع مـن اسـتغلالها كمـا تـُسـتغل الحيوانـات.. بـل لعـل هـذا يجعـل لهـا قيمـة أكـثر ممـا هـى عليـه لـو تُركـت وشـأنها..

وفقـاً لهـذا المنطـق بـدأت مجموعـة البحـث فى (هاليبرتـون) فى إسـتخراج طاقـة السـيال الحيـوى مـن حيوانـات تجـارب بشريّـة.. فمـا كانـت النتيجـة..؟..

مدهشـة بـكل المقاييـس.. لا أسـتوعب الكثـير مـن التفاصيـل العلميّـة ولكـن مـا عرفتـه أن الطاقـة الحيويّـة المسـتخرجة مـن الأجسـاد البشريّـة المحتـضرة أبـدت قابليـة فائقـة للتأيّـن الكهـربى، وهـو مـا يعـنى أنّ هـذه الطاقـة قابلـة للتحـول بسـهولة إلى طـاقة كهربيّـة..

دعنى أعطيك مثالاً لتوضيح كـلامى..

***

-١٢-
عـمّار

من الصباح للمسا.. والمطرقة فيدى..
صابر على دى الأسا.. حتى نهار عيدى..
إبن السبيل انكسى، واسحب هرابيدى..
تتعروا من مشيتى..
واخجل أخاطبكم..
بيرم التونسى

***

الساعة السابعة صباحاً..

رنـين الجـرس يـدوى فى جوانـب العنـبر.. موعـد الطعـام.. أحشـائى تتقلّـص من الجــوع..

أنهـض مـن عـلى فـراشى مستنــداً إلى ذراعـى السـليمة.. أتحـرك ببـطء نحـو الفتحـة المسـتطيلة الموجـودة بـين قضبـان زنزانـتى والمخصصـة لمناولـة طبـق التعيـين.. مـددت يـدى.. تناولـت الطبـق مـن يـد الحـارس النوبتجـى، وناولتـه طبـق عشـاء الأمـس.. لـم ينظـر إلىّ مطلقـاً.. ناولـنى طبـق الطعـام وكأنّـه يلقـى بالبرسـيم إلى دابـة فى حظـيرة..

زنزانـة ضيّقـة تلـك الّـتى أشـغلها.. لا تزيـد مسـاحتها عـن متريـن فى متريـن.. محتوياتهـا قليلـة لا تزيـد عـن فـراش.. مرحـاض بلـدى مـزوّد بسـيفون.. ولا شئ آخـر..

مـتى تـم نقلنـا مـن المعتقـل..؟.. لا أذكـر بالضبـط.. أعتـقـد أننا لـم نمكث فيـه أكـثر مـن أربعـة أيّـام.. وفى الليلـة الخامسـة، تـم شـحننا (حـوالى مائـة عامـل) فى سـيّارتى نقـل إلى هنـا..

ظللنـا جالسـين نتبـادل النظـرات لمـا يقـرب مـن ثمـانى سـاعات كاملـة حـّتى شـعرنا بالسـيّارتين تتوقفـا.. مـرّت ثـوانٍ ثـم انفتحـت أبـواب الصنـدوق الخلفـى لـكل سـيّارة (حيـث نجلـس)، وغــشى ضـوء النهـار أعيننـا..

مازلنـا قريـبين مـن البحـر.. هـذا مؤكـد.. صحيـح أن تلـك الأسـوار العاليـة تحجـب أى شئ خارجهـا، إلا أنـى مـيّزت رائحـة البحـر المشـبعة باليـود..

وقفنا منتظمين فى أربعة صفوف.. سيّارتا النقل اللتا جلبتانا إلى هنا متوقفتين على مسافة ليست بالبعيدة.. العشرات من الجنود يحيطون بنا حاملين أسلحتهم..

المكان من حولنا محصور بين أسوار خرسانية -هكذا بدت لى- شاهقة الإرتفاع.. أمامنا مباشرة مبنى صغير مكون من طابقين، متصل بممر مسقوف بمبنى آخر هائل الحجم تحيط به صفوف من الأبراج المعدنية المتصلة بعدد من الأسلاك..

الشمس تحرق رؤسنا والإرهاق بلغ منّا مبلغه.. كم مر علينا ونحن هنا وقوف..؟.. لا أدرى.. لم أشعر إلا والجنود يقتادوننا عبر ممرّات طويلة مضاءة بالنيون داخل المبنى الكبير..نسير.. نسير..

***

- إحنا فين بالظبط..؟..

تساءل (عاشور).. لم يجب أحد بالطبع لأن أحداً لا يملك جواباً..

ليس هذا بالسجن أو المعتقل.. صحيح أنّنا نقضى الليل فى زنازين، إلا أن هذه الزنانزين تختلف عن مثيلاتها فى السجون الأخرى.. عرفت مساجين عديدين حكوا لى عن فترات سجنهم.. لم أسمع من أى منهم عن زنازين انفراديّة خمس نجوم مزوّدة بدورات مياه..

قال (طحلاوى) وهو يمضغ طعامه:

- آنى أول مرة نسمع عن سجن بينزّل رز وخضار ولحمة يوماتى للمساجين..

وبصق (فرحات) على الأرض قائلاً:

- إحنا كده مش ناقصنا غير الدخان ونبقى ميت قل وعشرة..

التدخين غير مسموح به هنا.. شئ غريب أيضاً لم أسمع به ممن حكوا لى عن تجاربهم فى السجون..

جالسين فى الفناء نستدفئ بحرارة الشمس من برد الشتاء القارص.. كم مضى علينا فى هذا المكان..؟.. شهرين أو ثلاثة.. أزعم أننى لولا قلقى على المرأة والعيال لكانت هذه الأيام هى الأكثر راحة لى منذ بدأت العمل فى ورشة الأسطى (طه) قبل خمس وعشرون عاماً..

- إحنا فين بالظبط..؟..

تساءل (عاشور)، وهو ينظر تجاه الريّس (حمدى)، الّذى ظل صامتاً للحظات، قبل أن يقول ببطء:

- منيش عارف.. بس الفار بيلعب فـ عبّى..

***

فى تلك الليلة حدث أمر رهيب..

تنميل غريب سرى فى أطرافى.. فى جسدى كلّه.. لا أقوى على تحريك إصبعاً واحداً.. ما الأمر..؟.. هل أُصبت بالشلل..؟.. أم لعلّه الموت..؟..

أرقد على فراشى.. عيناى مثبتتان على سقف الزنزانة.. البرد شديد.. شديد .. لابد أنّه الموت قادماً.. رغماً عنى ملأتنى الفكرة خوفاً.. وشعرت بدمعة باردة تغادر مقلتى..

هل هذا صحيح..؟.. أأنا ميّت حقاً..؟.. هل هذا هو ما يحسه الموتى..؟..

لا ألم هنالك.. تنفس..؟.. نعم تنفس.. أنا أتنفس.. إذن فأنا حىّ.. مازلت حيّاً.. حمداً لله..

عبثاً أحاول تحريك أطرافى بلا جدوى..

كلينج.. كلينج.. (صوت باب الزنزانة إذ ينفتح)..

وجه يطل علىّ من أعلى.. لا أرى بوضوح.. الصورة أمامى مهتزّة كأنّما هى مطبوعة على صفحة ماء..

جبهة عريضة.. عينان ضيّقتان.. يميل علىّ .. إصبعان يمتدّان ليفتحا عينى اليمنى على اتساعها.. العينان الضيّقتان تحدّقان بتركيز..

الوجه يبتعد عنّى.. بصعوبة أسمع الصوت وكأنّه قادم من أعماق بئر سحيق:

- خذوا هذا..

***

لم يكن عدد العساكر كبيراً من حولنا.. ولكن الواحد منهم طول بعرض مثل ضلفة الدولاب.. منتفخ العضلات.. يرتدى زيّاً أسود يشبه زىّ القوّات الخاصة.. البندقيّة معلّقة خلف الظهر.. جهاز اللاسلكى يتدلّى من الحزام، وإلى جواره جهاز آخر لم أعرف وظيفته فى البداية،

غير أننى رأيت أحد العساكر يستخدمه عندما تشاجر (عاشور) معه ذات مـرّة..

(عاشـور) ليـس ضعيفـاً.. عضلاتـه مفتولـة وقلبـه ميّـت لا يخـشى شـيئاً.. لا أذكـر سـبب المشـاجرة.. لربمـا وجّـه العسـكرى السـباب لـه أو العكـس.. الأرجـح أن (عاشـور) هـو الّـذى تحـرّش بالرجـل، ربمـا كنـوع مـن جـس النبـض أو اختبـار رد فعـل المسـئولين عـن المـكان.. المهـم أن صوتيهمـا تعاليـا، وسـمعت السـباب البـذئ يتدافـع مـن فـم (عاشـور)، قبـل أن يتشـابكا بالأيـدى.. لمحـت العـسكرى يسـحب ذلـك الجهـاز مـن حزامـه و يدفعـه فى صـدر (عاشـور)، وفى اللحظـة التاليـة رأينـاه -(عاشـور)- يسـقط أرضـاً، وجسـده ينتفـض بعنـف.. فيمـا بعـد فهمـت أنّ هـذا الجهـاز الصغير هـو صاعـق كهـربى..

تجمّدنـا فى أماكننـا لثـوان، قبـل أن نندفـع نحـو الجسـد المرتعـش.. إلتـفّ البعـض حـول العسـكرى يريـدون الفتـك بـه، ولكـن عـشرات العسـاكر ظهـروا بغتـة، وراحـوا يهـوون عـلى الـرؤوس والأجسـاد بهـراواتٍ قصـيرة..

***

الألـم لـم يكـن هيّنـاً عـلى الإطـلاق.. الضـوء الأبيـض الباهـر يخـترق حدقـتىّ عيـنىّ فيحرقهمـا.. أحـاول إغماضهمـا بـلا جـدوى..

الممر طويل.. طويل..

مصابيـح النيـون المثبتـة فى سـقف الممـر تتـوالى أمـام عيـنىّ.. ممـدداً فـوق ترولـلى ولا أشـعر بجسـدى عـلى الإطـلاق.. أميّـز الأصـوات مـن حـولى جيّداً.. أزيـز مصابيـح النيـون.. أصـوات احتـكاك عجـلات الترولـلى ببـلاط الممـر.. أنفـاس ذلـك الّـذى يدفـع الترولـلى..

خـذوا هذا..

قالهـا الرجـل الّـذى أطـلّ عـلىّ فى الزنزانـة.. يأخذونـنى إلى أيـن..؟.. ومـا الّـذى سـيفعلونه بى..؟.. ومـا سر هذا الشـلل الّذى سيطـر على جسـدى..؟.. أنـا خائـف..

المزيد من المصابيح.. المزيد من الضوء الأبيض.. المزيد من الألم..

لم يعد لدىّ سوى الأنين..

الأنين المحبوس فى الصدر بلا أى قـدرة على إطلاقه..

***

ذات يوم إكتشفنا اختفاء (طحلاوى)..

إقتادنـا الحـرّاس بعـد الإفطـار كما هـو الروتـين اليومـى إلى الفنـاء.. جلسـنا نرتجـف مـن الـبرد، والبخـار يتكاثـف حـول أفواهنـا وأنوفنـا.. ثـم تسـاءل الريّـس (حمـدى) بغتـة:

- أمّال فين (طحلاوى)..؟..

تلفّتنا حولنا، نبحث عنه.. بالفعل لم يكن موجوداً..

- (عبده).. إنت زنزانتك جنب زنزانته.. ماشفتوش النهاردة..؟..

- لا والله يا ريّس.. آنى لـَقيت زنزانته فاضية وآنى خارج، ففكرته سبَقنى..

- أُمال راح فين..؟..

***

رائحـة غريبـة -تذكـرنى برائحـة المستشـفيات- تمـلأ أنفـى.. سـقف أبيـض ناصـع.. مصبـاح نيـون مستدير.. عينـاى اعتادتـا الضـوء إلى حـدٍ مـا.. وجـه أُنثـوى رائـع الجمـال ينظـر إلىّ مـن أعـلى.. عينـان زرقاويّتـان .. أنـف دقيـق.. فـم مكتـنز.. بـشرة شـاحبة قليـلاً.. شـعر أشـقر ناعـم.. معطـف أبيـض كمعاطـف الأطبـاء.. هـل هـى طبيبـة..؟..

أصابعهـا تعمـل بسرعـة.. تقيـس حـرارتى.. تسـحب عيّنـة مـن الـدم واللعـاب.. أرغـب بشـدة فى أن أسـألها عمّـا حـلّ بى.. ولكنـى لا أسـتطيع بالطبـع.. تختفـى مـن أمامـى.. أسـمع صـوت خطواتهـا تتحـرّك جيئـةً وذهابـاً.. ثـم أسـمع الصـوت الرقيـق لأوّل مـرّة:

- positive..

***

فى الأيّام التالية تكررت حوادث الاختفاء..

العديـد مـن العمّـال راحـوا يختفـون دون سـابق إنـذار.. طلبنـا مقابلـة البـك الضابـط، ولكنّـه رفـض مقابلتنـا.. ثرنـا، وقامـت مشـاجرات عنيفـة بيننـا وبـين الحـرّاس، ولكـن الصواعـق الكهربيّـة حسـمت الأمـر تمامـاً..

وكان مـن جـراء هـذه المشـاجرات أن عوقبنـا بحرماننـا مـن السـاعات اليوميّـة الّـتى كنـا نقضيهـا فى الفنـاء نسـتدفئ بحـرارة الشـمس.. أُغلقـت

الزنازيـن علينـا، وقبعنـا فيهـا نرتجـف مـن شـدة الـبرد.. ظللنـا عـلى هـذا الحـال لمـا يقـرب مـن إسـبوع، حـتى جـاء ذلـك اليـوم..

***

- positive..

لا أفهـم مـا قالتـه..؟.. هـل أنـا سـليم..؟.. إذن مـا سر هـذا الشـلل الّـذى أصابـنى..؟..

لـم تـدع لى فرصـة للتسـاؤل.. وخـزة مؤلمـة قليـلاً فى ذراعـى.. أئـن بصمـت.. بـم تحقنينـنى أيّتهـا الـعاهـرة..؟..

وجـه ممتـلئ أصلـع ذو نظّـارات يلقـى نظـرة ثابتـة عـلى وجهـى.. يربـت عـلى رأسى.. يقـول بصـوتٍ عميـق:

- لا تقلق.. قليلُ من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

مـا معـنى هـذا..؟.. هـل سيجرون لى جراحـة.. ؟.. لمـاذا..؟.. لعـلاج هـذا الشـلل..؟.. "قليـلُ مـن الألـم".. هـو قـال هـذا..؟.. إذا كانـوا سـيجرون لى جراحـة فهـل سـيفعلون مـن دون تخديـر..؟..

أشـعر بأحدهـم يدفـع التورلـلى مـن جديـد عـبر ممـر قصـير.. نصـل لغرفـة صغـيرة.. أيـدى عديـدة تـنزع عـنّى ثـوبى.. لحـظات ثـم صرت عاريـاً كمـا ولدتـنى أمـى..

***

كان الوقـت عـصراً، والجـو شـديد الـبرودة، عندمـا سـمعت صـوت بـاب الزنزانـة ينفتـح.. إعتدلـت فى فـراشى، ونظـرت إلى الحـرّاس الثلاثـة الواقفـين عـلى بـاب الزنزانـة.. أشـار إلىّ أحدهـم قائـلاً :

- ياللا معانا..

تساءلت:

- على فين..؟..

- (باقتضاب): العيادة..

- خير فيه حاجة..؟..

- هاتعرف هناك..

نهضـت معهـم.. وفى العيـادة، إستسـلمت للطبيـب الّـذى راح يجـرى علىّ مجموعـة مـن الفحوصـات.. عينـة مـن الـدم.. عينـة مـن البـول.. قيـاس

الحـرارة.. أشـعة عـلى المـخ والبطـن.. إلـخ.. سـألته بقلـق:
- إيه الموضوع يا داكتور..؟..
أجاب وهو يغرس إبرة محقن فى ذراعى:
- ولا حاجة يا (عـمّار).. بنطّمن على صحتك بس..
- ولقيت حاجة..؟..
- (مستمر فى الحقن): صحتك زى الفل..
لـم أطمـأن.. شئ مـا فى لهجتـه لـم يريحـنى.. كان يتجنّـب النظـر فى عيـنى مبـاشرة..
- وإيه اللى بتديهولى فـ الحقنة ده..؟..
- (يسحب الإبرة): مقوّيات..
أعادونى إلى الزنزانة.. وبعد دقائق بدأت أشعر بتلك الأعراض..

***

تنميـل غريـب سرى فى أطـرافى.. فى جسـدى كلّـه.. لا أقـوى عـلى تحريـك إصبعـاً واحـداً.. مـا الأمـر..؟.. هـل أصبـت بالشـلل..؟.. أم لعلّـه المـوت..؟..

***

مثبتـاً بأربطـة جلديّـة إلى ذلـك المقعـد الصلـب البـارد كالثلـج.. عـدد مـن أصحـاب المعاطـف البيضـاء يتحرّكـون مـن حـولى.. أيـاد تتحـرّك بسرعـة عـلى جسـدى العـارى.. عـشرات الإبـر والأقطـاب تُثبـت إلى جسـدى..عدد هائـل مـن الأسـلاك يـدور حـول المقعـد، و يتصـل بالإبـر والأقطـاب المثبتـة إلى جسـدى..
رعـب هائـل يـكاد يذهـب بعقـلى.. أود أن أصرخ.. أضرب.. أهـرب بعيـداً.. بعيداً..
ماذا تفعلون بى يا ولاد الكلب..؟.. ماذا تفعلون..؟..
شـعرت بأحدهـم مـن خلفـى يثبـت شـيئاً مـا حـول رأسى، ثـم لمحـت الواقـف أمامـى يشـير لـه بقبضـة مضمومـة وإبهـام مرفـوع، قبـل أن يتحـرك مـن أمامـى لأرى مـن وراءه إسـطوانة ضخمـة فى حجـم أنبوبـة البوتجـاز، مكتـوبٌ عليهـا أرقـام بالانجليزيّـة قرأتهـا بصعوبـة..
(2552005)..

وفى اللحظـة التاليـة سـمعت الصـوت الأنثـوى (لعلّـه صـوت المـرأة الشـقراء) يـأتِ مـن خلفـى.. ترطـن بـكلام لا أفهـم منـه شـيئاً.. فقـط رأيـت جميـع الموجوديـن يغـادرون المـكان، وسـمعت صـوت بـاب يُغلـق مـن خلفـى، لأغـرق فى ظـلامٍ دامـس..

رغمـاً عـنى، راحـت الدمـوع تنسـال ببـطء عـلى وجهـى.. أصعـب شئ ألا تـدرى مـاذا يحـدث لـك.. هأنـا ذا فى نهايـة المطـاف مشـلول عاجـز مُقيّـد، غـارق فى الظـلام، لا أرى، ولا أفهـم شئ ممـا يحـدث لى..

صمـت تـام فى المـكان إلا مـن أصـوات أنفاسى الثقيلـة.. تذكـرت (محفوظة) والطفلـين.. تـرى هـل مُقُـدّر لى أن أراهمـا مرّة أخـرى قبل أن أمـوت..؟..

كيف سيعيشون من دونى..؟.. ما الّـ.. آسى..

***

- أبوكو غَرَق يا عيال..

قالتهـا أمـى صارخـة، وراحـت تلطـم عـلى خدّيهـا.. إخـوتى مـن حـولى يبكـون ويصرخـون، وأنـا -ذو الأعـوام الثلاثـة- متعلّـق بجلبـاب خـالى.. لا أفهـم شـيئاً ممـا يـدور حـولى، ولكنـنى أرتعـش مـن الخـوف.. أسـمع خـالى ينهـر أمـى كى تتوقـف عـن اللطـم والعويـل..

- إبـن الكلـب صاحـب العـبّارة هـرب عـلى بـلاد بـرّة، ومحـدش هايعـرف ياخـد منّـه لا حـق ولا باطـل..

- يعنى الراجل مات، وملوش ديـّة..

***

جسـدى ينتفـض بعنـف.. ألـم بشـع يـسرى فى جميـع أعـضائى.. أجـز بقـوّة بأسـنانى فأقضـم لسـانى.. مـذاق الـدم فى فمـى.. لمبـة صغـيرة تعلـو أنبوبـة البوتجـاز أمامـى تـضئ بضـوء أحمـر..

الكهرباء تمزّق جسدى.. ألم رهيب.. أنتفض..

أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بيدى سوى الأنين.. الأنين..

والمزيد من الأنين..

***

كنـت أعبـث بالحـصى، محـاولاً أن أصنـع منـه كومـة عـلى الـتراب، عندمـا

شعرت بـذراع أمـى يطوّقـنى، ويرفعـنى عاليـاً.. أجفلـت صارخـاً:
- فى إيه يامّـا..؟..
لـم تـرد.. راحـت تجـرى فى الحـارة، بينمـا ذراعهـا الآخـر متشـبت بسَـبَت الكـرّات والفجـل والليمـون.. عديـدون مـن حولهـا كانـوا يجـرون أيضـاً.. عـم (نفـادى) بائـع الطـرشى.. عـم (جرجـس) صاحـب نصبـة الشـاى.. (أم مجـدى) بتاعـة الحمـام..
- فى إيه يامّا..؟..
لـم تـرد.. سـمعت أصـوات سرينـة وضجيـج عـال.. أدرت رأسى فرأيـت تلك السـيّارة الكبـيرة تتوقـف فى مدخـل الحـارة، وعـدة رجـال ضخـام يقفـزون مـن صندوقهـا الخلفـى.. النـاس تحـاول الهـرب مـن أمامهـم.. يمسـكون بـ (عـرابى) بتـاع الكـشرى.. يـصرخ مسـتعطفاً.. يلقـون بـه فى البوكـس، ثـم يدفعـون عـربته.. يلطـم عـلى خديـه مولـولاً، بينمـا أوانى المكرونـة والعدس والصلصـة تسـقط وتنسـكب عـلى الأرض.. يرفعـون العربـة إلى صنـدوق سـيارتهم..
- فى إيه يامّـا..؟..
لـم تـرد.. الرجـال الضخـام يمسـكون بالنـاس، ويجمعونهـم فى البوكـس.. الكثـير مـن الضجيـج.. الكثـير مـن الـصراخ والعويـل.. كـف ثقيلـة تقبـض عـلى كتـف أمـى وتجذبهـا للخلـف، فتـكاد أن تسـقطنا أرضـاً..
- رايحة على فين يا مَرَة..؟..
سـقط السَـبَت مـن ذراع أمـى، ورأيـت ثمـار الليمـون والكـرّات والفجـل تتناثـر عـلى أرض الحـارة، فتدهسـها أقـدام الفارّيـن..
- أبوس رجلك يا باشا.. آنى بنجرى على يتامى..
قالتهـا أمـى مسـتعطفة، وأهـوت لتقبـل حـذاء الرجـل، الّـذى جذبهـا بقسـوة صائحـاً:
- قومى يا بنت الـ (.....) مش فاضينليك..
حاولـت المقاومـة، ولكنـه لـم يرحمهـا.. دفعهـا بقـوّة نحـو السـيّارة، فسـقطت عـلى وجههـا وسـقطت معهـا، وأنـا أصرخ باكيـاً:
- فى إيه يامّـا..؟..

***

إبـر ملتهبـة تخـرج مـن الكـرسى الّـذى أجلـس عليـه.. تنغـرس فى أرداف ومؤخـرتى.. ألـم فظيـع فظيـع.. يتصاعـد فى أنحـاء جسـدى ليصـل إلى رأسى.. البـلل يغمـر أردافى.. لربمـا كان دمـاً أو بـولاً.. لا أعـرف..

اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر..

أحـاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بيدى سوى الأنين.. الأنين..

والمزيد من الأنين..

***

يقـع بيتنـا فى بـدروم عمـارة الحـاج (عبـد السـلام كرواية).. ليسـت المشـكلة فى الرائحـة الخانقـة أو الرطوبـة الّـتى نخـرت عظامنا..

ليسـت فى الشـمس الّـتى لا تدخـل المطـرح عـبر تلـك النافـذة الضيّقـة الوحيـدة والّـتى تعلـو رصيـف الشـارع بشـبرين ثلاثـة..

ليسـت فى أن المطـرح عبـارة عـن حجـرة واحـدة نتشـارك فيهـا أنـا وأمـى وإخـوتى (٣ بنـات وولـد آخـر).. ولا فى أنّـه ليـس لدينـا كِنيـف، وأننا نسـتخدم دورة ميـاه عموميّـة فى الميـدان..

المشـكلة الحقيقيّـة هـى المجـارى.. كل يـوم والتـانى نصحـو لنجـد أنفسـنا غارقـين فى ميـاه الـصرف الّـتى مـلأت الشـارع، وتسـللت إلى المطـرح مـن الشـباك لتغرقـه.. ننهـض سـابين لاعنـين.. الرائحـة خانقـة قـذرة إلى حـد لا يُحتمـل.. نخلـع ثيابنـا، ونبـدأ فى محـاولات لسـد النافـذة، ونـزح الميـاه القـذرة الّـتى تـغطى الأرض الّـتى ننـام عليهـا..

***

الآن صار المقعد نفسه ملتهباً ساخناً.. الألم لا يوصف..

الدخان.. أشم رائحة لحم محترق.. لحمى..

اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر..

أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بيدى سوى الأنين.. الأنين.. والمزيد من الأنين..

***

الحارة مليئة برجال الشرطة..
هتف الأسطى (طه) صاحب الورشة:
- بس ده كده يبقى قطع ارزاق يا سعادة الباشا..
قال الضابط بخشونة:
- إنت عايز تخالف التعليمات..؟..
- لا وربنا يا باشا.. الست هانم تآنس وتشرّف وتنوّر.. وان ماشالتهاش الأرض نشيلوها فـ رموش عنينا.. بس آنى عندى طلبات فـ الورشة، ومعاد تسليمها بكرة، ولو ماسلمتهاش فـ معادها هايتخَرَب بيتى و..
لكزه الضابط فى صدره مقاطعاً:
- (بعصبيّة): إنت هاتحكيلى قصة حياتك..؟.. مايتخرب بيتك اللا بيت أبوك أنا مالى..
- (بضراعة): بس يا باشا..
- إخلص يا (..) امك.. الورشة تتقفل دلوقت واللا نشمعها لك والله.. وابقى اشتغل براحتك بعد الزيارة الزفت ماتخلص..
كنّا واقفين بالقرب منهما.. إلتفت الأسطى (طه) إلينا صائحاً:
- مستنى إيه يا (....) منّك له..؟.. هاتوا ضلفها وغوروا فـ ستين داهية حسبى الله ونعم الوكيل..
كان هذا فى الصباح الباكر، بينما رجال البلديّة يغرسون الأشجار الصناعيّة، ويقيمون صواناً فاخراً إستعداداً للزيارة التاريخيّة -كما قالوا لنا- الّتى ستقوم بها السيّدة العظيمة بصحبة السيّد المحافظ والسادة المسئولين لمعاينة الحىّ ودراسة مشكلاته على الطبيعة..

***

الجسم صلب.. مدبب.. ملتهب.. أشعر به يرتفع ببطء من قاعدة الكرسى لينغرس فى فلقة مؤخرتى.. يخترقها كما يخترق السكين قالب الزبد الفلاحى.. الدم -دمى- يتفجر كالنافورة من مؤخرتى.. رائحة البراز..
الألم رهيب.. رهيب...
اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر ..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

أصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بيدى سوى الأنين.. الأنين..
والمزيد من الأنين..

***

"يا أيّتها النفس المطمئنّة. إرجعى إلى ربك راضيةً مرضيّة. فادخلى فى عبادى وادخلى جنّتى"
صدق الله العظيم..
إنتهى العزاء، وانصرف المعزّون، وتم فك الصوان..
راقداً على ظهرى فى الظلام.. صدرى يعلو و يهبط من الإنهاك.. كان يوماً عصيباً بالفعل.. التغسيل.. الصلاة.. الدفن.. العزاء.. بالقرب من ركن المطرح أسمع صوت أنين أمى تبكى ابنتها الراحلة..
لكم أحببت شقيقتى.. كنت آخر العنقود، وكانت تكبرنى بعامٍ واحد، لذا فقد كانت بيننا صلة من نوعٍ خاص تختلف عن صلتنا بباقى إخوتنا.. مودة أخويّة صافية تحمل شئ مِن مشاعر الإمومة كانت تغمرنى بها.. عندما أفكر فى الحيوان المسئول عن ترك عمود الإنارة مفتوحاً لتخرج منه تلك الأسلاك العارية أكاد أُجن.. ما كان يضيره لو أتقن عمله قليلاً، قام بتغطية فتحة العمود ..؟!!..
إهمال بسيط فى العمل.. الأسلاك خارجة من العمود تحمل الموت على أطرافها.. الناس تمر بها دون أن تعيرها انتباهاً.. وحدها أختى تتعثر عند مرورها بجوار العمود.. تمد يدها لتستند إليه لتحفظ توازنها و..
«يا حبيبتى يا بنتى..»
- نعملّكوا إيه..؟.. ده نصيبها.. إعترضوا بقى على قضا ربنا..
كذا صاح الموظف عندما ذهبنا طالبين مقابلة رئيس الحىّ.. بلاغ فى الشرطة.. ثم..
- ماتضيّعوش وقتكوا..
قالها أحد أولاد الحلال، فسأله (إسماعيل) أخى الأكبر عن السبب..
- العالم دى واقفة تسند بعضيها.. عندهم الفلوس والورق والمحامين.. وهايعرفوا يخرجوا م الحكاية دى زى الشعرة م العجين..

- طب ودم البت اللى راحت..
- يعوض عليكوا ربنا..

***

....

....

....

....

الألم رهيب.. رهيب..
اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر ..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..
أصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بيدى سوى الأنين.. الأنين..
والمزيد من الأنين..

***

«أنـا امـى لمّـا ماتـت مازعلتـش وحمـدت ربنـا.. عارفـة ليـه..؟.. أصلهـا اتعذبـت أوى قبـل مـا تـموت.. كان عندهـا المـرض الوحـش بعيـد عنّـك.. كنـت بنقعـد قدّامهـا وهـى بتتوجـع وقلـبى بيتقطّـع.. نبـكى ونقولّهـا آنى فـداكى يامـا.. مـآنى ماكانـش حيلـتى غـير الـكلام و البـكا بعـد مـا الداكتـور فـ المستشـفى المـيرى قـال انّـه مافيـش فايـدة م العـلاج»

***

....

....

....

....

الألم رهيب.. رهيب...
اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر ..
أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..
أصرخ.. لا صراخ..
لا شئ بـيدى سوى الأنين.. الأنين..

والمزيد من الأنين..

***

«قالـلى ان الميّـة الـلى بنشربهـا وسـخة.. قلـت لـه ماحنـا طـول عمرنـا بنشربوهـا وعايشـين زى الفـل.. قام زعّـق فيـّا وقـال ان جتتنـا ملايانـة أمـراض»..

***

«الشـظية مزّقـت دراعـك وسـببت الغرغرينـة.. للأسـف ماكانـش قدّامنـا غـير البتـر»..

***

تيييييييـــــــــــــت ..

....

....

....

....

الألم رهيب.. رهيب...

اللمبة أعلى أنبوبة البوتاجاز تضئ أكثر وأكثر ..

أحاول أن أتحرّك بلا نتيجة.. أنا مشلول.. عاجز..

أصرخ.. لا صراخ..

لا شئ بـيدى سوى الأنين.. الأنين..

والمزيد من الأنين..

الأنـــــين ..

الأنـــــين ..

الأنــــ مممممممممم ....

ممممممممممممممممم ....

مممممممممممممم ....

مممممممممممم ....

مممممممم ....

مممم ....

***

ليه تهدمونى ونا اللى عزكم بانى..
أنا اللى فوق جسمكم قطنى وكتانى..
عيلتى فى يوم دفنتى مالقيتش أكفانى..
حتى الأسية.. ونا راحل وسايبكم..
بيرم التونسى..

***

-١٣-
كمال فودة

لكلٍ منّا أخطائه.. هذا مؤكد..

لكـن حـين تمـدد (منـير باشـا فـودة) -جـدى- عـلى الشـيزلونج الوثـير عـلى ظهـر الباخـرة (مليكـة) المبحـرة إلى (مونـت كارلـو) يدخـن سـيجاره ويرقـب شـاطئ (الإسـكندريّة) وهـو يبتعـد رويـداً رويـداً، كان موقنـاً فى أعماقـه أنّـه لـم يخطـئ..

العـام ١٩٥٦.. العـسكر أحكمـوا قبضتهـم عـلى كل شبر فى البلـد.. الملـك وحاشـيته غـادروا إلى (أوروبـا).. الألقـاب والامتيـازات والممتلـكات ذهبـت.. ففيـم بقـاءه هـو..؟..

كان حـاد الـذكاء بعيـد النظـر.. أدرك أن الأمـور مـن بعـد حـرب (فلسـطين) لـن تستقر إلا قليـلاً.. ربمـا كان السـطح هادئـاً بعـض الـشئ، ولكـن مـا تحتـه يغـلى بشـدة توطئـةً للانفجـار.. الإنفجـار الّـذى سـيلتهم كل شئ.. الـسراى والحكومـة والأحـزاب والباشـوات وربمـا الاسـتعمار ذاتـه.. لـذا فلـم يُضـع وقتـاً..

«قـرار رئيـس الجمهوريّـة بتأميـم قنـاة (السـويس) البحريّـة شركـة مسـاهمة مصريّة»..

بـدأ يصفـى أعمالـه بشـكل تدريجـى ويحوّلهـا إلى أمـوالٍ سـائلة، ينقلهـا إلى بنـوك مختلفـة فى (أوروبـا) و(أمـيركا).. فى خـلال عامـين كان قـد هـرّب ثلاثـة أربـاع ثروتـه خـارج (مـصر)، وتـرك الربـع البـاقى لتغطيـة نفقـات أسرتـه ومرتبـات موظـفيه كيـلا يثـير شـبهة الـسراى أو أى جهـة قـد تتربـص لـه..

سـطح الباخـرة مـن حولـه يـعج باليونانيـين والإيطاليـين واليهـود.. الكلمات تنهمـر كالمطـر بلغـات ولهجـات مختلفـة، ولكـن لكنـة الحـزن مشـتركة فى جميـع الأحاديـث.. كلهـم حزيـن لإضطـراره الرحيـل..

والآن وهـو يلقـى نظـرات الـوداع الأخـيرة عـلى (الإسـكندريّة) المبتعـدة فى ضـوء الغـروب الحزيـن يمـتزج فى قلبـه شـعورُ بـالأسى لفراقهـا -وهـى المدينـة الّـتى شـهدت أجمـل أيّامـه- والراحـة لنجاحـه فى تأمـين مسـتقبل

ولديه (حسن) و(فريدة) بما استنقذ لهما من أموال.. سيقضى بعض الوقت فى (مونت كارلو) على سبيل التسريّة عن النفس، ثم ينطلق بعدها إلى (نيويورك) حيث تنتظره حياة جديدة ووجوه جديدة وأعمال جديدة فى ذلك البلد الواعد المبشر بفرصٍ رائعة..

***

Burn mother fucker..

Burn..

Burn..

Burn..

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

***

لو ألقيت -عزيزى (محيى الدين)- نظرة داخل البوتقة (المصطلح الّذى نطلقه على الغرفة المخصصة لإنتزاع السيال الحيوى من العيّنة) على البطّاريّة المتصلة بالمقعد الّذى تثبت إليه العيّنة لوجدت أسلاكاً دقيقة تخرج منها لتغادر المكان من خلال أنبوب مخصص لها فى الجدار.. هذه الأسلاك تحمل طاقة السيال الحيوى المختزنة لتنقلها داخل الأنبوب عبر ممر رأسى court خاص يصعد بها طوابق المبنى حتى تصل إلى قدس الأقداس أوغرفة المحوّلات..

تقع غرفة المحوّلات فى الطابق الأخير من (هاليبرتون)، وتتمتع بنظام تهوية وتبريد آلى خاص.. جميع خطوط الأنابيب القادمة من البطاريّات المختلفة تصب فى المحوّل الّذى يستقبل الطاقة الحيويّة، ويبدأ فى تأيينها باستخدام شحنات مضادة.. يتم التأيين على عدة مرّات، وفى النهاية تخرج الطاقة الكهربيّة الصافية من الجانب الآخر من المحوّل ليتم توزيعها على الخلايا الكهربائيّة..

كانت هذه الإكتشافات هى ثمرة ست سنوات متواصلة من البحث والتجارب فى المختبرات المغلقة.. وإذا كانت المرحلتين الأولى (إستخلاص السيال الحيوى وتخزين طاقته) والثانية (تأيين هذه الطاقة وتحويلها إلى طاقة كهربائية) قد استغرقت هذه السنوات الست، فإن المرحلة الثالثة وهى تسويق هذا الإكتشاف وتحويله إلى مشروع استثمارى لم

تستغرق أكـثر مـن عـام..
مـن نافلـة القـول أنّ (هاليبرتـون) فرضـت سـياجاً كامـلاً مـن السريّـة حـول الأبحـاث الّـتى تُجـرى فى مختبراتهـا.. لاحـظ أن الاكتشـاف ذو طبيعـة خاصـة، وليسـت أى عقليّـة قـادرة عـلى اسـتيعابه وتقديـر فوائـده.. مجـرّد تـسرب الخـبر سـيثير جنـون الشـعوب والحكومـات والأمـم المتحـدة ومنظّمـات حقـوق الإنسـان..
فى دولـة رأسماليّة مثـل الـ (States) يسـهل أن تـُقيم بيزنـس ضخـم طالّما لديـك التمويـل الـكافى.. لـذا فلـم يكـن صعبـاً عـلى مجموعـة رجـال الأعمـال المالكـين لأسـهم (هاليبرتـون) -و منهـم أبى الملياردير (حسـن فـودة) - تأسـيس مؤسسـة عملاقـة هـى (نيـو ميـدل إيسـت ـ إيـنرجى).. النشـاط المعلـن هـو إنشـاء مشروعـات لإنتـاج وتصديـر الطاقـة المتجـددة فى منطقـة الـشرق الأوسـط، بينمـا النشـاط الحقيقـى (والـسرى كذلـك بالطبـع) هـو اسـتخلاص الطاقـة الحيويّـة مـن الأجسـاد المحتـضرة وتحويلهـا إلى طاقـة كهربيّـة..
أجساد من..؟!!..
سـؤال غريـب.. أجسـاد سـكان هـذ المنطقـة.. أعـنى منطقـة الـشرق الأوسـط بالطبـع..

***

مـن فضلـك لا تكـن نمطيّـاً وتثرثـر بـكلام مسـتهلك عـن انتهـاك الآدميّـة وحقـوق الإنسـان والاسـتغلال و.. و..
أنت رجل عملى مثقف ويمكنك أن تفهمنى بسهولة..
هـذه الشـعوب تعيـش منـذ أكـثر مـن خمسـة قـرون فى ظـلام الكهـوف بكامـل إرادتهـا.. لسـت بيولوجيسـت،ولكننى أعتقـد أن شـيئاً مـا أو مركـب مـا فى خلاياهـم يدفعهـم إلى الاسـتماتة فى التخلـف عـن الحضـارة.. لا أنكـر أنّ جـذورى مصريّـة، ولكـن هـذا لا يعـنى أنـنى مـصرى.. أنـا أمريـكى قلبـاً وقالبـاً -والمفـروض أنّـك كذلـك أيضـاً منـذ حصلـت عـلى الجنسـيّة الأمريكيّـة- منـذ أول لحظـة خطـت فيهـا قدمـا جـدى (منـير باشـا فـودة) عـلى رصيـف ميناء (نيويـورك).. لـذا فأنـا أتكلـم هنـا بحيـادٍ علمـىّ خـالٍ مـن أيّـة عواطـف إنتمـاء..

نعـم هنـاك شيئاً مـا فى الوعـى الجمعـى لهـؤلاء النـاس وبخاصـة المصريين منهـم يجعلهـم يسـتكينون لـكل مـن يظلمهم.. وكلّما زادت شـدة الظلم زاد إذعانهـم وخضوعهـم لـه.. حقـاً أعجـز عـن تفسـير هـذا السـلوك الشـاذسر الّـذى ينفـردون بـه بـين سـائر الشـعوب والأمـم.. والطريـف أنهـم يتفننـون فى إيجـاد المـبررات الّـتى تسـوغ لهـم سـلوكهم.. مـبررات اجتماعيـة ودينيـة وثقافيـة يفرزونهـا طيلـة الوقـت مثـل المـواد المخـدرة الّـتى يفرزهـا الجسـم البـشرى ليخفـف عـن نفسـه الألـم حـال تعرضـه لحـادث مميـت مثـلاً..

لـو تابعـت أخبـار (مـصر) فى الصحـف والمحطـات التليفزيونيّـة فى الفـترة الأخـيرة لوجـدت عجبـاً.. شـعب كامـل يُدهَـس ويتعـرض يوميـاً لإبـادة منظمـة بمختلـف الوسـائل الممكنـة وغـير الممكنـة.. يذكـرنى هـذا بالإبـادة الّـتى تعـرض لهـا الهنـود الحـمر إبّـان الاجتيـاح الأوروبى للعالـم الجديـد توطئـةً لنشـأة مـا عُـرِف فيمـا بعـد بـ (الولايـات المتحـدة الأمريكيّـة).. لـم يدّخـر الأوربيّـون وسـيلة لقتـل الهنـود -أصحـاب الأرض الأصليـين- إبتـداءً مـن ذبحهـم وإطـلاق النـار عليهـم، إنتهـاءً بالتخلـص منهـم عـن طريـق البطاطـين الملوثـة بالجـدرى..

أليـس هــذا شـبيه بمـا يتعـرض لـه المصريـين يوميّـاً..؟!!.. مئـات (وربمـا آلاف) يلقـون مصرعهـم كل يـوم فى حـوادث الطـرق والقطـارات المحترقـة والعبّـارات الغارقـة.. عـشرات الآلاف يتـم تسـميمهم عمـداً سـواء عـن طريق المبيـدات المسرطنـة أو ميـاه الـشرب المخلوطـة بميـاه الـصرف الصحـى.. دعـك بالطبـع ممـن يموتـون مـن جـراء التعذيـب داخـل أقسـام الشرطـة ومقـار الأمـن المختلفـة بطـول البـلاد وعرضهـا (وهـذه النقطـة بالـذات كانـت سـبباً رئيسـيّاً فى إختيـار هـذا البلـد لبـدء مشروعنـا)..

لـو كان هـذا شـعباً محترمـاً.. أو حـتى شـعباً يسـتحق صفـة الآدميّـة لثـار عـلى الظلـم منـذ دهــور، ولانـتزع حريتـه بيديـه، وانتقـم مـن ظالميـه.. ولكنـه لـم يفعـل.. تـرك حكّامـه يعبثـون بـه ويدهسـونه بالأحذيـة، فصـار أشـبه بقطيـع مـن الأغنـام قابـع فى الحظـيرة ينتظـر ذبـح الجـزّار لـه.. فمـا الفـارق هنـا بـين جـزّار وآخـر..؟!!..

مادامـوا مذبوحـين لا محالـة، فـلا مانـع إذن مـن يُذبحـوا فى آلاتنـا كى نحصـل نحـن عـلى سـيالهم الحيـوى بـدلاً مـن أن يضيـع سـدى.. عـلى

الأقـل سـيجعل هـذا لهـم قيمـة مـا بشـكلٍ أو بآخـر..

***

كان قـرار مجموعـة رجـال الأعمـال أصحـاب المـشروع -وهـو قـرار مسـتند إلى دراسـاتٍ اقتصاديّـة وسياسـيّة دقيقـة أشرفـت عليهـا بنفـسى- أن نبـدأ بــ (مـصر).. تقدمنـا بطلـب إلى الحكومـة المصريـة بإنشـاء شركـة متخصصـة فى إسـتخلاص وإنتـاج الطاقـة المتجـددة تحـت إسـم (إيـجى ـ نيرجـى)..

- لا أرى أى داع للخـوف مـن رفـض الحكومـة المصريّـة للمـشروع.. المقابـل الّـذى سيحصلـون عليـه ليـس بالقليـل عـلى الإطـلاق.. ثـم إنّ الرجـل المُرشـح للتفـاوض معـه كفيـل فى حـال موافقتـه -وهـو أمـر شـبه مضمـون- بتسـهيل كافـة العقبـات.. سـيضمن لنـا موافقـة وزارة الاسـتثمار، وأنّ أحـداً لـن يبحـث وراءنـا، وأنّ المـشروع الحقيقـى سـيظل سراً لـن تعلـم بـه إلا فئـة محـدودة جـداً هـى كل مـن نحتـاج إلى معرفتـه..

كذا قلت فى أحد الاجتماعات..

إبتسـامة سـاخرة ارتسـمت عـلى شـفتىّ أحدهـم، وأطلـت نظـرات مسـتهزئة مـن أعـين البعـض منهـم.. شـعرت بحنـق بالـغ كتمتـه فى أعمـاق عـلى الفـور.. أعلـم - فكـرت - أنّ هـؤلاء الحمقـى يتشـككون فى قـدراتى، ولا يـرون فىّ إلا طفـلاً يرغـب فى العبـث بأمـوال والـده.. ولكـن صـبراً أيهـا الأوغـاد.. ستشـاهدوننى وأنـا أعمـل، وسـتعلمون حقـاً مـن هـو (كمـال فـودة) ومـا هـى قدراتـه الحقيقيّـة.. ولأثبـتن لكـم بـأى ثمـن أنـى لسـت ظـلاً لوالـدى، وأنـى أفوقـه فكـراً وتطـوراً بمراحـل..

لـم يسـتغرق الأمـر كثـيراً مـن الوقـت بفضـل الرشـاوى الهائلـة الّـتى دفعناهـا.. قمنـا بـشراء آلاف الأمتـار المربعـة فى مناطـق متفرّقـة، وتـم إنشـاء مـزارع للطاقـة تسـع آلاف البطّاريّـات البشريّـة، وعـدد مـن المحـوّلات والخلايـا.. بالإضافـة إلى ديكـور تمويهـى بـارع يشـبه إلى حـدٍ كبـير ماكينـات وأجهـزة محطـات الطاقـة المتجـددة الحقيقيّـة..

ثـم كانـت الخطـوة التاليـة هـى إتمـام الاتفـاق الـسرى الّـذى أُبـرم مـع واحـدة مـن الشـخصيّات الهامـة جـداً فى البلـد.. لـن أذكـر أسـماء ولا أماكـن ولا تواريـخ.. ولكـن يكفـى أن تعـرف أنّـه بمقتـضى هـذا الاتفـاق تقـوم جهـات مـا بالحكومـة بإمدادنـا بحاجتنـا مـن البطّـاريّات البشريّـة بصـورة دوريّـة

منتظمة.. فى الواقع بدأت المفاوضات الحقيقية مع الجانب المصرى فى هذا الشأن قبل تقديم الطلب الرسمى إلى الحكومة، بل أننا لم نقدم الطلب فعليّاً إلا بعد التوصل إلى صورة كاملة للاتفاق..

ولم تكد تمضِ بضعة أشهر حتى وصلت بالفعل أول شحنة من البطاريّات البشريّة إلى المزرعة (أفضل أن إسم: المحطة) الرئيسيّة.. كانوا مجموعة من الفلاحين قاموا بقطع الطريق الدولى وحرق بعض الممتلكات كنوع من الاعتراض على تجاهل الحكومة المصريّة لمشكلاتهم مع مياه الشرب فيما أذكر..

لم يدر البؤساء ما الّذى يجرى لهم.. فى البدء نقلناهم إلى المحطة الرئيسيّة حيث قدمنا لهم رعاية طبيّة وغذائية فائقة لم يحظوا بمثلها من قبل (تشهد على ذلك أجسادهم النحيفة ووجوههم السمراء الممصوصة).. كان هذا نوعاً من التسمين الّذى يقوم به الجزّار للمواشى قبل ذبحها، واستمر الأمر كذلك لما يقرب من الشهر، حتى وصلت معدلاتهم الصحية والحيويّة إلى المستوى المقبول، وعندها بدأت الماكينات تعمل، وامتلأت البطّاريات بسيال حيوى متدفق..

***

إحرق ابن سافلة..

إحرق..

إحرق..

إحرق..

من أغنية لفريق (دروانينج بول)

***

أرجو أن تستوعب كلامى جيداً..

لقد صنعنا بالفعل بروبجندا صاخبة حول مشروعنا.. العشرات من السيمينارات واللقاءات التليفزيونيّة والموضوعات الصحفيّة مدفوعة الأجر فى الصحف الكبرى، والأفلام التسجيليّة الّتى أشرفت على إنتاجها واحدة من أكبر الشركات المتخصصة.. كل هذه المواد تحدثت كثيراً عن أهميّة المشروع وفوائده وقيمته كعملٍ وطنى يهدف لخدمة (مصر) و.. و..

والحقيقة أن (مصر) بالفعل بحاجة إلى تأمين مصادر طاقتها وبخاصة مع التناقص المستمر فى مخزونها من البترول والغاز الطبيعى وغيرها من الثروات الطبيعيّة فى أرضها.. ولكن إذا سألتك هل لدى الحكومة المصرية المقابل الّذى تستطيع به شراء الطاقة الّتى نستخلصها فبم ستجيب..؟.. لا تحتاج أن تكون عبقريّاً كى تجيب بـ «لا».. وضع (مصر) الاقتصادى ينحدر بصورة منتظمة برغم كل الدعايات الّتى يبثها النظام حول النمو الإقتصادى ومعدلات الادّخار وغيرها من الأكاذيب الّتى تدحضها الدراسات والتقارير المحترمة عن الأداء الاقتصادى المصرى.. فلا مجال هنا للحديث عن قدرة (مصر) على شراء الطاقة.. وإذا كنّا نتحدث بإسهاب فى الفقرات الإعلانيّة عن تغطية خدماتنا لملايين الوحدات السكنيّة والصناعيّة، فهذا كما شرحت لك يدخل فى نطاق البروبجاندا..

إذا كانت (مصر) غير قادرة على شراء منتجاتنا من الطاقة، فغيرها كثير لديه الحاجة ولديه المقدرة أيضاً.. مثل من..؟..

لن نذهب بعيداً.. (إسرائيل) مثلاً..

***

عجلات الطائرة تتوقف تماماً على أرضيّة ممر الهبوط بمطار (القاهرة) الدولى.. السيّارة الّتى تحمل السلم تدنو منها..

«أنا باقول إنى مستعد أروح لآخر العالم من أجل السلام»..

باب الطائرة ينفتح.. يبرز منه وجه وجسد (حسن فودة) -أبى- الملياردير الشهير.. حُلة فاخرة.. معطف ثمين.. منظار شمسى داكن من نوع Rayban يغطى عينيه.. يتوقف على باب الطائرة.. يتأمل المكان أمامه.. يلتقط نفساً عميقاً..

«وستُدهش (إسرائيل) عندما تسمعنى أقول أننى على استعداد للذهاب إلى بيتهم»..

منـذ مـا يزيـد عـن العشريـن عامـاً غـادر والـده البـلاد شـبه مطـرود.. صحيـح أنّـه كان محتاطـاً لذلـك، ولكـن هـذا لا يمنـع المهانـة الّـتى ظلـت مصاحبـة لـه حـتى وفاتـه..

يبتسـم.. هاهـى ذى العجلـة قـد دارت دورة كاملـة يـا باشـا، وعـادت أبواب (مـصر) مفتوحـة أمامنـا عـلى مصراعيها..

الحذاء الأمريكى الفاخر يطأ أرض المطار نحو السيّارة الواقفة بانتظاره..

«الكنيست ذاته »..

(تصفيق)..

***

بالنسـبة لى كبيزنـس مـان أمـيركى.. (إسرائيـل) دولـة مثـل أى دولـة.. ليـس لـدىّ أى نـوع مـن التحفـظ عـلى التعامـل معهـا، بـل عـلى العكـس أجدهـا مكانـاً للاسـتثمار أفضـل مـن كثـيرٍ غـيره.. وهـذه كانـت نقطـة الخـلاف بـين والـدى وجـدى الراحـل الّـذى لـم يفتـأ يرفـض التعامـل مـع الإسرائيليـين باعتبارهـم مغتصبـى أرض (فلسـطين).. طبعـاً أنـا مُقـدر لأسـباب جـدى ودوافعـه لإتخـاذ هـذا الموقـف، ولكنـى لا أسـتطيع التعاطـى مـع تلـك الدوافـع، ولا أرغـب فى ذلـك أصـلاً، ولمـاذا أفعـل..؟!!..

لسـت مصريّـاً أو سـوريّاً أو فلسـطينيّاً أو عراقيّـاً أو.. أو.. لسـت عربيّـاً لتكون لـدىّ حساسـيّة تجـاه التعامـل مـع (إسرائيـل).. دعـك مـن أن العرب أنفسـهم لـم تعـد لديهـم تلـك الحساسـيّة منـذ زمـنٍ بعيـد، فلـم تظـن أنـى (وأنـا الأمـيركى القـح) لسـت كذلـك ايضـاً..؟!!..

مـكان واحـد فقـط فى (مـصر) هـو الّـذى يسـتفيد بإنتاجنـا مـن الطاقـة هـو منشـأة (بارادايـس هايتـس).. لـذا فقـد حرصنـا عـلى تزويـده بمحطـة عاليـة القـدرة تلبى كافـة احتياجاتـه.. أمّـا الجـزء الأكـبر فمخصـص للتصديـر كما سـبق وذكـرت لـك..

***

- أنـت تفكـر فى صناعـة القـرار الرئـاسى.. فمـا هـو ترتيـب أولويّاتـك اليـوم سـيادة الرئيـس..؟..

- مصلحــة المواطــن أولاً.. أى شئ أقــوم بــه أبحــث فيــه عــن مصلحــة المواطـن والفئـات محـدودة الدخـل، وتجـدنى فى كل خطـبى وكلامـى ومرورى أبحـث عنـه..

مــن حـــوار تليفزيـــونى بـــين الرئيـــس (مبـــارك) والإعلامـــى (عمـــاد الديـــن أديـــب)- ٢٠٠٥

***

لكلٍ منّا أخطائه.. هذا مؤكد..

ومـشروع ضخـم مثـل مشروعنـا ليـس اسـتثناءً عـن هـذه القاعـدة.. لا أتكلـم عـن الناحيـة الأخلاقيّـة.. أتكلـم عـن مشـكلة غريبـة بـرزت بوضـوح خـلال مرحلـة تأيـين طاقـة السـيال الحيـوى..

لاحـظ فريـق العمـل بمعامـل (هاليبرتـون) أن الدكتـور (ويليـام أوبرايـان) أُصيـب بحالـة مـن التوتـر والأرق المسـتمر، وشـكا عـدة مـرّات مـن هواجـس غريبـة وأصـوات مريبـة يسـمعها أحيانـاً.. طبعـاً اعتـبر زملائـه هـذه الأعراض نتائـج طبيعيّـة للعمـل الشـاق المتواصـل فى المختـبرات المغلقـة لفـتراتٍ طويلـة، ومنحـه البروفيسـور (جولدمـان) إجـازة ليريـح أعصابـه، غـير أن الدكتـور (أوبرايـان) عـاد مـن إجازتـه أسـوأ حـالاً ممـاكان.. إزداد عصبيّـة وتوتـراً.. لـم يعـد ينـام تقريبـاً.. وبـدأ يهلـوس بشـأن العيّنـات البشريّـة الّـتى نجـرى عليهـا التجـارب.. ثـم بـدأت تصيبـه نوبـات مـن الهيـاج العنيـف إندفـع خـلال إحداهـا محـاولاً تحطيـم الكمبيوتـر المتصـل ببوتقـة التجـارب والّـذى يحمـل برنامـج المؤثـرات المؤلمـة الّـتى تتعـرّض لهـا العينـة لإنـتزاع سيالها الحيـوى، وكاد بالفعـل أن يحطمـه لـولا تكالـب رجـال الأمـن عليـه..

وخــلال الأيــام التاليــة تــم إجــراء سلســلة كاملــة مــن الفحــوص عــلى الدكتـور (أوبرايـان).. فحـوص فسـيولوجيّة وسـيكولوجيّة عاليـة الدقـة تليـق بمـا لـدى (هاليبرتـون) مـن امكانيّـات، ثـم كانـت المفاجـأة..

***

-١٤-
إكتوبلازم

لا يعرف لنفسه اسماً..

بالواقـع هــو أصـلاً لا يعـرف لنفسـه تعريفـاً محـدداً، ومـن العبـث أن نطلـب منـه أن يفعـل، كأن تطلـب مـن أصابـع قدمـك اليمـنى مثـلاً أن تعـرف نفسـها.. نعـم هـى جـزء مـن كائـنٍ حـى هـو أنـت، ولكنهـا لا تملـك إرادتـك ولا وعيـك بنفسـك.. هـذا أمـر بديهـى، وينطبـق عـلى جميـع أجـزاء جسـدك وروحـك..

إختلافـه عـن بـاقى أجـزاء الجسـد هـو أنّـه أقـرب إلى صـورة مـن صـور الطاقـة.. طاقـة حيويّـة غـير مرئيّـة تشـع مـن الجسـد نفسـه طالّمـا بقـى هـذا الجسـد حيّـاً، فـإذا فارقتـه الحيـاة، فارقـه هـو أيضـاً معهـا ليتبـدد ويتبعـثر فى الفـراغ..

إختلافـه هـو أنـه أشـبه بشريـط سـليلويد تنطبـع عليـه كل التفاصيـل الّـتى تلتقطهـا حـواس الجسـد الخمسـة منـذ اللحظـة الأولى لدخولـه الدنيـا، وحـتى اللحظـة الأخـيرة قبـل خروجـه منهـا..

علمـاء البيولوجـى والباراسـيكولوجى يطلقـون عليـه أسـماء عـدّة مثـل (السـيال الحيـوى) و(الإكتوبـلازم) و(الأورا) و(السـجلات الأكاشـيّة) وغيرهـا.. ولكـن -وأنـت تفهـم ذلـك بالتأكيـد- لا يهمـه فى شئ، كمـا لا يهـم القـط أن يعـرف أن اسـمه قـط أو cat مثـلاً..

***

لعـب إيـه يـا وليّـة فـ الحـر ده..؟.. إنـتى عـاوزة العيـال تجيلهـا ضربـة شـمس..؟..

***

مـن البديهـى كذلـك أنـه لا يحسـب لنفسـه عمـراً.. خمسـة وأربعـون عامـاً مـرّت عليـه بصحبـة هـذا الجسـد المـادى دون أن يشـعر، فإحساسـه بالزمـن مثـل إحساسـه بـأى شئ آخـر: صفـر..

اللحظـة الوحيـدة الّـتى يشـعر بهـا هـى لحظـة مفارقتـه للجسـد المـادى..

إنـه يشـعر بعلامـات دنـو النهايـة، وتراجـع المعـدلات الحيويّـة، فيبـدأ لاإراديّاً فى الاحتشـاد، ثـم يغـادر ببطء مـع انسـحاب الـروح مـن الجسـد.. غـير أنّ ظـروف معيّنـة قـد تدفعـه إلى اتخـاذ نهـج مختلـف فى المغـادرة.. فعـلى سـبيل المثـال.. جسـد مثـل هـذا تعـرّض لمؤثـرات مؤلمـة فى غايـة القـوّة.. الألـم الشـديد البطـئ الناتـج عـن احـتراق خلايـا الجسـد أو صعقهـا بالكهربـاء زاد مـن معـدل احتشـاده ودفعـه بصـورة غـير مألوفـة.. عمليّـة تعذيـب بطيئـة إسـتغرقت مـا يزيـد عـن السـاعة نتـج عنهـا اعـتصار خلايـا الجسـد ، وخروجـه منهـا بكامـل كميّتـه..

الجديـد هنـا هـو أنّـه لـم يغـادر الجسـد ليتشـتت فى الفضـاء كمـا يفعـل أمثالـه منـذ بـدء الخليقـة.. مـا حـدث هـو أنّ أقطـاب عديـدة موزعـة بدقـة مدروسـة عـلى مواضـع احتشـاده وخروجـه مـن الجسـد كانـت بانتظـاره، ظلـت طيلـة فـترة تعـرض الجسـد للألـم تسـتقبله وتختزنـه فى حـيز مـادى آخـر..

تيييييييـــــــــــــت..

هـو الآن محتجـز فى حـيّزٍ مـادى محـدد -بطاريّـة رقـم (٢٥٥٢٠٠٥)- وهـو وضـع غريـب حقـاً بالنسـبة لـه هـو الّـذى اعتـاد الارتبـاط بجسـدٍ مـادى دونمـا الاحتـواء بداخلـه.. لـو كانـت لديـه القـدرة عـلى الدهشـة لأصابـه الذهـول، ولـو كانـت لديـه القـدرة عـلى الخـوف لأصابـه الرعـب مـن الوضـع الجديـد غـير المألـوف لـه.. لا يـدرى بالطبـع -كمـا سـبق وذكرنـا- كـم ظـل محبوسـاً.. لربمـا مـرّت علـيه لحظـات أو دقائـق أو سـاعات أو أيـام.. النتيجـة واحـدة..

فى لحظـةٍ مـا إنفتحـت ثغـرة فى قمـة الحـيّز المـادى.. لا إراديّـاً بـدأ كيانـه -كالعـادة- يحتشـد نحـو هـذه الثغـرة.. وهنـا حـدث الـشئ الأكـثر غرابة..

***

- فين البطّيخ يا وليّة ..؟..

مايقصدش حاجـة وحشـة يـا حـاج لا قـدّر الله.. هـو بـس يقصـد ان

الأستاذ (محمّد حسبو) راجل طيّب، والعالم اللى حواليه دول ولاد حرام.. بينيّموه بكلمتين حلوين، ويلعبوا بديلهم من وراه..

***

لو أن بشريّاً تعرض لمثل هذا الأمر، لبدا له أشبه بعاصفةٍ استاتيكيّة متصاعدة الشدة.. بدأت ببطء، ثم راحت تشتد وتقوى.. ولبدت له الشحنات المضادة أشبه بحبّات رمال تضرب كيانه.. هدير قوى يرتفع فى الجوار.. ثمة تغير طفيف يطرأ عليه.. الشحنات المضادة تندفع نحوه بقوّة.. ترتطم به.. كل موضع فى كيانه يرتطم بشحنة مضادة يتأيّن على الفور.. تجربة فريدة هى من نوعها.. لو كان بشريّاً لتعالت صرخاته، ولاشتم رائحة حريق.. الشحنات تضربه بقوّة أكبر.. الهدير يتعالى أكثر وأكثر.. كيانه ينتفض بقوّة وهو يتحوّل..

....

....

....

....

....

....

***

يا بت دانتى ضفرك برقبتهم كلّهم.. بس الحتت دى مش للّى زيّنا.. لاهى بتاعتنا ولا احنا بتوعها..

- أخوكى..!!.. ماشى.. الصبر حلو.. أخوكى..!!.. ماشى.. الصبر حلو.. آنى النهارده هاندخّلوكى السيما.. الفيلم بتاع (عادل إمام).. وبعديها نرجعو بحرى نتعشّو سمك وجمبرى عند (الراوى)..

***

إكتمل تحوله..

هو الآن يسرى كطاقة كهربيّة عبر الأسلاك بسرعة لا تصدق.. تم تمريره على خلايا كهربيّة خففت من جهده، ثم انطلق من جديد..

ولكن ثمة شئ ما يجعله مختلفاً عن أى تيار كهربى عادى.. شئ غير مادى، لم يتأثر بالتأين الّذى تعرّض له عندما كان لايزال سيالاً حيويّاً،

وتسـبب فى تحويلـه إلى طاقـة كهربيّـة..
بالفعـل هــى ظاهـرة خارقـة للعـادة.. أن يـسرى تيار كهربى عــبر الأسـلاك، وتـسرى معـه حزمـة مـن الذكريـات والانفعـالات مطبوعـة عـلى جزيئـات غـير ماديّـة مـن الطاقـة النفسـيّة العالقـة بالتيّار نفسـه..
التيّــار يقطــع مئــات.. آلاف الكيلومــترات حامــلاً معــه مئــات.. آلاف الذكريــات والعواطــف والمشــاعر..

***

ونسـتنّى لبكـره ليـه يـا ريّـس..؟!.. نتـوكل عـلى الله ونفرّجهـم دلوقـت.. دى حالتهـم مـا يعلـم بيهـا الا ربنـا..

وإيه اللى بتديهولى فـ الحقنة ده..؟..

***

فى لحظةٍ ما حدث الإنفصال..
التيـار الكهـربى يخـترق الموصـلات ليشـعل محـرّكات جهـاز التكييـف فى تلـك الفيلـلا.. الجزيئـات النفسـيّة العالقـة بـه تـصطحبه كعادتهـا.. ولكـن عنـد تحوّلـه -التيّـار- إلى طاقـة حراريّـة، حـدث الإنفصـال..
طبعـاً لـم يسـتغرق الأمـر سـوى جـزء مـن الثانيـة.. تحـررت بقايـا الطاقـة النفسـيّة مـن ارتباطهـا بالتيـار الكهـربى -السـيال الحيـوى سـابقاً- لتغـادر الموصـلات وجهـاز التكييـف كلـه، وتـسبح ببـطء فى فضـاء المكان/الفيلـلا..
يحتــاج الأمــر إلى جهــاز لعمــل مجــال للأشــعة تحــت الحمــراء لرؤيــة الجزيئـات النفسـيّة وهـى تتـسرّب عـبر فتحـات جهـاز التكييـف لتحتشـد فى صـورة أشـبه بالسـحابة، ثـم تسـبح بثقـة ورويّـة فى الفـراغ.. تطـوف المـكان كلّـه.. تحتـك بالحوائـط.. بالسـقف.. تزحـف عـلى الأرضيّـة الباركيـه.. ثـم ترتفـع بسلاسـة ملامسـةً لمـلاءة الفـراش الّـذى يتوسـط الغرفـة.. تطـوف ببـطء حـول الجسـد الراقـد عليـه -عـلى الفـراش- قبـل أن تنحـدر نحـوه بنعومـة.. ثـم تغـوص خـلال جزيئـات السـيال الحيـوى الخـاص بـه..
الجسـد نحيـف جـداً.. غـارق فى العـرق.. سكسـوكة خفيفـة تحيـط بالفـم نصـف المفتـوح.. جـزء مـن إحـدى السـنتين الأماميّتـين مهشـم.. وشـم صـغير مطبـوع على إحـدى الذراعـين يمثـل ثعبانـين يـدوران حـول جمجمة

قبيحـة الشـكل..

صاحـب الجسـد غـارق فى سـباتٍ عـميق.. شـكل ولـون وحركـة سـياله الحيـوى - لـو نظرنـا لـه عـبر منظـار الرؤيـة فى مجـال الأشـعة تحـت الحمـراء- يؤكـد هـذا.. غـير أنّ الوضـع يختلـف عنـد الإلتحـام بالجزيئـات النفسـيّة الغازيـة.. يضطـرب السـيال الحيـوى.. يتغـيّر لونـه، وكأن مقاومـة مـا يخوضهـا ضـد الوافـد الجديـد.. تمر لحظـات مـن الإحتـدام والإضطراب ثـم يسـتقر الوضـع مـن جديـد..

صاحـب الجسـد يسـتيقظ منزعجـاً.. قطـرات العـرق تغمـر وجهـه وجـسده وتبلـل مـلاءة الفـراش برغـم جـودة التكييـف.. يشـعر بأنّـه ليـس عـلى مايـرام.. ينهـض.. يهـرع بخطـوات متعـثرة نحـو الحمّـام.. يتقيّـأ بعنـف فى المرحـاض.. يعتـدل.. يتمضمـض ليغسـل فـمه من آثـار القئ كريـه الرائحة، ثـم يغـادر الحمّـام مترنّحـاً.. يخـرج زجاجـة مـن الخمـر مـن بـار صغـير فى ركـن الحجـرة يتجـرّع منهـا بنهـم ثـم يعيدهـا ويعـود هـو ليسـتلقى عـلى فراشـه شـاعراً بأنـه أفضـل حـالاً..

ومـن جديـد يسـتغرق المهنـدس (أحمـد ممتـاز خشـبة) فى سـباتٍ عميـق غـير مـدرك بالكيـان الجديـد الّـذى التحـم بكيانـه ليدمـر حياتـه بالكامـل فيمـا بعـد..

***

-١٥-
كمال فودة

لكل منّا أخطائه.. هذا مؤكد..

والخطأ هاهنا كان فى عدم تأيّن السيال الحيوى بالكامل.. ثمة جزء ما ظل مستعصياً على التحول إلى كهرباء.. جزءً روحيّاً غير منظور إلا فى مجال للأشعة تحت الحمراء.. جزء يظل مرتبطاً بالتيار الكهربى حتى لحظة تحوله إلى طاقة حركيّة أو حراريّة أو صوتيّة حسب الجهاز الّذى يُستخدم التيار الكهربى فى تشغيله.. فى هذه اللحظة يتحرر الجزء النفسى من التيار الكهربى.. ينفصل عنه.. يخترق الأسلاك والموصلات.. يسبح فى الهواء ليختلط بأقرب سيال حيوى له..

أدرك فريق العلماء -مذهولين- هذه الظاهرة الغير مسبوقة عندما لاحظوا إختلاف طبيعة السيال الحيوى الّذى يشع من جسد الدكتور (ويليام أوبرايان).. قارنوا الفيلم الّذى تم تصويره له فى مجال الأشعة تحت الحمراء بعد الحالة العصبية الّتى أصابته بفيلمٍ آخر تم التقاطه له وللفريق كله-وفقاً للبروتوكول الّذى وضعه الدكتور (جولدمان)- عند بدء التجارب.. بدا الفارق واضحاً فى حجم وكثافة ولون السيال الحيوى.. إقترح البروفيسور (شيفالييه) إعادة التجارب بالكامل فى مجال الأشعة تحت الحمراء، وبالفعل جلسوا يشاهدون بأعين مذهولة الجزيئات النفسيّة تنفصل عن التيّار الكهربى لتطوف ببطء فى فضاء المختبر المظلم..

***

كانت موافقة وزارة الإستثمار على المشروع هى العقبة الأهم.. غير أنّ المال لم يدع عقبة إلا وأزالها..

حدثت مشادات وصدامات عديدة، وتساءل كثيرون عن مغزى المشروع وطبيعته الّتى استدعت الكتمان الشديد من جانب البرلمان حول جلسة مناقشته.. ظل الموضوع حديث الصحف الحزبيّة والمستقلّة

لفترة طويلة نشطت خلالها أجهزة الميديا الخاصة بنا لترويج الغطاء الدعائى الّذى سبق وتحدثت عنه منذ قليل..

***

جرى العمل لتجاوز الأزمة فى مختبرات (هاليبرتون) على محورين:

١ - تشخيص حالة الدكتور (أوبرايان) والبحث عن علاج محدد لها..

٢ - البحث عن وسيلة لمنع خروج الطاقة النفسيّة من الأجهزة..

بالنسبة للدكتور (أوبرايان)، توصل العلماء إلى أنّ التلاحم الّذى تم بين سياله الحيوى، والطاقة النفسيّة المنفصلة عن التيار الكهربى (والّتى هى فى الأصل جزء من السيال الحيوى الّذى تم انتزاعه من أحد عينات الإختبار البشريّة).. هذا التلاحم هو السبب فى حالة الهياج الّتى أصابته والرؤى الّتى يراها.. تلك الرؤى الّتى هى عبارة عن ذكريات مطبوعة على الطاقة النفسيّة الّتى غزت كيانه..

هذا عن التشخيص.. فماذا عن العلاج..؟..

تم تعريض الرجل لبرنامج دقيق من الصدمات الكهربيّة.. أدت هذه الصدمات إلى انفصال الجزيئات النفسيّة الدخيلة عن سياله الحيوى.. رآها العلماء تغادر فى مجال الأشعة تحت الحمراء، ثم لم تلبث أن تم اصطيادها وتخزينها فى إسطوانة خاصة معدة لهذا الغرض ثم تم تعريضها لحرارة عالية أدت إلى تبديدها تماماً.. بعدها عاد السيال الحيوى للدكتور (ويليام أوبرايان) طبيعيّاً كما كان.. صحيح أن حالته النفسيّة تدهورت أكثر بعد ذلك، وتم إلحاقة بمصحة نفسيّة خاصة، إلا أن العلماء أرجعوا سبب هذا إلى التجربة النفسيّة القاسية الّتى خاضها طيلة الأيام الماضية..

أما بالنسبة للإجراءات المطلوبة لمنع خروج وتحرر الطاقة النفسية من الأجهزة، فقد قام فريق المهندسين بعمل بعض التعديلات على تصميمات أجهزة تخزين الطاقة بحيث تقوم أقطاب خاصة باستقطاب الطاقة النفسيّة عن طريق شحنات مضادة، وتقوم بتعريضها لحرارة عالية للتخلص منها..

***

إسمعنى جيّداً يا صديقى..

ستعود إلى (مصر) خلال الشهور القليلة القادمة.. ستجد كل شئ جاهزاً بانتظارك.. المزارع.. المحطات.. اللوحات.. فريق كامل من التقنيين والمهندسين..

سيكون عليك تولى عبء إدارة المشروع كله.. لا.. لن يصلح مديراً أمريكيّاً لهذه المهمة.. هناك مثل عربى قديم سمعته من جدى الراحل يقول «أهل (مكة) أدرى بشعابها».. ثقتى بك وبكفاءتك كبيرة، وهو ذات رأى مجلس إدارة (هاليبرتون) فيك بعد الدراسات الّتى أُجريت عنك..

سلطاتك الإداريّة شبه مطلقة.. وسيكون عليك إرسال report يومى مفصل إلينا هاهنا.. الدكتور (فرانسيس بولتون) سيسافر معك إلى (مصر) وسيكون مستشارك الأوّل فيما يتعلّق بالنواحى الفنيّة..

هناك الكثير من البيزنس بانتظارنا عزيزى (محيى الدين).. ليس هذا فقط .. العالم كله والعلاقات بين الدول ستتغيّر.. كل هذا متوقف على نجاح تجربتنا فى (مصر).. لذا فلك أن تراهن على مدى ماننتظره منك..

لكل منّا أخطائه.. هذا مؤكد..

ولكن الخطأ هنا يكلف الكثير والكثير جداً..

فلا تخذلنا صديقى العزيز..

***

-١٦-

د. يوسف محيي الدين

(التسجيل مُلتقط بواسطة كاميرا رقمية.. الصورة مهزوزة غير واضحة المعالم إلى حدٍ ما.. الإضاءة رديئة.. يظهر فى منتصف الكادر رجل أصلع هو (يوسف محيي الدين)، مُقيّد إلى مقعد خشبى..عارى الجسد، وثمة دماء متجلّطة على جانب وجهه، وكدمة زرقاء حول عينه اليسرى)..

***

إستقررت فى (مصر) منذ مايزيد عن الأعوام الثلاثة كى تتسنى لى متابعة أعمال الشركة الجديدة وتثبيت أقدامها، خاصة وأنها ستكون النواة لإنشاء مشروعات مماثلة فى دول عدّة بالمنطقة.. أقطن مع أسرتى زوجتى وطفلىّ فى فيللا بـ (بارادايس هايتس) بينما يقع المقر الإدارى الرئيسى للشركة كما تعلم فى حى (الزمالك) بـ (القاهرة).. الرحلة بالطائرة لا تزيد عن نصف الساعة، أقضيها صباحاً عند الذهاب فى متابعة صحف الصباح (نيويورك تايمز) و(الواشنطن بوست) و(هيرالد تريبيون) على الإنترنت ومعرفة تطوّرات البورصة، أما عند العودة فأكون أشبه بجثة هامدة من فرط إرهاق عمل اليوم بطوله.. أتنقّل بصورة دوريّة بين المقر الرئيسى، والمحطات ولوحات التوزيع المتناثرة فى مناطق الساحل الشمالى وشبه جزيرة (سيناء) وعدد من محافظات الدلتا.. أراجع بنفسى سير عمليات تسمين البطاريّات البشريّة وتوقيتات انتزاع سيالاتها الحيويّة وشحن البطاريّات وتأيينها وتقنيات التصدير.. الإتصالات لا تتوقف بينى وبين العديد من المسئولين.. ألح عليهم كى يرسلوا لى المزيد من البطاريات البشرية لتغطية الطلب الكبير للتصدير، وأتفاوض معهم لإنشاء المزيد من المحطات فى الوجه القبلى.. المشكلة الّتى لم تكن فى الحسبان هى الشراهة الغير متوقعة من المسئولين الّذين أتعامل معهم.. بالرغم من أننا قد رتبنا المعاملات الماديّة منذ البداية، إلا أن مطالبهم راحت تتزايد بصورة مبالغ فيها كادت تهدد ميزانيّة المشروع

وتوقف تقدمه، لولا أنّ بدء تدفق الأرباح بصورة سريعة أنقذ الموقف..
شكوت الموقف لمستر (كمال) ذات مرّة على قناة اتصال مؤَمنة بينما الطائرة تحلّق بِى فوق كثبان شبه جزيرة (سيناء):

- يبدو أنّه أُصيب بالسعار.. إنه يطالب بزيادة نسبته ٥ ٪ دفعة واحدة..
- أعطه ما يريد.. هو مهم جداً لنا، ولا غنى عن خدماته..
- ولكنّه لن يكتفى بهذا.. شهرين أو ثلاثة وسيطالب بالمزيد..
- لن يفعل..
- و كيف تعلم ذلك..؟..
- سأحادث الرجل الكبير بشأنه.. لا تقلق..

***

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

***

لا تجعل حديثى يوهمك أننى إنسان قاس لا قلب له.. أنا كما قلت لك آنفاً مرهف الحس جداً، ولا أطيق منظر الدماء.. هل أخبرتك أننى عضو فى عدد من جمعيّات حقوق الإنسان حول العالم..؟.. هل سمعت عن الحملة الشرسة الّتى تزعمتها ضد الحكومة المصريّة لمطالبتها بالتوقف عن قتل الكلاب الضالة رمياً بالرصاص..؟.. صدقنى.. لست وحشاً كما قد توحى طبيعة عملى.. كل ما فى الأمر أننى أفصل دوماً بين البيزنس وبين أى شئ آخر، وهذا سر نجاحى..

ثم تعال هنا وأجبنى.. هل كان هؤلاء الّذين قد يعتبرهم ضيّقو الأفق ضحايا يعيشون فى الجنّة، وأخرجناهم نحن منها لنقذفهم فى الجحيم..؟.. لا أعتقد أن أحداً يمكنه الإجابة بنعم.. إن حياة هؤلاء هى سلسلة لا تنتهى من البؤس والمعاناة، وخير سبيل لتغييرها هو إنهائها.. هذه الأوضاع نتيجة تراكم سلبيّات على مدى قرون فائتة، وتصويبها يحتاج لتراكم قرون أخرى قادمة.. إذن فلا مشكلة من

الإستفادة بمعاناة موجودة من الأصل فى تحقيق خدمة لا شك فيها للإنسانيّة.. لا أنكر أننى أحياناً أشعر أن ما نقوم به أمر مريع.. راودنى هذا الخاطر ذات مرّة وأنا أرمق الفزع المطلّ من عينىّ أحد البطاريّات الّتى يتم إعدادها للشحن.. رعب هائل حرك مشاعر غريبة بأعماق، ودفعنى لأن أربت على رأسه مشجعاً..

- لا تقلق.. قليل من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

كنت أعنى كل حرف.. ألم بسيط ثم تنتهى معاناتك أيّها البائس.. معاناتك الممتدة بامتداد عمرك كله.. شعور عابر بالشفقة سارعت بوأده.. هذا بيزنس.. بيزنس.. والبيزنس لا مشاعر له..

أرجوك إفهمنى.. أنا مقدر للفهم الخاطئ الّذى قد يكون دفعك لإختطافى ومعاملتى بهذا الشكل الهمجى، وباستطاعتى نسيان كل هذا لو تخليت عن العنف وتحاورنا بشكلٍ متحضر.. فنحن فى النهاية بشر..

***

-١٧-
أمل الشافعى

أفهـم شـعورك وصدمتـك جيـداً دكتـور (حـازم) بعـد الّـذى سـمعت.. أنـا نفسى مـررت بـذات الصدمة عقب مشاهدتى لذلـك الفيلـم البشـع.. شـعرت بأنفـاسى تـتردد بصعوبـة، ثـم لـم أدر إلا وأنـا منكفئة عـلى وجهـى أتقيّـأ مـا فى معـدتى بالكامـل.. لا أعـرف كـم مـرّ عـلىّ مـن الوقـت جالسـة وحـدى فى الكارافـان بموقـع التصويـر -حيـث اسـتقبلت ملـف الفيديـو- أحـدّق فى شاشـة الحاسـوب، أتنفـس بصـوت مسـموع، والعـرق يغمـر جبيـنى وثيـابى..

بـدأ إحساسى بما حـولى يعـاودنى.. ألقيـت نظـرة متقـززة عـلى بركـة القئ الصفـراء الّـتى أحدثتهـا منـذ قليـل، وملأت رائحتهـا الكريهـة أنفـى.. شـعرت بـبوادر الاختنـاق مـن جديـد، فأسرعـت أغـادر الكارافـان..

السـاعة لـم تتجـاوز العـاشرة صباحـاً.. أشـعة الشـمس الدافئـة تغمـر المـكان، وهـواء البحـر المنعـش يملـؤه بهجـة، بينمـا هديـر أمواجـه يمـلأ الآذان.. الحركـة صاخبـة.. العمّـال والفنيّيـون يتحرّكـون كالذبـاب جيئـة وذهابـاً.. المخـرج يـصرخ فى الجميـع بعصبيّـة كعـادة المخرجـين، بينمـا وقـف الباشـمهندس (محمـود مفيـد) - مختـص الديكـور الجديـد- يتناقـش مـع مديـر التصويـر لتنسـيق عمليهمـا..

ألتقـط نفسـاً عميقـاً.. رائحـة البحـر مختلطـة برائحـة الزهـور الطبيعيّـة -الّـتى جلبهـا الباشـمهندس (محمـود) كجـزء مـن الديكـور- تمـلأ صـدرى.. صفحـة البحـر الزرقـاء تعلوهـا السـماء الصافيـة إلا مـن سـحب قليلـة.. طيـور النـورس تحلّـق فى المـكان.. سـبحان اللـه.. مـا أشـد التناقـض بـين الطبيعـة باهـرة الجمـال كمـا خلقهـا الله عـزّ وجـلّ وبـين شـديد القبـح الّـذى يتفـنن الإنسـان فى ممارسـته ضـد الإنسـان..

مـن بعيـد.. فى عـرض البحـر.. تتبـدى جزيـرة (بارادايـس هايتـس) كعـروس فاتنـة كسـول راقـدة بـين الأمـواج الزرقـاء.. الخـضرة تكسـوها والقصـور الفاخـرة تملؤهـا..

مكان واحد فقط فى (مصر) هو الّذى يستفيد بإنتاجنا من الطاقة هو منشأة (بارادايس هايتس).. لذا فقد حرصنا على تزويده بمحطة عالية القدرة تلبى كافة احتياجاته..

هل هذا حقيقى..؟.. هذه الجزيرة رائعة الجمال بكل ما عليها من قصور وفيللات وملاهى ومولات وأسواق و.. و.. كل هذا يعيش على أنين البسطاء والفقراء..؟!!.. هل الصورة حقاً بهذا الوضوح..؟!!..

شعرت أن ساقىّ لم تعودا قادرتين على احتمالى.. جلست على سلم الكارافان الخشبى.. (ميخائيل) مساعدى الشاب يهرع نحوى.. يحدّق فى وجهى بقلق..

- ماذا هناك يا ريّسة..؟..

أشحت بوجهى مجيبة:

- لا شئ..

قال والقلق يطل من عينيه:

- وجهك أصفر كالليمون، وعيناك حمراويّتين.. هل تشعرين بتوعّك..؟..

- قلت لك لم يحدث شئ.. أنا مرهقة قليلاً فحسب بسبب قلة النوم.. إذهب أنت وتابع عملك..

- هل تحبين أن أوصلك إلى البيت..؟..

- لا يا صديقى.. قليل من الراحة أمام البحر وسأكون بخير إن شاء الله..

ظل ينظر إلىّ متوتراً، فاغتصبت ابتسامة وأنا أقول له:

- إذهب يا فتى ولا تكن لحوحاً كالنساء..

إبتسم قائلاً كلمته المعتادة:

- أمرك يا ريّسة..

إستدار لينصرف، فأسرعت أقول:

- شكراً (ميخائيل)..

رفع سبابته لأعلى قائلاً بمرح:

- الشكر لله..

راقبتـه وهـو يعـود إلى عملـه بخطـوات نشـطة برغـم جسـده المائـل إلى السـمنة، ثـم عـدت إلى الكارافـان.. جلسـت إلى الـلاب تـوب، وفتحـت الماسـنجر لأجـد (أحمـد) on – line كمـا توقعـت.. قمـت بتشـغيل الكامـيرا، ورأيـت صورتـه عـلى الشاشـة أمامـى وعـلى شـفتيه ابتسـامة ظافـرة..

- كنت أنتظرِك..

- أين أنتِ..؟..

- (الإسكندريّة).. مكتبى القديم..

- هل هو معك الآن..؟..

- معى..

- كيف وصلت له..؟..

ضحك قائلاً:

- بمنتهى البساطة..

- كيف..؟..

- ظللـت أراقـب تحركاتـه شـهراً كامـلاً.. تأكـدت مـن أنّـه يمـارس رياضتـه الصباحيّـة يوميّـاً بمفـرده حـول منزلـه بــ (الهايتـس).. وصباح اليـوم تربصت بـه برفقـة بعـض الرجـال و..

ملامحـه هـذه المـرّة مختلفـة عـن أى وقـت آخـر.. عـارى الجـذع رغـم بـرودة الجـو.. وجهـه أكـثر نحـولاً.. لحيتـه طليقـة كثيفـة، وشـعره الأسـود طويـل منسـدل عـلى كتفيـه.. أمـا عينـاه، فكانتـا تلمعـان بشـكل مخيـف..

- منذ متى..؟..

نظر إلى ساعته وأجاب:

- ثلاثة ساعات تقريباً..

- (بحدة): هل تدرك فداحة ما فعلت..؟..

بدت الدهشة على وجهه وهو يردد:

- ما فعلت أنا..؟!!..

- تختطف الرجل وتعذبه لإستنطاقه.. هل نحن فى غابة..؟..

- (بغضـب): أمازلـت تتسـاءلين بعـد كل مـا سـمعت ..؟!!.. غابـة..!!.. نعم يـا مـدام.. نحـن فى غابـة.. ولعـل الغابـة مكانـاً أقـل بشـاعة، فحيواناتهـا لا تقتـل بعضهـا البعـض إلا عنـد الجـوع، لا لـتزداد ثـراءً..

كدت أعترض، ولكنّه صاح عبر المايك:

- ماذا أصابك يا (أمل)..؟.. لم «تتصدّرين ف الهايفة» على غير عهدى بك..؟.. ألم تستوعبى ما سمعت، أم أنّك لم تستمعى من الأصل..؟..

- (بخفوت): سمعت..

- (ساخراً): ولا ترين بأساً فيما سمعت إلا اختطاف هذا الحيوان واستنطاقه..؟!!..

- (بتوتر): معالجة الخطأ لا تكون بإرتكاب خطأ آخر..

- هذا ليس مجرّد خطأ..

- أياً كان الـ.

- (مقاطعاً): إسمعينى جيّداً.. لست هنا بصدد التعامل مع أخطاءٍ أو كوارث.. مهمتى انتهت بتوصيل هذه الإعترافات إليكِ.. والباق عليكِ أنت..

بح صوتى وأنا أسأله:

- ماذا تعنى..؟..

- ملف الفيديو الّذى بحوزتك يحمل تفاصيل أخطر وأقذر جريمة تحالفت فيها القوى الإمبرياليّة مع الأنظمة العميلة لا لمص دم شعب كامل.. ولكن لإمتصاص حياته ذاتها.. دورك يا (أمل) هو فضح هذه الجريمة أمام المصريين والعالم كله.. لابد أن يعرف المصريون بما يُدبَر لهم فى الخفاء..

سألته بقلق:

- وماذا عنك..؟..

إبتسم بشحوب فظهرت سنته الأماميّة المهشمة..

- قلت لك أنّ مهمتى انتهت بتوصيل هذا الفيديو إليك..

- أقصد ماذا ستفعل..؟..

فوجئت به يرفع زجاجة سوداء صغيرة إلى فمه ويرتشف منها فهتفت منزعجة:

- هل تشرب..؟..

خفض الزجاجة وتجاهل تساؤلى قائلاً:

- لم يعد لدىّ ما أقدمه فى هذه القضيّة سوى شئ واحد أخير..

- وماهو..؟..
- الإنتقام..
- (بدهشة): ممن..؟..
- (يبتسم بغموض): سأترك هذا لإحساسِك..
نظرت إلى صورته على الشاشة بينما هو يتابع:
- أليست هناك قاعدة دينيّة تقول العين بالعين والسن بالسن..؟..
هـتفت:
- ولكن
- لست أنت من يقوم بتطبيق هذه القاعدة..
- من إذن..؟..
- وليّ الأمر.. الحاكم..
لـم يعلـق.. فقـط أطلـق ضحكـة سـاخرة سَـعِل بعدهـا بشـدة قبـل أن يبصـق عـلى الأرض ثـم يرتشـف رشـفة أخـرى مـن الزجاجـة السـوداء الصغـيرة..
أسرعت أقول:
- إنتظرني قليلاً.. سأحضر على الفور..
ألقى نظرة على ساعة يده ثم قال:
- لا وقت يا عزيزتي.. لابد أنهم وصلوا..
- (بقلق): من هم..؟..
لـم يجـب.. نهـض مـن أمـام الكامـيرا.. غـاب لمـا يقـرب مـن نصـف الدقيقـة، ثـم عـاد قائـلاً بلهجـة جـادة:
- لقـد وصلـوا كمـا توقعـت.. رأيتهـم عـبر النافـذة المطلّـة عـلى المنـور.. عددهـم كبـير..
خفق قلبي بقوّة وأنا أهتف:
- من هم..؟..
- لا أعـرف بالضبـط إن كانـوا مـن رجـال الشرطـة أم رجـال هـذا الخنزيـر.. يرتـدون ثيابـاً سـوداء ويحملـون الأسـلحة..
- (بدهشة): كيف عرفوا مكانك..؟..
رفع هاتفاً خلويّاً أمام الكاميرا..

- تعقبـوا هاتفـه بالأقمـار الصناعيّـة.. أعتقـد أن طبيعـة المبـانى مـن حولنـا لعبـت دوراً مـا فى تأخـر توصلهـم لموضعنـا..

- لماذا لم تتخلص منه..؟..

أقصد الهاتف الخلوى.. إبتسم بغموض دون أن يرد.. صحت به:

- إهرب إذن..

- سأفعل يا عزيزتى.. بطريقة أو بأخرى سأفعل..

ومال بوجهه نحو الكاميرا..

- هـل تعتقدين أنّ الله يحبنى..؟..

- (بدهشة): ماذا..؟!..

صمـت للحظـات، قبـل أن يقـول شـارداً ببـصره بعيـداً وكأنـه يحـادث نفسـه:

- لقـد عـشت حيـاة مترفـة حقـاً يـا (أمـل).. كل مـا كنـت أطلبـه أجـده.. فعلـت كل شئ يمكـن أن تعتبرينـه معصيـة لله.. أحيانـاً كنـت أتوقـف لأسـائل نفسى عمّـا إذا كان راضيـاً عـنّى رغـم كل مـا أفعـل، وكنـت أجيـب عـلى نفـسى بأنـى لا أؤذى أحـداً.. أفعـل كل مـا أريـد دون أن يُضـار أحـد مما أفعـل.. أليـس هـذا مـا يريـده الله مـن أىّ منّـا.. أن نعيـش حياتنـا دون أن نـؤذى غيرنـا..؟..

نظرت إليه مندهشة.. ماذا دهاه..؟..

- (أحمد).. لا تُضع الوقت.. إهرب قبل أن يصلوا إليك..

تابع وكأنه لم يسمعنى:

- قديمـاً سـمعت البروفيسـور (هيجـز) يـقول أنّ قناعـات المعمـارى الاجتماعيّـة والسياسـيّة لا تنفصـل أبـداً عـن حرفتـه.. و بدونهـا لا يسـتحق المعمـارى أن يكـون كذلـك فعـلاً مهمـا بلغـت حرفيّتـه وبراعتـه.. وقياسـاً يمكـن القـول بـأنّ قناعـات الإنسـان سـواء أكانـت عقائديّـة أو اجتماعيّـة أو سياسـيّة لا تنفصـل عـن إنسـانيّته، وبدونهـا لا يسـتحق الإنسـان هــذه الصفـة..

لمعت الخاطرة فى ذهنى فى لحظة واحدة..

- قناعـتى هــى الـشر ضرورى للتغلـب عـلى الـشر.. لربمـا كان القتـل والتعذيـب شروراً.. ولكـن مـع شـخصيات مثـل (كمـال فـودة) و (يوسـف

محيى الدين) فإنهما ليسا شروراً.. بل هما العدل.. العدل الّذى أمر به الرب فى جميع الأديان والشرائع..

إرتعد جسدى.. هل حقاً ينوى..؟..

هتفت والدموع تحتشد فى عينىّ:

- ولكنّك هكذا لن تفعل شيئاً.. ستخسر حياتك دون جدوى.. ليس الأمر قاصراً على (يوسف محيى الدين) وحده.. إنها منظومة متكاملة.. إذا ذهب واحد، فسيحل آخر محله بمنتهى السهولة..

- لم يعد فى الحياة بعد الّذى عرفت ما يغرينى بالبقاء فيها.. على الأقل سأتخلّص من الكوابيس، ومن أصوات الأنين الّتى لا تفارق أذنىّ..

- ولكن الانتحار كفر بالله..

- الله يعلم أننى موقن بوجوده..

- ولكنّه هو الّذى نهى عن الإنتحار..

- أنا لن أنتحر..

- ما تفكر فيه هو انتحار..

- إفهمينى..

كذا صاح بحدة..

- أنا إنسان ملعون.. أتتنى الفرصة لأداء رسالتى فى الحياة، فتخاذلت مع أول عقبة.. كذا فعلت بلا مداراة.. وما أصابنى هو لعنة الصمت على الظلم والبؤس.. ومالم أقم بدورى، ستظل هذه اللعنة ملتصقة بى، وهو ما أفضل الموت عليه..

- قم بدورك بشكل سلبى..

- هذا قرارى الّذى اتخذت، ولن أتراجع عنه..

وصمت للحظة، ثم قال وقد تغيّرت لهجته ولان صوته:

- أبداً لم نتفق منذ عرفتك وعرفتِنى يا (أمل).. ورغم ذلك لم أحمل لك فى أعماقى إلا مودةً واحتراماً لم أحملهما لأحدٍ من قبل.. لربما صوّر لك فقدانى إتزانى وسوء تصرّفى معك غير ذلك، ولكنّها الحقيقة الوحيدة فى تعاملى معك منذ التقيتك..

إرتفعت فى هذه اللحظة أصوات طرقات عنيفة على باب الشقة.. أجفلت لوهلة، بينما بدا هو وكأنه لم يلحظ شيئاً..

- صديقان..؟..

كـذا تسـاءل رافعـاً حاجبيـه.. إختنقـت الحـروف فى حلقـى فلـم أسـتطع الـرد.. هــزرت رأسى موافقــة، بينمــا خيطــان مــن الدمــوع ينســالان عــلى وجهـى.. إبتسـم بارتيـاح..

- الوداع إذن يا صديقتى العزيزة..

وقبـل أن أتفـوه بحـرف، كان قـد اختفـى مـن أمـام الكامـيرا.. لـم يقطـع الإتصـال.. ظـل مشـهد الحائـط الأبيـض المواجـه للكامـيرا ثابتـاً على الشاشـة أمامـى.. أصـوات طرقـات عنيفـة عـلى البـاب.. خفـق قلـبى بقـوة.. صــوت تهشـيم البـاب نفسـه.. مـن بعيـد أسـمع أغنيّـة غربيّـة مـا..

..Burn mother fucker

..Burn

..Burn

..Burn

صراخ شـنيع يتعــالى.. قهقهـة جنونيـة.. صــوت زجــاج ينكـسر.. طــلقات رصــاص..

أصوات عديدة مختلطة لا أميّز منها شيئاً..

- (أحـــمااااد)..

كـذا صرخـت ولا مجيـب بالطبـع.. أصـوات المزيـد مـن الطلقـات.. المزيـد مـن الـصراخ.. لابـد أنّ معركـة عنيفـة تـدور هنالـك.. الصـورة تهـتز بشـدّة، وقطـرات مـن الدمـاء تتناثـر عـلى عدسـة الكامـيرا.. عـدت أصرخ:

- (أحـــماااااد) ....

صـوت مكتـوم.. ثـم مـلأ دخـان أبيـض الشاشـة أمامـى.. الصـورة تنقلـب رأسـاً عـلى عقـب.. لابـد أن الكامـيرا سـقطت عـلى الأرض، لأنـى أرى جـزء مـن الأرضيّـة الموزايكـو المتسـخة.. و..

- (أحـــماااااااد) ....

صراخ مـدوّ.. اصـوات الطلقـات.. المزيـد مـن أصـوات تهشـيم الزجـاج والأثـاث..

***

احرق ابن السافلة ..
احرق..
احرق..
احرق..

***

-١٨-

أمل الشافعى

لا أذكر أغلب تفاصيل ما حدث بعد ذلك دكتور (حازم).. فقط أذكر إستلقائى على المقعد الخلفى لإحدى السيارات.. سحب قليلة تتتابع بسرعة أمام عينىّ فى السماء الصافية عبر الزجاج الخلفى .. الدموع متحجرة على وجنتىّ.. أسمع صوتىّ (مفيد) و(ميخائيل) إذ يتحدثان فى المقعدين الأماميين.. يحملانى حملاً.. مستشفى (مبارك) التخصصى.. الطريق السريع.. أصوات السيارات المارقة من خلفنا على طريق الساحل الشمالى.. الممرات الطويلة ذات الجدران المطليّة بلونٍ أخضر فاتح.. وجه الطبيب يطل علىّ.. رائحة التعقيم.. يتكلّم..

- صدمة عصبيّة..
- أين تقيم..؟..
- تحتاج إلى الراحة..
- مهدئ..
- ....
- ....
- ....

***

أخطر وأقذر جريمة تحالفت فيها القوى الإمبرياليّة مع الأنظمة العميلة لا لمص دم شعب كامل.. ولكن لإمتصاص حياته ذاتها..

***

أمى تضرب صدرها بكفها المفتوح.. تهتف بلوعة:

- ماذا أصابها..؟..

(ميخائيل) يجيب لاهثاً وهو يساعدنى على الجلوس على الأريكة:

- لا تخافى يا حاجة.. فقط هى بحاجة إلى بعض الراحة..

***

غابة..!!.. نعم يا مدام.. نحن فى غابة.. ولعل الغابة مكاناً أقل

بشاعة، فحيواناتها لا تقتل بعضها البعض إلا عند الجوع، لا لتزداد ثراءً..

***

تضع أمامى صينيّة مرصوصة عليها أطباق الأرز والخضر ووِرك فرخة وسلطانيّة شوربة..

- لقمة واحدة يا (أمّول)..
- (بإرهاق): لا أستطيع يا ماما..
- لابد أن تأكلى شيئاً وإلا سقطت مرةً أخرى.. هل نسيت تعليمات الدكتور..؟..
- (أجذب الغطاء على جسدى): سأفعل بعد أن أستيقظ إن شاء الله..

***

أليست هناك قاعدة دينيّة تقول العين بالعين والسن بالسن..؟..

***

تك.. تك.. تك.. تك..

الثالثة صباحاً.. الغرفة غارقة فى الظلام إلا من ضوء عمود الإنارة فى الشارع والقادم عبر النافذة..

العرق يغمرنى رغم برودة الجو..

أتقلب فى فراشى..

***

قناعتى هى الشر ضرورى للتغلب على الشر..

***

تك.. تك.. تك.. تك..

الرابعة صباحاً..

لا أستطيع أن أغفو ولو لدقيقة واحدة..

أدفع الغطاء عنى.. أمدد ساقىّ.. أحدق فى السقف..

***

على الأقل سأتخلّص من الكوابيس، ومن أصوات الأنين الّتى لا تفارق أذنىّ..

***

تك.. تك.. تك.. تك..
الخامسة صباحاً..
الله أكبر.. الله أكبر..
أردد الأذان بصوتٍ خافت خلف المؤذن..
صوت قدميّ أمي إذ تغادر الحمام بعد أن توضأت.. تدنو.. أراها من موضعي تطل عليّ عبر فرجة باب الغرفة نصف المفتوح..

***

وقياساً يمكن القول بأنّ قناعات الإنسان سواء أكانت عقائديّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة لا تنفصل عن إنسانيّته ، وبدونها لا يستحق الإنسان هذه الصفة..

***

صديقان ..؟..

***

فى بلكونة غرفتى..
ضممت الشال الصوفى على جسدى، ورحت أدخن وأنا أتفقد صحف الصباح الّتى جلبها البواب بحثاً عن أيّة تغطيّة صحفيّة للمعركة الّتى جرت تحت سمعى وبصرى أمس..
لم أجد أثراً لأى شئ فى الصحف القوميّة الثلاثة الكبرى.. أما الصحف الخاصة، فتحدثت عن معركة بالأسلحة الرشاشة نشبت فى إحدى البنايات بـ (الإسكندريّة) لم تخلف قتلى أو جرحى، وإن أشار شهود عيان إلى أنّ المعتدين (لم يتعرّفهم أحد) حملوا بعض الجثث أثناء انسحابهم الّذى جرى قبل وصول قوّات الشرطة و..
«نسألك يا من هو الله الّذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن»..
دخلت غرفتى، ونظرت إلى شاشة الموبايل .. رقم private..
«العزيز الجبار المتكبر الـ ..»
ضغطت زر OK ..
وسمعت الصوت الرزين..

-١٩-
كمال فودة

أرجو ألا تضايقك لغتى العربيّة المتعثرة مسز (أمل).. أعلم أنّك تجيدين الإنجليزيّة، ولكنى أفضل أن نتحدث العربيّة على سبيل التدريب لى..

دعينى أدخل فى الموضوع مباشرةً بلا مقدمات.. هذا أسلوبى.. أنت تملكين شيئاً ما يخصنى.. الفيديو الّذى صوره صديقك الأحمق وأرسله لك صباح الأمس.. لا داعى لأى إنكار.. لقد تأكد رجالى من أنّه فعل من خلال الـ lap top الخاص به.. عثروا على عنوان الـ E- mail الخاص بك، وعن طريقه جمعوا كل المعلومات بشأنِك، وأرسلوا لى هنا فى (نيويورك) file كامل يحمل كل تفاصيل حياتك..

ما وصلنى عنك مسز (أمل) أنّك إعلاميّة ذكيّة طموحة ومثقفة.. وأعتقد أنّ طبيعة عملك تتيح لك أن ترى العالم من حولك بنظرة بانوراميّة شاملة.. القوة العظمى الأولى فى العالم - الـ states - تسيطر عليها تكتلات إقتصاديّة بالغة القوة والضخامة والتعقيد.. والمصالح المتبادلة بين هذه التكتلات تفرز سياسات وقرارات تؤثر على المواطن البسيط فى أماكن أخرى بعيدة فمثلاً مصلحة مجموع شركات السلاح والبترول والمقاولات الأمريكيّة فى الحصول على business فى الخليج نتج عنها فقدان المواطن العراق -البعيد بآلاف الأميال عن الـ states- لأمنه وأحبائه وحياته ذاتها.. هذا مثال من كثير.. وفى السنوات الأخيرة إزدادت هذه التكتلات قوةً ونفوذاً، وصارت مثل الإخطبوط لها أذرع فى كل مكان فى العالم..

(هاليبرتون) واحدة من أقوى هذه التكتلات.. تضم إلى صفوفها عشرات المؤسسات والشركات ذات الأسماء المرموقة فى جميع المجالات.. لا داعى لأن أذكر لكِ بعضها لأنّك بالتأكيد تسمعين عنها.. رؤوس الأموال المساهمة فى (هاليبرتون) كبيرة حقاً، ويمكن القول بلا مبالغة أنّها هى الّتى تسيطر على مقاليد الأمور فى الـ states.. ولا يمكن أن

يحتـل الــ white houes سـاكنٍ إلا بدعـمٍ منهـا، وبالتـالى لا نبعـد كثـيراً عـن الحقيقـة لـو قلنـا أنّهـا فعليّـاً تحكـم العالـم..

شــركتنا (Egy-Nergy) مـن أهـم المشروعـات العملاقـة الّـتى تخضـع لــ (هاليبرتـون)، والأمـوال الّـتى صُرفـت عليهـا تكفـى لسـداد الديـون الخارجيّـة والداخليّـة لدولـة مثـل (مـصر)، والسـبب بالطبـع أنّ العائـد المنتظـر مـن وراءهـا يسـاوى أضعـاف أضعـاف المصروفـات.. لـذا فلـك أن تراهـنى عـلى مـدى اسـتعداد (هاليبرتـون) -الّـتى تحكـم العالـم كمـا سـبق وشرحـت- لعمـل أى شئ لحمايـة إسـتثماراتها..

كـم تسـاوى قـدرة فـرد واحـد أمـام كيـان قـارّى كــ (هاليبرتـون)..؟.. الإجابـة: غـير ذات معـنى، كحاصـل قسـمة أى رقـم عـلى الصفـر..

أنـت سـيّدة ذكيّـة وطموحـة مـسز (أمـل)، وتعرفـين بالتأكيـد مـتى وكيـف تنضمّـين إلى الجانـب الرابـح.. وأنـا أحـترم الأذكيـاء وأصحـاب الطمـوح دومـاً.. لقـد توصـل رجـالى إلى الــ password الخاصـة بالــ E-mail الخـاص بـك.. تسـللوا إليـه، وقامـوا بمحـو الفيديـو مـن عليـه تمامـاً.. أى أنـه لـم يعـد هنـاك أى دليـل مـادى يمكـن أن يشـير إلى نشـاط شركتنـا الحقيقـى مـن قريـبٍ أو بعيـد.. وبالتـالى لـم يعـد هنـاك وجـود لـكل التفاصيـل الّـتى سـمعتيها أمـس إلا فى ذهنـك فقـط..

أصارحـك القـول أنّـه مـن الممكـن -وبمنتهـى البسـاطة- أن آمـر بالتخلـص منـك.. قـد تكونـين سـمعتى عـنّى مـن قبـل، ولكنّـك لا تسـتطيعين تخيّـل مـدى مـا أسـتطيع القيـام بـه.. أنـا -سـيدتى- ملـك (مـصر) الغـير متـوج.. نفـوذى ونفـوذ والـدى متغلغـلان فى كل شـبر مـن بلـدك.. بإشـارة مـن إصبعـى ينهـار الإقتصـاد المـصرى، وبأخـرى يعـود أفضـل ممـا كان.. أملـك الأراضى والـشركات والمشـاريع والخدمـات، وقبـل ذلـك أملـك البـشر.. الكـراسى..

لـذا فعندمـا أقـول لـكِ أنّ بإمـكانى التخلـص منـكِ، فثقـى أنـى لا أمـزح أو أهـدد أو أتوعـد.. أنـا فقـط أقـرر حقائـق..

غـير أنـى سـبق وأخبرتـك أنـى معجـب بـذكاءك وطموحـك، وأرى أنّ تعاونـك معنـا سـيؤدى بالتأكيـد لنتائـج أفضـل.. so.. إليـكِ عـرضى..

أنـت إعلاميّـة مـسز (أمـل)، ولـن يبتعـد عملـك معنـا عـن مجـال تخصصـك.. سـتتولّين مسـئوليّة مستشـارة الدعايـة والإعـلان فى (Egy-Nergy).. سـأترك لك

تحديـد الــsallary الّـذى ترينـه مناسـباً لـك.. أى رقـم تطلبينـه سـتحصلين عليـه.. لا داعـى لأن أحـدثك عـن مميزات الإنضمـام إلى كيـان قـارّى مثـل شركتنـا.. إنّـك -وبـدون مبالغـة- سـتغادرين العالـم القديـم بمـا يكتـظ بـه مـن تخلـف وتأخـر وجمـود وسرقـة، وسـتنضمّين إلى النظـام العالمـى الجديـد، الّـذى تمثـل شركتنـا دعامـة رئيسـيّة بـه (لا تنـسى أنّهـا تتحكـم فى أهـم عنـاصره: الطاقـة).. مقابـل إنضمامـك..؟.. بسـيط جـداً.. سـتوقعين عـلى عـدد مـن الوثائـق والأوراق الّـتى تضمـن لى ولائِـك المطلـق..

العـرض بسـيط و محـدد.. (عـرض لا يمكـن رفضـه) بلغـة (المافيـا).. لأن قبولـه يعـنى أن تربحـى كل شئ، ورفضـه ليـس فقـط أن تخـسرى حياتـك (فهـى لا تمثـل شـيئاً).. بـل سـتتحوّلِين إلى ناتـج قسـمة المجمـوع عـلى الصفـر.. لا معـنى لهـا..

أمامِـك مـسز (أمـل) الفرصـة للقفـز مـن خنـدق العنـاصر غـير ذات المعـنى فى معادلـة العالـم الجديـد، إلى وضـع آخـر.. حقيقـى ومجسـد.. ليـس مجـرد طنطنـة وجعجعـة بـلا طحـين..

Pleace.. كـونى -وهـذا لمصلحتِـك- موضوعيّـة وتحـررى مـن أيـّة شـعارات باليـة وحماقـات عاطفيّـة..

هلا أبلغتنى بقرارك..؟..

***

-٢٠-
أمل الشافعى

إلتقطت نفساً عميقاً..

- تريد قراراً الآن يا مستر (كمال)..؟..

- sure..

مرّت لحظات من الصمت إلا من أزيز إستاتيكى مشحون على الأثير..

كـم تسـاوى قـدرة فـرد واحـد أمـام كيـان قـارّى كـ (هاليبرتـون)..؟.. الإجابـة: غـير ذات معـنى، كحاصـل قسـمة أى رقـم عـلى الصفـر..

لقـد توصـل رجـالى إلى الـ password الخاصـة بالـ E-mail الخـاص بـك.. تسـللوا إليـه، وقامـوا بمحـو الفيديـو مـن عليـه تمامـاً..

أنـا -سـيدتى- ملـك (مـصر) الغـير متـوج.. نفـوذى ونفـوذ والـدى متغلغلان فى كل شـبر مـن بلـدك..

لـذا فعندمـا أقـول لـكِ أنّ بإمـكانى التخلـص منـكِ، فثقـى أنـى لا أمـزح أو أهـدد أو أتوعـد..

لأن قبولـه يعـنى أن تربحـى كل شئ، ورفضـه ليـس فقـط أن تخـسرى حياتـك (فهـى لا تمثـل شـيئاً).. بـل سـتتحوّلين إلى ناتـج قسـمة المجمـوع عـلى الصفـر.. لا معـنى لهـا..

Pleace.. كـونى -وهـذا لمصلحتِـك- موضوعيّـة وتحـررى مـن أيـّة شـعارات باليـة وحماقـات عاطفيّـة..

....

....

تمتمت بصوت مبحوح:

- تحت أمرك ..

....

....

....

صوت طرقات أمى على باب حجرتى الموصد.. فتحت الباب وعدت إلى التسريحة.. قالت لى لائمة:

- تغلقين الباب على نفسك ساعة كاملة يا (أمــ..)..

بترت عبارتها و هى تنظر لى بدهشة قائلة :

- لماذا ترتدين ثياب الخروج..؟..

- علىّ أن أغادر الآن يا أمى..

- (مذهولة): بحالتِك هذه..؟!! ..

قلت بينما أعقص شعرى إستعداداً لتغطيته بالطرحة:

- لقد صرت على مايرام و الحمد لله ..

لثوانٍ حدّقت فى بعينين متسعتين، قبل أن تندفع لتقبض على ذراعى قائلة بغضب:

- أنت مجنونة..

نزعت ذراعى برفق من قبضتها وقلت محاولة الإبتسام:

- لن أجادلك كثيراً فى هذا..

تشبثت بذراعى بقوة وهى تقول بشراسة:

- لست أمزح.. ولن أدِعك تذهبين..

نظرت إليها مندهشة.. أحقاً ما أرى..؟.. هل هذه دموع..؟.. هل عرفت شيئاً عن الموضوع..؟.. أم تراه قلبها الطيب شعر به..؟..

ضممتها إلى صدرى وقلت:

- سامحينى يا ماما.. هذه المرّة لابد لى من الذهاب..

....

....

....

- (بصوتٍ مبحوح) :تحت أمرك..
بان الظفر واضحاً فى نبرات صوته وهو يقول:
- That’s my girl.. كنت واثقاً من أنّك ستتخذين القرار السليم..
- ....
- كم يلزمك من الوقت لإرتداء ثيابك..؟..
- (بعد لحظة من الصمت): عشرون دقيقة..
- fine.. أبدلى ثيابك، وستجدين (لاندروفر) سوداء تحمل رقماً مفرداً بانتظارك أمام مدخل بيتك.. سيكون المستر (فريد شهاب الدين) المستشار القانونى لـ (Egy – Nergy) بانتظارك داخلها.. سيكون عليكِ الذهاب معه ولا تنسى اللاب توب..
- إلى أين سنذهب..؟..
- ستعلمين فى الوقت المناسب..
....
....
....
رفعت وجهها المبلل بالدموع وهتفت:
- لماذا..؟..
نظرت إلى عينيها الغائمتين المحاطتين بإطارٍ من تجاعيد ستين عاماً.. ولوهلة شعرت بالضعف..
بالله عليك يا أمى.. لقد اتخذت القرار بصعوبة بالغة.. لست خارقة القوّة أو فائقة الشجاعة.. الحصار محكم علىّ حقاً.. والقرار لم يكن سهلاً بالمرّة.. أرجوك لا تجعلى الأمور أكثر صعوبة..
كانت تحدق بى منتظرة جوابى على سؤالها.. أشحت بوجهى قائلة:
- هذا دورى..
لم تكن تعرف أيّة تفاصيل.. فقط أدرك قلبها أننى مقبلة على التورط فى مشكلة خطيرة أو السقوط فى هاوية عميقة..
....
....
....

الجزء الرابع

الإختيار

هـــــمفففففف (زفرة)..

طــبعاً لسـت بحاجــة إلى أن أصـف لـك شـعورى عقـب سـماع تلـك التفاصيـل الرهيبـة الّـتى روتهـا لى.. هـو بالتأكيـد ذات شـعورك الآن.. مزيـج مـن الذهـول والصدمـة والاستبشـاع والشـعور بـأنّ العالـم الّـذى تعرفـه صـار مختلفـاً عقـب هـذه المحادثـة عمّـا كان قبلهـا.. دعـك مـن الشـعور الطبيعـى الّـذى انتابـنى بـأنّ كل هــذا غـير حقيقـى، أو محـض أكاذيـب ترددهـا تلـك المـرأة..

بعـد إنتهـاء المكالمـة، ولـم أدر كـم ظللـت جالسـاً أحـدق فى الظـلام.. لـم أنتبـه إلا مـع صـوت زوجـتى القـادم مـن عنـد بـاب الغرفـة متعجبـاً:

- (حازم).. ألم تنم..؟..

نظـرت إليهـا وكأنـى أراهـا للمـرّة الأولى.. صـوت أذان الفجـر يعلـو قادمـاً مـن المسـجد القريـب..

- لماذا غادرت فراشك..؟..

لم أرد..

- ماذا حدث يا (حازم)..؟.. لماذا لا ترد..؟..

إلتقطت نفساً عميقاً وكأننى أستجمع مقدرتى على الكلام..

- لا شئ يا عزيزتى..

إقتربت منّى ووضعت أصابعها على كتفى متسائلة بقلق:

- لماذا هبطت إلى غرفة المكتب..؟..

هــل أخبرهــا بمــا عرفــت..؟.. هــل ســتتحمل ســماع هــذه التفاصيــل المرعبــة..؟.. عهـدى بهــا أنهــا قويّــة مؤمنــة، ولكنّهــا فى النهايــة أنــثى..

- يدك باردة كالثلج..

بالطبـع.. جسـدى كلـه سـايب وكأنـه الجيلـلى.. يـا إلهـى.. أحقـاً مـا سـمعت منذ قليـل..؟..

قلت بلهجة حاولت أن تكون هادئة:

- لا تقلقـى يـا دكتـورة.. فقـط تذكـرت بـعض الأعمـال الّـتى يتوجـب علىّ أدائهـا، فهبطـت إلى المكتـب للإنتهـاء منهـا..

نظرت إلىّ بتشكك وتساءلت:

- أى أعمال تلك الّتى لا تستطيع الإنتظار حتى الصباح..؟..

- (كاذبـاً): مـشروع طـرح جراج الجامعـة للبيـع الّـذى سـتتم مناقشـته غـداً إن شـاء الله فى مجلـس الإدارة.. كان لا بـد لى مـن مراجعتـه..

ظلتّـت للحظـات ترمقـنى فى صمـت محاولـة قـراءة مـا يعتمـل بداخـلى.. الظـلال تكسـو وجههـا، فى حـين يبـدو وجهـى مكشـوفاً أمـام عينيهـا فى ضـوء الأباجـورة الصغـيرة المجـاورة.. الضـوء..

حانـت مـنّى نظـرة جانبيـة بطـرف عيـنى إلى الأباجـورة.. إلى شـعلة الضـوء المنبعثـة منهـا.. الضـوء..

الضـــــــــوء...

مـكان واحـد فقـط فى (مـصر) هـو الّـذى يسـتفيد بإنتاجنـا مـن الطاقـة هـو منشـأة (بارادايـس هايتـس)..

الضـــوء ..

الضــــــــــــوء .....

هل هذا حقيقى..؟..

مادامـوا مذبوحـين لا محالـة، فـلا مانـع مـن يُذبحـوا فى آلاتنـا كى نحصـل نحـن عـلى سـيالهم الحيـوى بـدلاً مـن أن يضيـع سـدى.. عـلى الأقـل سـيجعل هــذا لهـم قيمـة مـا بشـكل أو بآخـر..

الضـــوء..

الضــــــــــــوء.....

احرق ابن السافلة ..

الضـــوء..
الضـــــــــــــوء.....

لا شئ بيدى سوى الأنين.. الأنين..
والمزيد من الأنين..

الضـــوء ..
الضــــــــــــوء .....
الضـــــــــــــــــوء ......
الضــــــــــــــــــــــــــ......
- (أضغط زر إغلاق الأباجورة ناهضاً بعصبيّة): صلاة الفجر وجبت..

***

لماذا لم أخبرها..؟..

قلـت لـك لأنـى أخـشى مـن وقـع هـذا الخـبر عليهـا.. لـن يكـون هيّنـاً بالتأكيـد.. أنـا نفسى -الرجـل- ظـل جسـدى يرتعـد طيلـة ذلـك اليـوم، فمـا بالـك بهـا..؟..

(لحظات من الصمت)..

....

....

....

....

لأكونـن صريحـاً معـك.. ليـس هـذا هـو السـبب الوحيـد.. السـبب الآخـر هـو أنـى أردت أن أنفـرد بنفـسى لأفكـر فيمـا يمكـن عملـه بـدون أى تأثـير خارجـى.. كنـت أعلـم مـا سـتقوله (نشـوى) لى عندمـا أقـص عليهـا مـا عرفـت.. سـتلح عـلىّ كى أنـسى هـذا الموضـوع تمامـاً وأبتعـد عنـه كليّـةً.. سـتتكلم كثـيراً عـن البـاب الّـذى يـأتى منـه الريـح.. و«إبعـد عـن الـشر وغنيلـه» وغيرهـا مـن الأمثـال والنصائـح كى تصرفـنى عـن اتخـاذ أى رد فعـل يمكـن أن يثـير أيـة متاعـب.. هـى طبعـاً تخـاف عـلىّ وعـلى المكانـة الّـتى حققتهـا، ولكـن الموضـوع هـذه المـرّة -كـذا فكـرت- أكـبر مـن أن نتناسـاه

أو نتغـاضى عنـه.. هنـاك جريمـة بشـعة لـم يسـبق لهـا مثيـل فى التاريـخ، تُرتكـب طيلـة الوقـت فى حـق أعـداد غفـيرة مـن البسـطاء وعاثـرى الحـظ مـن أبنـاء هـذا البلـد.. والسـكوت عنهـا بدافـع الخـوف أو غـيره هـو جريمـة أبشـع عقابهـا عنـد الله عظيـم..

كان هـذا هـو مـا فكـرت فيـه وأنـا جالـس إلى الدكتـور (زكريّـا) أقـص عليـه كل مـا نمـا إلى علمـى بهـذا الشـأن..

***

الجسد متصلب كتمثال ..

الملامـح متحجـرة لا حيـاة فيهـا.. اللهـم إلا مـن اللمعـة المنبعثـة مـن العينـين البنيّتـين مـن خلـف المنظـار الطـبى الأنيـق..

لمرّة أخـيرة تعتـصر السـبابة زنـاد المسـدس، فتخـرج الطلقـة مـن الفوهـة بصـوتٍ مـدو، وفى الفيمتوثانيـة التـالى تعـبر الفجـوة الّـتى خلفتهـا سـابقاتها قبـل ثـوان فى قلـب لوحـة التصويـب..

هنـا فقـط تبـدأ الحيـاة تـدب فى الجسـد السـاكن.. تنخفـض اليـد حاملـة المسـدس.. تتزايـد التجاعيـد عـلى جانـبىّ الشـفتين مـع توالـد الإبتسـامة الظافـرة عليهمـا.. العينـان ترمقـان برضـا لوحـة التصويـب وقـد اخترقـت الطلقـات قلبهـا تمامـاً..

الجـسد كلـه يسـتدير نحـوى.. ينظـر إلىّ مبتسـماً وكأنـه يسـألنى: مـا رأيـك..؟..

أبتسم بدورى إبتسامة عريضة وأنا أقول:

- مـا شـاء الله يـا دكتـور (زكريّـا).. تـزداد حنكـةً وبراعـة بمـرور الوقـت.. score مدهـش حقـاً..

خلـع سـدادتىّ الأذنـين مـن حـول رأسـه وناولهمـا مـع المسـدس لشـابٍ يقـف بالقـرب منـه وأشـار بكفـه لى يدعـونى لنغـادر الــ lane قائـلاً:

- لا يمكـن أن يمـر يـوم واحـد دون أن آتى إلى هنـا لممارسـة الرمايـة قبـل ذهـابى إلى العمـل.. لقـد صـار هـذا أشـبه بالإدمـان..

قلت ونحن نغادر مبنى الرماية فى نادى (Country Club):

- ولكنّـه إدمـان محمـود يـا دكتـور.. لقـد أوصانـا الفـاروق (عمـر) رضى اللـه عنـه أن علمـوا أولادكـم السـباحة والرمايـة وركـوب الخيـل..

ضحك قائلاً:

- فى مثل سننا هذه لا مجال لممارسة السباحة أو ركوب الخيل.. الحمد لله على قدرتنا على الإمساك بالمسدس..

- (بسرعة): متّعك الله بالصحة والعافية دوماً..

سرنا متجاورين وسط ممرّات وحدائق النادى شبه الخالية إلا من بعض كبار السن الّذين يمارسون رياضة المشى، فى تلك الساعة من الصباح.. يتبعنا -عن مسافة مأمونة- رجلان ضخما الجثة يرتديان حلّتين فاخرتين ومنظارين داكنين هما بالطبع -الرجلين- الحارسين الشخصيين للدكتور (زكريّا).. ملاعب الجولف الخضراء تمتد لمساحات شاسعة من حولنا، وأصوات الطيور تملأ الآذان.. نظرت إلى السماء الصافية الخالية من الغيوم، فرأيت الشمس تتبدى بكامل فتنتها هذا الصباح..

يا رب العالمين.. الله الله.. صلى على طه الأمين.. الله الله.. واغفر لى والمؤمـ...

توقف وألقى نظرة على شاشة هاتفه المحمول، ثم ثبت السماعة الدقيقة فى أذنه وضغط زر الإيجاب..

- صباح الخير معالى الوزير.. كيف الأحوال..؟..

إبتعدت تأدباً كى يتكلّم على راحته، غير أنّه أشار لى بألا أفعل..

- نعم .. نعم.. بلغنى خبر هذا الإستجواب.. إطمئن تماماً.. سأكون حاضراً فى هذه الجلسة ولأقلبن المائدة على رأس هذا الأفّاق ومن يحتمى بهم.. لا.. طبعاً طبعاً.. للأغلبيّة الكلمة الأولى والأخيرة كالعادة.. عفواً معالى الوزير.. لا شكر على واجب.. مع السلامة.. مع السلامة..

وأنهى الاتصال مغمغماً وكأنّه يحادث نفسه:

- لن تنصلح هذه البلد وأمثالك خارج السجن..

ثم التفت إلىّ مبتسماً:

- عذراً يا (حازم).. أنت تعلم مشاكل البرلمان..

- كان الله فى عونك يا (د. زكريّا)..

ظللت أسير بجواره صامتاً، فى حين راح هو يخف السير ملتقطاً أنفاساً عميقة، وكأنّه لم يسمع حرفاً مما قصصت عليه منذ دقائق أو سمع ولم يكترث.. فكرت أن أفتح الموضوع مرة أخرى، ولكننى أطبقت شفتىّ

مفضلاً إنتظار ردة فعله هو..

(بتؤدة): هل أنت متأكد مما أخبرتنى به..؟..

أسرعت أجيب:

- متأكد جداً..

توقف عن السير، وجذبنى من ذراعى برفق لأجلس بجانبه على أريكة خشبيّة مغطاة بوسائد صفراء أنيقة على جانب الممشى المبلط بالحجارة.. إلتقط أنفاسه للحظات ثم سألنى:

- هل أخبرت أحداً.. أى أحد.. بهذا الموضوع..؟..

- لا أحد سواك دكتور..

تنهد بارتياح أدهشنى قائلاً:

- عظيم..

نظرت له بدهشة، فالتفت لى وقال:

- تريد نصيحتى..؟..

- بالطبع..

- إنس الموضوع برمته..

- (بدهشة): أنسى الموضوع برمّته..؟!!..

- (بإصرار): وكأنّك لم تسمع عنه شيئاً..

إذن فهو يعرف.. صمتّ مصدوماً للحظات قبل أن أندفع قائلاً:

- ولكن هذه -واسمح لى- يا دكتور (زكريّا) جريمة.. والصمت عنها جريمة أكبر..

لم يردّ.. ظل صامتاً لبرهة شعرت خلالها بقلبى يهوى بين قدمىّ لإندفاعى فى الكلام بهذه الطريقة.. سحب بيضاء قليلة تسبح فى السماء الزرقاء اللامعة.. ليس هذا بالرجل الّذى يمكن التهور معه..

شرد ببصره متأملاً ملاعب المسطحات الخضراء المترامية.. ثم قال بهدوء:

- أنت رجل مثقف يا دكتور (حازم) وتعلم أنّ الخطأ والصواب هى أمور نسبيّة تختلف باختلاف الثقافات والأوضاع الإجتماعيّة والسياسيّة والإقتصاديّة وكذلك باختلاف الزاوية الّتى تقيّم الأمور منها، فما نراه نحن خطأ قد يراه غيرنا صواب والعكس صحيح، وليس معنى هذا أنّ

أحدنا مخطئ والآخر مصيب، ولكن الصحيح أنّ كلانا مصيب من وجهة النظر الّتى يتكلم منها..

بدا لى كلامه عجيباً.. لم أنطق بحرف، فى حين تابع هو:

- أنّ هناك معيار ثابت لتقييم الأمور صار معتمداً فى جميع دول العالم المتقدمة ألا وهو معيار المكسب والخسارة.. معيار أشبه باللغة العالميّة الّتى يفهمها الجميع ويتحدثونها بطلاقة، وهو -هذا المعيار- كفيل بتوحيد الزوايا الّتى ننظر بها إلى الأمور، وبالتالى إزالة أى خلاف قد ينشأ عن اختلافها..

ومدّ أصابعه ليداعب الخصلات البيضاء الخفيفة الّتى تغطّى صلعته مستطرداً:

- لو نظرت إلى مشروع كـ(إيجى- نيرجى) وفقاً لمعيار الربح والخسارة، فستجد أنّه مشروع إيجابى جداً لما يحققه من أرباح بأقل قدر من الخسائر.. هذا مشروع يدرّ على الدولة ملايين الدولارات سنويّاً، ويشجع على قدوم المزيد من الإستثمارات الأجنبيّة إلى (مصر)، وبالتالى يساهم فى رفع معدل النمو، وتوفير فرص العمل لآلاف العاطلين و..

رغماً عنّى قاطعته:

- وماذا عن الضحايا..؟..

عقد حاجبيه متسائلاً:

- أى ضحايا..؟..

- (بانفعال): الأبرياء الّذين تمزقهم الشركة إرباً لإنتزاع طاقة أجسادهم ..

مط شفتيه قائلاً باحتقار:

- من قال أنّ هؤلاء ضحايا أبرياء..؟.. إنّهم حفنة من المجرمين والسفّاحين لا يتورّعون عن ارتكاب أبشع الجرائم والموبقات.. حيوانات مفترسة تركها حرّة طليقة يسبب أشد الضرر للمجتمع الآمن..

قلت محنقاً:

- من الممكن سجنهم أو عقابهم أو حتى إعدامهم، ولكن تعذيبهم بهذا الشكل أمر بشع ومخالف لجميع الأعراف والقوانين، وقبل ذلك لشرع الله عزّ وجل..

طـال صمتـه هـذه المرّة وهـو يحـدق فيمـا أمامـه بنظـرة زجاجيّـة خاويـة مـن التعبير..عـبرت السـماء سـحابة ضخمـة حجبـت قـرص الشـمس وألقـت بظـلٍ كبـير عـلى المـكان..

- أنـتَ بالطبـع تعـرف الإمـام الأعظـم الدكتـور (البهنسـاوى).. مـا رأيـك فيـه..؟..

طافـت بذهـنى عـلى الفـور صـورة الرجـل الفاضـل بملامحـه السـمحة ولحيتـه البيضـاء الوقـورة، وتذكـرت سلسـلة المناصـب الدينيّـة الهامـة الّـتى تولاهـا خـلال سـنوات عديـدة مليئـة بالعطـاء.. تمتمـت:

- عالم جليل.. أحسبه على خير ولا أُزكى على الله أحداً..

إبتسم قائلاً:

- عظيـم جـداً.. للدكتـور (البهنسـاوى) رأى خـاص بهـذا الشـأن الّـذى نتحـدث فيـه أراحـنى كثـيراً.. هـل سـمعت عـن حـد الحرابـة فى الإسـلام..؟..

كنـت أعـرف الحرابـة وحدّهـا بالطبـع، ولكنـنى لـم أفهـم كنـه العلاقـة بينـه وبـين موضوعنـا.. قلـت:

- (بحيرة): أعرفه..

قال بخشوع:

- يقـول المـولى عـز وجـل فى محكـم التنزيـل: (إنَّمَـا جـزآؤُ الّذيـن يُحَاربُـونَ اللهَ وَرَسُـولَهُ ويَسـعَون فى الأرض فسَـاداً أن يُقَتّلـوا أو يُصَلّبـوا أو تُقَطّـعَ أيديهـم وأَرجلُهُـم مّـن خـلاف أو يُنفَـوا مـنَ الأرض ذلـك لهـم خـزى فى الدنيـا ولهُـم فى الأَخَـرة عـذَابُ عظيـمُ).. أى أنّ عقـاب المفسـدين فى الأرض هـو القتـل أو الصلـب أو تقطيـع الأيـدى والأرجـل مـن خـلاف أو النفـى مـن الأرض..

فتحت فمى لأتكلّم، ولكنّه لم يمنحنى الفرصة:

- مـن فضلـك لا تقاطعـنى.. مـا تسـميهم أنـت ضحايـا أبريـاء أفـتى مولانـا (البهنسـاوى) أنهـم ينطبـق عليهـم وصـف المفسـدين فى الأرض، بعـد أن ثبتـت عليهـم تهـم مثـل البلطجـة أو الإرهـاب أو السـعى إلى قلـب نظـام الحكـم أو محاولـة تكديـر السـلم الإجتماعـى أو إطـلاق الشـائعات المغرضة لتدمـير المجتمـع أو الإسـاءة لسـمعة الأمّـة أو.. أو.. إلـخ..

وصمت لحظة ليلتقط أنفاسه ثم تابع:

- ومادامـوا مفسـدين فى الأرض، إذن تنطبـق عليهـم عقوبـة المفسـد فى الأرض المذكـورة فى كتـاب الله العظيـم.. ويـرى الدكتـور (البهنسـاوى) أنّـه إذا أمكـن تحقيـق نفعـاً إضافيّـاً للأمـة مـن وراء إنـزال العقوبـة بالمفسـدين (وهـى عقوبـات الغـرض منهـا تعذيـب المفسـد وتطهـيره بالألـم)، فـلا حـرج مـن ذلـك.. وبمعـنى آخـر.. لا توجـد موانـع شرعيـة لتعذيـب المفسـد فى الأرض، والحصـول عـلى الطاقـة الخارجـة مـن جسـده أثنـاء إنـزال العقـاب الشرعـى بـه، مـادام فى هـذا تحقيـق منفعـة للأمّـة..

ألجمـنى منطقـه.. بقيـت صامتـاً لبرهـة أفكـر فى كلماتـه، فى حـين تشـاغل هـو بمراقبـة سرب مـن طيـور النـورس راح يحلّـق فى دوائـر قريبـة.. كانـت أعمـاق تفـور وتغـلى مـن الحـيرة.. هـل هـذا صحيـح..؟.. الرجـل يتكلّـم بمنطـق صريـح وواضـح، ومسـتند لأدلّـة شرعيّـة لا شـك فيهـا.. فهـل مـن الممكـن أن..

- ومن المسئول عن تصنيف المجرم كمفسد أو غير مفسد..؟..

أجاب على الفور:

- الحاكـم باعتبـاره ولىّ الأمـر.. وأنـت مطالـب بطاعتـه حـتى لـو بـدا لـك أنّـه مخطئ..

- ولكـن ماعلمتـه يـا دكتـور هـو أنّ أغلـب الطاقـة المسـتخرجة تُصـدّر إلى الخـارج..

هز كتفيه قائلاً:

- وما المشكلة طالّما أننا نحصل على ما يخصنا من الأرباح..؟..

- ولكن الطاقة تذهب إلى (إسرائيل)..!!..

- (بهـدوء): (إسرائيـل) أو غيرهـا.. مـا شـأننا نحـن بذلـك..؟.. هـذه تعامـلات وسياسـات تخـص (إيـجى ـ نـيرجى) لا دخـل لنـا بها..

- ولكن..

- (مقاطعـاً): لا تنـس أنّ بيننـا وبـين (إسرائيـل) إتفاقيّـة سـلام.. واللـه سـبحانه و تعـالى يقـول: (وإن جنحـوا للسـلم فاجنـح لهـا و تـوكل عـلى الله).. أى أنهـم شرعـاً وقانونـاً ليسـوا خصومـاً لنـا، فمـا وجـه الإعـتراض عـلى تصديـر الطاقـة إليهـم..؟..

صمتّ تماماً.. وضع يده على كتفى قائلاً بابتسامة هادئة:

- هـدّئ مـن روعـك يـا (حـازم).. أعـرف أنّ الأمـر قـد يبـدو لـك مروّعـاً فى البدايـة.. كان كذلـك لى أيضـاً عندمـا عُـرض علـىّ أول مـرّة، ولكـن لـو فكـرت فيـه كمـا شرحتـه لـك ستجده منطقيّـاً جـداً، وبعيـداً عـن أى شـبهة.. لسـت أنـت المسـلم الوحيـد فى هـذا البلـد.. كلنـا مؤمنـين والحمـد لله، ولا نـرضى أن نبيـع آخرتنـا مهمـا كان الثمـن..

يـا رب العالمـين.. الله الله.. صـلى عـلى طـه الأمـين.. الله الله.. واغفـر لى والمؤمنـين..

كدت أنهض.. أشار لى بالجلوس وهو يثبت المسماع إلى أذنه اليمنى..

- أهـلاً يـا (ممـدوح).. كيـف الحـال يـا صديقـى..؟.. مـا أخبـار الطقـس لديكـم فى (لنـدن).. هههـه.. أعـرف أعـرف.. لقـد قضيـت شـهراً كامـلاً مـن شـتاء العـام المـاضى هنـاك.. (صمـت للحظـات ثـم).. القضيّـة..؟.. نعـم.. نامـت تقريبـاً.. أعتقـد أنّـه سـيكون بوسـعك العـودة فى غضـون الأشـهر القليـلـة القادمـة.. بالتأكيـد.. (يبتسـم).. دعهـم ينبحـون كمـا يشـاءون.. لا.. لا.. فقـط ثـق بكلامـى.. (صمـت للحظـات ثـم).. حسـناً.. فى حفـظ الله.. مـع السـلامة..

أنهى الإتصال.. أطرقت برأسى أرضاً دون أن أتكلم، فقال لى:

- إسمعنى جيّداً..

رفعت رأسى، فاستطرد بلهجة جادة:

- لا تظـن أنـى طـرف فى هـذا المـشروع.. أنـا فقـط لـدىّ الكثـير مـن التفاصيـل بحكـم منصبى الرسـمى والحـزبى.. هـذا المـشروع يخـص أسـماءً هامـة جـداً وخطـيرة جـداً فى البلـد.. ومجـرد تسـاؤلك حولـه -أى المـشروع- يعرضـك لمخاطـر لا قِبـل لـك بهـا.. فابتعـد عنـه تمامـاً..

لم أستطع كبح جماح فضولى.. تجاهلت تحذيره وسألته:

- أسماء مثل من يا دكتور..؟..

قال بصرامة:

- قلـت لـك ابتعـد تمامـاً عـن هـذا الموضـوع وكأنّـك لـم تسـمع بـه.. هـذه منطقـة محظـورة محظورة..

ومال نحوى مستطرداً:

- يـا (حـازم).. أسـهمك مرتفعـة عنـد صانـع القـرار.. واسـلوبك فى قمـع

الإخـوان داخـل الجامعـة لقـى استحسـان العديديـن، وأكـثر من مرّة سـمعت إسـمك يـتردد عنـد الحديـث عـن التعديـل الـوزارى القـادم..

لم أصدق أذنيّ..

- (بلهفة): حقاً يا دكتور..؟..

عادت التجاعيد تتراكم على جانبيّ شفتيه وهو يبتسم قائلاً:

- وهل سبق أن كذبت عليك..؟..

أسرعت أقول:

- عفواً يا دكتور..

- نحـن زمـلاء دراسـة منـذ عـشرات السـنين يـا (حـازم).. معزتـك لـدىّ كبـيرة، وبشـكلٍ أو بآخـر أعتـبرك أحـد رجـالى المخلصـين.. لـذا فنصيحـتى لـك خالصـة.. إبتعـد تمامـاً عـن شركـة (إيـجى ـ نيرجـى).. إمـح الموضـوع بالكامـل مـن ذاكرتـك.. أمامـك مشـوار مـن النجـاح والتقـدم، فـلا تضـع كل هـذا مـن بـين يديـك..

ورَبت على ركبتى وهو يغمز بعينه مبتسماً:

- يا معالى الوزير..

لم أتمالك نفسي من الفرحة.. صافحته بحرارة وأنا أهتف:

- جزاك الله خيراً يا دكتور (زكريّا)..

- (مبتسماً): أنت تستحق كل الخير يا صديقى..

إقـترب منّـا فى هـذه اللحظـة رجـل ضخـم الجثـة غزيـر اللحيـة تزيـن وجهه زبيبـة صـلاة داكنـة، وتغطـى كتفيـه عبـاءة سـوداء فاخـرة.. إعترضـه حارسـا الدكتـور (زكريّـا)، غـير أنّ الأخـير أشـار لهمـا كى يسـمحا لـه بالدنـوّ..

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

- (نهضنا نصافحه): وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

أشار الدكتور (زكريّا) نحوه..

- الحاج (صالح عبد النعيم).. رجل أعمال..

ثم..

- (د. حازم أبو زيد).. رئيس جامعة (الإسكندريّة)..

- (بابتسامة عريضة): تشرفنا..

- (بابتسامة عريضة): فرصة سعيدة..

قال الدكتور (زكريّا) محدثاً الرجل:
- كيف الأحوال يا حاج (صالح)..؟.. وكيف حال الشيخ (بندر)..؟..
- بخير حال يا (زكريّا) بك.. ويرسل لك خالص تحيّاته..

شعرت أنا بأنّ وقتى قد انتهى، فنهضت مستئذناً.. حييت الرجلين بحرارة، ونظر الدكتور (زكريّا) فى عينىّ مباشرة وقال وهو يشد على يدى مصافحاً:
- لا تنس ما قلته لك..
- أمرك يا سيّدى..

أدرت ظهرى لهما منصرفاً وأنا أساءل نفسى متى سمعت باسم الحاج (صالح) هذا من قبل.. تسلل إلى مسامعى صوت دكتور (زكريّا) وهو يخاطب صديقه:
- إعتبر أمر المصنع منتهياً يا حاج.. أبلغ الشيخ (بندر) أنّ موافقة الشركة القابضة صدرت بالفعل.. طبعاً ستكون هناك مناقصة حتى لا يزعجنا أحد و.. و..

ثم غاب صوته -مع ابتعادى- عنّى.. كانت البهجة تملؤنى، ونسيت تماماً موضوع الشركة.. معالى الوزير.. معالى الوزير..

حانت منّى نظرة إلى السماء، فوجدت الغيوم الرماديّة تملؤها، وقد حجبت ضوء الشمس تماماً.. كيف انقلب الطقس -فكرت- بهذه السرعة من النقيض إلى النقيض..؟!!..

سبحان الله..!!..

***

كانت دهشة زوجتى كبيرة عندما وجدتنى أعود إليها فى الفيللا بعد ساعة واحدة من مغادرتى.. سألتنى وهى تتأمّل ابتسامتى:
- هل كان اجتماع مجلس الإدارة سريعاً إلى هذه الدرجة..؟!..
- (بارتياح): لم أغادر الهايتس من الأساس..
- (بدهشة): أين كنت إذن..؟..

أجبتها وأنا أتجه نحو الدرج الصاعد إلى الطابق العلوى حيث أجنحة النوم:
- فى الـ (country club) بصحبة دكتور (زكريّا)..

هتفت من ورائى:

- هل هناك جديد..؟..

أخبرتهـا باختصـار –حـتى أتخلـص مـن فضولها- عـن بشـارة الدكتـور (زكريّا) محـاذراً ذكـر أيّـة تفاصيـل حـول الموضـوع الآخـر.. وبمجـرد أن ولجـت جناح النـوم، إستلقيت عـلى الفـراش شـاعراً بسـعادة عارمـة ممتزجـة براحـة عميقة وكأن عـبءً ثقيـلاً كالجبـل إنـزاح مـن عـلى كاهـلى.. حمـداً لله العـلىّ القدير..

راحـت كلمـات الدكتـور (زكريّـا) تـتردد بـين جنبـات رأسى الّـتى يتسـلل إليهـا النعـاس بسرعـة بعـد سـهر ليلـة البارحـة الطويـل..

......

......

يـرى الدكتـور (البهنسـاوى) أنّـه إذا أمكـن تحقيـق نفعـاً إضافيّـاً للأمّـة مـن وراء إنـزال العقوبـة بالمفسـدين، فـلا حـرج مـن ذلـك..

......

......

وأكـثر مـن مـرّة سـمعت إسـمك يـتردد عنـد الحديـث عـن التعديل الـوزارى القادم..

......

......

أمامك مشوار من النجاح والتقدم، فلا تضع كل هذا من بين يديك..

......

......

يـا معالى الوزير..

***

جالسـاً أمـام عجلـة قيـادة سـيّارتى.. بجـوارى صـف مـن أشـجار الـسرو المنتـشرة بطـول رصيـف الشـارع..

الساعة الآن السابعة والثلث صباحا.. الجو بارد.. بارد..

أرفع الجوان إلى شفتىّ.. أسحب نفساً عميقاً.. أنفث الدخان في تكاثف على زجاج السيّارة الأمامى..

متوتر..؟.. لا.. ما يملؤنى حالياً هو شعور شديد بالإثارة والترقب.. كأننى أتابع فيلماً مثيراً على الـ DVD.. ما يضايقنى فقط هو الإنتظار.. لكم أمقته..

أنظر إلى ساعتى .. السابعة وخمس وعشرون دقيقة..

نفس آخر.. المزيد من الدخان المتكاثف..

هاهوذا..

يرتدى trainning suit أزرق اللون وينتعل حذاءً كاويتشوكيّاً لابد أنه من أفخر الأنواع..

يغادر بوّابة فيلّته.. يبدأ فى تكرار السيناريو اليومى بشكلٍ ممل: الحارس الشخصى يتحرك ليتبعه - يشير له أن يبقى فى مكانه - يبدأ فى الركض وحيداً حول الفيللا لمدة عشر دقائق فى محاولة للتخلّص من بعض الشحوم الّتى تكسو جسده الممتلئ- يعود إلى الفيللا ليغادرها بعد نصف الساعة- وقد اغتسل وأبدل ثيابه - إلى (باراديس آير بورت) لِيستقل طائرته إلى مقر الشركة بـ (القاهرة)..

هذا السيناريو المتكرر حفظته جيّداً بعد شهر من المراقبة اليوميّة.. أنا أعيش هنا فى الهايتس، لذا فمن السهل علىّ التنقل بين أرجائها والتواجد هنا للمراقبة يوميّاً دون أن يساءلنى أحد.. من يجرؤ على ذلك..؟..

تمرّ خمسة دقائق.. من موضعى هذا ألحظ بسهولة الإرهاق البادى عليه بسبب المجهود.. أكاد أسمع صوت لهاثه ودقّات قلبه.. مع ذلك يستمر فى الركض..

نفس آخر.. المزيد من الدخان المتكاثف..

من خلف أشجار السرو -من نقطة لا يرصدها الحارس الخاص- يبرز رجالى الثلاثة.. تتم العمليّة فى أقل من خمسة ثوان.. ضربة قويّة على رأسه.. يسقط مغشيّاً عليه.. أربعة أذرع مفتولة تتلقى جسده المترهل.. ترفعه.. تلقى به كالجوال فى صندوق السيارة المجاورة لهم.. ينغلق

الصنـدوق.. تنطلـق السـيّارة بهـم جميعـاً..
فى اللحظة التالية.. ألقى أنا ما تبقى من الجوان من نافذة سيّارتى..
أحرك ذراع السرعات.. أضغط دوّاسة الوقود..

***

ألقيت نظرة على الشيك الموضوع أمامى على المكتب.. تساءلت:
- ماهذا..؟..
أجاب الأستاذ (يوسف) –مدير الشئون الماليّة– بابتسامة واسعة:
- نصيب سيادتك..
نظرت له دون أن أتكلم، فأسرع يستطرد موضحاً:
- نصيـب مكتـب سـيادتك مـن مكافـأة التصحيـح.. تصحيـح امتحانـات التـيرم..
كنـت أعـرف هـذه الأمـور بالطبـع بحكـم السـنوات الماضيـة الّـتى قضيتهـا كأسـتاذ فى الجامعـة، غـير أنّ معرفـتى بهـا شئ، وموقفـى منهـا شئ آخـر..
- أضِـف هـذه الأمـوال إلى حسـاب مكافـآت المصححـين، وقـدم لى كشـف كامـل بهـا..
بدا عليه الذهول.. ردد بغباء وكأنّه يستوضح الأمر:
- مكافآت المصححين..!!..
قلت بصرامة:
- أنت سمعتنى جيّداً..
أسرع يقول:
- ولكـن يـا دكتـور.. أعـنى أنّ الدكتـور (ماجـد رسـلان) كان يحصـل عـلى حقـه مـن المكافـأة.. ليـس هـو فقـط.. كل مـن سـبقوه مـن رؤسـاء الجامعـة كانـوا يفعلـون.. هـذا تقليـد معـروف و..
- (مقاطعـاً): لا شـأن لى بأيّـة تقاليـد.. هـذه مكافـآت مرصـودة للمشـاركين فى تصحيـح الإمتحانـات مقابـل جهودهـم.. وأنـا لـم أشـارك فى عمليّـة التصحيـح، لـذا فـلا حـق لى فيهـا.. مفهـوم..؟..
- ولكن يا دكــ.
قاطعته مرة أخرى:
- (بلهجة حادة): (يوسف).. كلامى يُنفِذ من دون مناقشة..

إحتقن وجهه وهو يقول:
- أمرك يا دكتور..
إلتقط الشيك من على المكتب، واستدار لينصرف، غير أنّه عاد يلتفت إليّ قائلاً بتردد:
- وماذا عن نسبة الأمن..؟..
- نسبة الأمن تذهب إلى مكتب العقيد (سليمان قنديل) على الفور..

***

اللانش يشق الأمواج بسرعة هائلة.. الأمواج تعلو وتهبط، بينما الهواء المثلج يكاد يعصف بنا..
أتشبثّ بحاجز القارب.. الرذاذ يغرقنا.. الرجال يتبادلون الحديث والنكات البذيئة.. يقهقون ساخرين.. أستمع إليهم.. أبتسم.. أقهقه مثلهم..
ألقى نظرة على الجوال الملقى فى قاع اللانش بالقرب منّى.. شعور جارف بالنشوة يملؤنى.. أمد قدمى لأضعها على الجوال.. لا حركة.. البغل فاقد الوعى حتى الآن..؟!.. لابد أنّها كانت ضربة قويّة حقاً..
الرجال يتضاحكون.. أضحك معهم..
نظرة من وراء كتفى على (بارادايس هايتس) الّتى تبتعد من خلفنا.. حقاً كانت مغادرتها بهذا الصيد الثمين يسيرة.. إجراءات الأمن مشددة فقط على الداخلين إليها.. أما الخارجين منها، فلا أحد يمكنه أن يعترضهم.. دعك من مفعول المال الّذى لا مثيل له..
الغيوم تملأ السماء (كذا هى منذ أيّام).. بأصابعى أزيح خصلات شعرى المبتلّة الملتصقة بجبينى.. (فتحى) -الديلر وصديقى القديم من أيام المكتب- يناولنى جواناً:
- نهارو لبن..
- لبن بحليب..
كذا قلت وأنا أتناول الجوان منه.. إنفجر ضاحكاً فضحكت معه..
و من أمامنا راح ميناء بحرى القديم يقترب.. ويقترب..

***

فى ذلك الصباح استيقظت شاعراً بأننى لست على مايرام.. صداع

مؤلـم يتملّـك رأسى، وشـعورٌ عـام بالإنهـاك يمـلأ جسـدى، بالإضافـة لألـم غـير مألـوف فى الظهـر.. غريـبُ هـذا.. أذكـر جيّـداً أنـنى أويـت إلى فـراشى فى سـاعة مبكـرة مـن مسـاء اليـوم السـابق.. أى أنـنى نلـت قسـطاً لا بـأس بـه مـن النـوم .. فمـا سر هـذا الصـداع والإنهـاك..؟!..

إعتدلـت جالسـاً فى الفـراش.. ضـوء النهـار الوليـد يتسـلل مـن بـين فـرج السـتائر الـّتى تغطـى النافـذة.. ألقيـت نظـرة عـلى عقارب السـاعة الفسـفوريّة عـلى الكومودينـو المجـاور، فوجدتهـا تشـير إلى السادسـة صباحـاً.. أزحـت الغطـاء ونهضـت بسرعـة لأتوضـأ وأؤدى صـلاة الصبـح قبـل شروق الشـمس عندمـا شـعرت بـأنّ هنـاك شئ مـا غـير طبيعـى..

تجمـدت فى مـكانى.. إمتـدت أصابعـى لتتحسـس مقدمـة سروال منامـتى.. غريـب هـذا.. السروال مبتـل تمامـاً مـن أعـلاه..!!.. ليـس السروال فقـط .. بـل ولبـاسى الداخـلى أيضـاً..!!!..

جلسـت عـلى طـرف الفـراش ورأسى يـدور.. مـا الأمـر..؟.. هـل تبولـت لا إراديّـاً..؟.. كيـف هـذا..؟.. أنـا فى الرابعـة والخمسـين مـن عمـرى.. ومـازال أمامـى الكثـير حـتى أصـل لمرحلـة التبـول الـلاإرادى.. فهـل هـو مـرض أم..؟..

الصـداع يمـزق رأسى.. مـددت أصابعـى مـن جديـد أتحسـس البلـل.. خلعـت الـسروال بالكامـل وأدنيتـه مـن أنفـى.. لا أثـر لرائحـة بـول عـلى الإطـلاق..

سمعت صوت (نشوى) زوجتى يأتى من خلفى محملاً بالنعاس:

- ما الّذى أوقظك مبكراً..؟..

لاشعوريّاً خفضت يدى الممسكة بالسروال.. إلتفتَ إليها مجيباً:

- الشمس تكاد تشرق.. قمت لألحق صلاة الصبح حاضرة..

ظلّـت عيناهـا مغمضتـين.. إبتسـامة غامضـة إرتسـمت عـلى شـفتيها وهـى تقـول بصـوتٍ ناعـس:

- لن تجد وقتاً كافياً للإغتسال.. ستشرق الشمس قبلما تفرغ..

هـوى عـلىّ كلامهـا كالصاعقـة.. لـن أجـد وقتـاً كافيـاً للإغتسـال..!!.. إذن فهـى تعـرف بأمـر هـذا البلـل الـّذى أصـاب ثيـابى.. ولكـن كيـف..؟!!..

- ظننت أنّك ستنام حتى الظهيرة بعد سهرة الأمس..

سهرة الأمس ..؟!!.. عم تتحدث ..؟!!..
سألتها بانفعال:
- نحن سهرنا بالأمس..؟..
فتحت عينيها.. نظرة عابثة لم أرها منذ زمن بعيد.. ضحكة خافتة..
- شعرت وكأنّ الزمن قد عاد بنا عشرين عاماً إلى الوراء.. سبحان الله.. لم أكن أظن أنّك مازلت محتفظاً بعافيتك لهذه الدرجة.. اللهم لا حسد..
الصداع.. رأسى يكاد ينفجر.. ما الّذى يعنيه كل هذا..؟.. هتفت:
- عَم تتحدثين..؟..
تلاشت ابتسامتها، والتمعت الدهشة فى عينيها، وكأنها تنظر إلى مجنون..
- (بحيرة): هل تمزح أم أنّك حقاً نسيت..؟!!..
- نسيت ماذا..؟..
- ليلة أمس.. عندما نمنا سوياً.. لقد ضاجعتنى بقوّة شاب فى أوج عنفوانه..!..

***

أكره أن أتحدث عن موضوع شديد الخصوصيّة كعلاقتى الجسديّة بزوجتى.. أى إنسان يحترم نفسه وأسرته يفعل.. غير أننى مضطر هذه المرة لأن أكون صريحاً معك وستعرف السبب بعد قليل..
كما قلت لك.. أنا فى الرابعة والخمسين من عمرى.. زوجتى تصغرنى بحوالى أربعة أعوام.. أى أنّها بلغت المرحلة المعروفة بسن اليأس منذ سنوات قليلة.. إنقطع طمثها، وراح إقبالها على الممارسة الجنسيّة ينخفض شيئاً فشئ.. وتوافق هذا مع التراجع التدريجى -بحكم السن- فى قدرتى على الأداء أثناء العلاقة الجسديّة..
النتيجة: تباعدت الفترات الفاصلة بين لقاءاتنا الجسديّة لتصل إلى شهور ثم ماهو أكثر مع أعباء عمادة الكليّة.. اللقاء نفسه فى المرات الأخيرة البعيدة لم يتجاوز دقائق قليلة (مع استخدام منشطات مستوردة) نستلقى بعدها متهالكين، قبل أن نستغرق فى نعاسٍ عميق..
لذا -وبعد كل هذه الأعوام- لك أن تتخيل مدى ذهولى ودهشة

زوجـتى مـن قـدرتى عـلى مضاجعتهـا طيلـة الليـل «كشـاب فى أوج عنفوانـه» عـلى حـد قولهـا..

والأكثر إثارة للجنون هو أننى لا أذكر شيئاً من كل هذا..!!..

***

ألقيـت نظـرة مـن خلـف السـتائر الزرقـاء المتسـخة.. كل شئ فى الشـارع طبيعـى.. المكتبـة.. الفرارجـى.. بوتيـك الملابـس الحريمـى.. محـل الفـول والفلافـل.. العربـة الخشـبيّة المحمّلـة بثمـار الفـول الحـراتى يقـف بجوارهـا كهـل يرتـدى جلبابـاً ويرفـع عقيرتـه بالنـداء عـلى بضاعتـه.. صـبى المقهـى يكنـس الرصيـف أمـام أبـواب مقهـاه.. عايزيـن نسـمع أبلـة فضيلـة.. راح تحكيلنـا حكايـة جميلـة..

كل شئ طبيعـى.. لـم يلحظنـا أحـد ونحـن نحمـل الجـوال الضخـم مـن السـيّارة إلى مدخـل البنايـة..

أعـدت السـتائر إلى موضعهـا.. مشـيت على الأرض الموزايكـو المتربـة، بينمـا أخلـع سـترتى وقميـصى.. عنـد مـرورى بجـوار المـرآة لمحـت بطـرف عيـنى جسـدى النحيـل المشـدود وشـعرى الطويـل المنسـدل عـلى كتفـىّ، ولحيـتى الكثـة المشـعثة .. كـم مـضى عـلىّ مـن الوقـت لـم أهتـم فيـه بتنظيـف جسـدى..؟.. لا أذكـر حقـاً..

وقفـت فى منتصـف الصالـة.. تأملـت الجسـد الممتلـئ وقـد أخرجـه الرجـال مـن الجـوال، ونزعـوا عنـه ثيابـه.. تناولـت سـكيناً ضخمـاً مـن عـلى المنضدة..

أشرت بطرفه إلى الجسد مخاطباً الرجال:

- علّقوه..

***

مطـواة سـويسريّة.. self- defence.. مجموعـة مـن شرائـط الأقـراص المخـدرة أعرفهـا جيّـداً بحكـم عمـلى.. شريـط فياجـرا مسـتورد.. نصـف فـص مـن الأفيـون..

أشـياء تعـودت رؤيتهـا والتعامـل معهـا -بـدون تعاطـى طبعـاً- أثنـاء تعامـلى مـع المدمنـين ومـرضى الإكتئـاب فى مستشـفاى الخـاص.. لكـن بصـدق لا أملـك تفسـيراً لوجودهـا فى درج الكومودينـو المجـاور لفـراشى..!!..

***

نظرت عبر شاشة الكاميرا الرقميّة.. الصورة ليست ممتازة، ولكنّها تفى بالغرض.. صحيح أنّ الإضاءة معتمة إلى حدٍ ما لأننى قمت بإسدال جميع الستائر، ولكن إضاءة الفلاش مع لمبة السقف ستقوم بعمل لابأس به..

الجسد العارى الممتلئ معلّق إلى جانش بالسقف.. يداه مقيّدتان خلف ظهره.. رأسه يكاد ينفجر بالدماء المحتقنة فيه.. فمه مكمم.. الدماء متجلطة حول جروحه، بينما آثار الحروق تملأ الذراعين والمؤخرة.. أمّا العينان فمليئتان برعبٍ لا حد له..

الرجال الثلاثة واقفون حول الجسد المعلّق.. أولهم يحمل سوطاً.. الثانى يقبض بأصابعه على عصا خشبيّة غليظة، أمّا الثالث فقد لَف على يده سلك كهرباء..الحق أنهم يستحقون كل مليم تقاضوه وسيتقاضوه بعد أداءهم الإحترافى طيلة الساعة الماضية..

الجميل أنّ الرجل لم يصدر منه أثناء تعذيبه -بفضل إحكام الكمامة على فمه- سوى أنين خافت ذكرنى بأنين الأسطى (عمّار) الّذى ملأ مسامعى طيلة الشهور الماضية.. ولكن بحق، كان هذه المرّة أشبه بموسيقى عذبة لا يستطيع (موتسارت) نفسه إبداعها..

إقتربت من الرأس المحتقن.. شعره أشعث.. وجهه متورّم.. قطرات العرق تسيل على بشرته ممتزجة بالدموع المنهمرة من عينيه.. سألته بصوتٍ هادئ:

- أمازلت مصرّاً على الصمت..؟..

هزّ رأسه بعنف.. إبتسمت قائلاً للرجال:

- نزلوه..

***

زخّات المياه الدافئة تنهمر بغزارة من الدش.. تدفع رغاوى الشامبو والبادى جيل عطر الرائحة.. تنزلق بنعومة على جسدى العارى المكدود لتتجمّع فى البانيو قبل أن تنساب عبر البالوعة.. الماء الساخن يغمرنى فيبعث بى إرتياحاً خاصاً يجعلنى لا أرغب فى الخروج إلى حيث الهواء البارد..

أرفع وجهى لأعلى مستقبلاً القطرات المنهمرة.. أغمض عينىّ وأفكر..

هل هو (ألزايمر)..؟..

قفزت إلى ذهنى على الفور الصور الشهيرة فى كتب التشريح للجدائل الليفيّة الّتى تتكون على المخ والمميّزة لهذا المرض الرهيب.. برغمى إرتجفت.. أحقاً هو (ألزايمر)..؟.. أمر وارد.. لربما كان هذا النسيان هذه أحد أعراضه الأوليّة.. فقدان متقطع للذاكرة..

زفرت بعمق طارداً قطرات الماء من أنفى، ثم عدت أستقبل الزخّات بوجهى.. إستعذت بالله فى سرى من الشيطان الرجيم.. لآمل فى سعة رحمة الله.. لعله التوتر والإرهاق.. لعله خرف الشيخوخة.. لعله أى شئ إلا هذا المرض المخيف..

أزحت الستارة الرقيقة.. غادرت البانيو بحذر حتى لا أنزلق على أرضيّة المسبح المصنوعة من البورسلين.. رحت أجفف جسدى المبتل بمنشفة ورديّة كبيرة.. أجفف بسرعة.. الجو بارد حقاً.. بخار الماء يملأ فراغ المسبح.. يتكاثف على الجدران المكسوّة بالسيراميك.. أجفف جسدى بعناية..

هنا لاحظت شيئاً..

هرعت إلى المرآة الكبيرة الّتى تعلو حوض غسيل الأيدى.. كادت قدماى المبتلّتان أن تنزلقا.. مسحت بكفى بخار الماء المتكاثف على سطح المرآة.. رفعت ذراعى الأيمن ودققت النظر.. جلدى يقشعر وشعر ذراعىّ ينتصب..

متى وأين وكيف انطبع هذا الوشم الصغير لثعبانين يدوران حول جمجمة قبيحة الشكل على ذراعى..؟!!..

***

إنصرف الرجال أخيراً..

جلست إلى المنضدة.. قمت بإيصال الكاميرا باللاب توب، ثم حمّلت الفيديو الّذى صورّته إليه..

بطرف عينى، ألقيت نظرة عابرة على الجسد العارى المثخن المقيّد إلى مقعد خشبى بالقرب منّى..

الكمامة على الفم تؤدى عملاً طيّباً، ورغم ذلك فالأنين لا ينقطع.. كم هذا ممتع..

فى الدقائق التالية قمت بإرسال الفيلم إليها كملف مضغوط..
أشعلت جواناً جديداً، وطفقت أنتظر..

***

تفرّس العقيد (محمد السمّان) فى وجهى وسألنى:
- ماذا هناك..؟..
قلت بابتسامة مرتبكة:
- لا شئ..
رمقنى للحظة وكانّه يسبر أغوارى بعينيه، قبل أن يقلب فى أوراق الملف الموضوع على مكتبه قائلاً:
- الإنتخابات القادمة لن تكون سهلة أبداً يا دكتور (حازم).. نادى أعضاء هيئة تدريس جامعة (الإسكندريّة) موقع مهم جداً، لانريده أن يضيع من أيدينا كما حدث فى إنتخابات نادى جامعة (القاهرة) العام الماضى و..
بصعوبة منعت نفسى من التلفت حولى..
- أساتذة (٩ مارس) يعرفون ذلك جيّداً..
أنا متأكد من أننا -سيادة العقيد وأنا- وحدنا تماماً فى حجرة مكتبه..
- قائمتهم تضم أسماءً قويّة حقاً..
فمن أين يأتى صوت الأنين الّذى يملأ مسامعى..؟!!!..
- منعهم بأى ثمن..
كأنّ أحدهم قد تمزقت أوصاله منذ وقت قليل فى الجوار..!!!!..

***

ألقيت نظرة على ساعة يدى ثم قلت لها:
- لا وقت يا عزيزتى.. لابد أنّهم وصلوا..
- (بقلق): من هم..؟..
لم أجبها.. نهضت من أمام الكاميرا.. ألقيت نظرة عبر النافذة من خلف الستائر الزرقاء المتسخة..
غريبُ هذا.. الشارع ساكن تماماً.. لا مارّة.. لا سيّارات.. المحال كلها مغلقة.. إختفت عربة الفول الحراتى ومعها صاحبها العجوز.. حتى صوت مذياع المقهى الّذى لا ينقطع طيلة اليوم لم يعد له وجود..

هـواء بـارد يهـب فيحـرّك بعـض الأوراق القـذرة الملقـاة عـبر الشـارع، ويبعـث قشـعريرة بـاردة فى جسـدى..

شـعرت بأحشـائى تتقلـص مـن فـرط التوتـر.. تحركـت إلى الردهـة.. ألقيـت نظـرة عـبر النافـذة المرطلـة عـلى المنـور.. وهنـا رأيتهـم..

***

حمداً لله..

جميـع الفحوصـات وتقاريـر الأشـعّة الّـتى أجريتهـا -بشـكلٍ سرى طبعـاً- فى مستشـفاى بالهايتـس جـاءت سـلبيّة تمامـاً.. لا مشـكلة عضويّـة لـدىّ فى المـخ.. لكـن هـذا لا يجـزم بـشئ.. مـرض (ألزايمـر) لا يمكـن تشـخيصه إلا بتشريـح المـخ، وبمـا أن هـذا أمـر مسـتحيل إلا بعـد مـوتى، فـلا وسـيلة للتشـخيص إلا باسـتبعاد الأمـراض الأخـرى، ومراقبـة ظهـور أعـراض جديـدة لـه كتدهـور فى القـدرات العقليّـة أو العجـز عـن أداء بعـض الأعمـال اليدويّة البسـيطة وغيرهـا..

مـن هـذه الناحيـة تأكـدت مـن أنـى عـلى خـير مـا يـرام.. ذهـنى متيقـظ دومـاً، وأدائى لعمـلى أفضـل مـا يكـون بدليـل التدابـير المحكمـة الّـتى اتخذتهـا لإدارة إنتخابـات نـادى أعضـاء هيئـة التدريـس القادمـة.. هـذا أمـر يسـتلزم تركـيزاً وجهـداً كبيريـن لا يتوفـران لمريـض (ألزايمـر)..

بـأى حـال يمكنـنى الاطمئنـان قليـلاً للوضـع الحـالى.. لـم يثبـت المـرض علىّ بصـورة مؤكـدة أو حـتى شـبه مؤكـدة.. لأحاولـنّ تجاهـل مـا حـدث، وأركـز أكـثر فى الإنتخابـات القادمـة، والأعـراض سـتفرض نفسـها فى حـال إصابـتى بـ (ألزايمـر) لا قـدّر الله..

فقط لو يزول هذا الطنين الشبيه بالأنين من أذنى..!!!..

***

عدت قائلاً بلهجة جادة:

- لقـد وصلـوا كمـا توقعـت.. رأيتهـم عـبر النافـذة المطلّـة عـلى المنـور.. عددهـم كبـير..

هتفت بانفعال:

- من..؟..

- لا أعـرف بالضبـط إن كانـوا مـن رجـال الشرطـة أم رجـال هـذا الخنزيـر..

يرتـدون ثيابـاً سـوداء ويحملـون الأسـلحة..
- (بدهشة): كيف عرفوا مكانك..؟..
رفعت الهاتف الخلوى أمام الكاميرا..
- تعقبـوا هاتفـه المحمـول بالأقمـار الصناعيّـة.. أعتقـد أن طبيعـة المبـانى مـن حولنـا لعبـت دوراً مـا فى تأخـر توصلهـم لموضعنـا..
- لماذا لم تتخلص منه..؟..
تقصد الهاتف المحمول.. إبتسمت ولم أرد.. صاحت:
- إهرب إذن..
- سأفعل يا عزيزتى.. بطريقة أو بأخرى سأفعل..

***

بينمـا أراجـع بريـدى فى مكتـبى بالجامعـة، وجـدت مظروفـاً يحمـل شـعار المؤسسـة القانونيّـة الّـتى أتعامـل معهـا.. فتحتـه، ورحـت أقـرأ محتوياتـه:

***

عقد بيع أملاك

فى ظل أحكام القانون ٤ لسنة ١٩٩٦

إنّـه فى يوم .... الموافق ....
قـد بـاع السـيّد (سـعد نعمـان الديـب) التـابـع وكيـلاً قانونيّـاً عـن السـيّد (ممتازنجيـب خشـبة) بموجـب التـوكيـل رقـم (......) إلـى (حسـن سـيد الأهـل) وكيـلاً قانونيّـاً عـن السـيّد (حـازم طـه أبـو زيـد) بموجـب التوكيـل رقـم (......) العقـار رقـم (....) حـىّ (الزهـور) قسـم (بارادايـس هايتـس) بقصـد اسـتعماله كسـكن شـخصى .
وقد اتفق المتعاقدان وهما بكامل الأهليّة على البنود الآتية:
بند ١ : ....
بند ٢ : ....
بند ٣ : ....
بند ٤ : ....
..

***

رفعت حاجبىّ متسائلاً:

- صديقان..؟..

لم ترد، وإن بدا التأثر واضحاً على ملامحها.. هزّت رأسها موافقة، بينما خيطان من الدموع ينسالان على وجهها.. إبتسمت بارتياح..

- الوداع إذن يا صديقتى العزيزة..

وقبل أن تتفوه بحرف، نهضت من أمام الكاميرا.. الطرقات قويّة على باب الشقة.. كم سيتحمّل..؟.. عبرت الصالة بخطوات سريعة واثقة نحو الغرفة الداخليّة.. يدى اليمنى تقبض على زجاجة البلاك ليبل الصغيرة، وعندما ممرت بالجسد المقيّد إلى المقعد الخشبى، مددت أصابع يدى اليسرى لأقبض على المسند الخلفى للمقعد وجررته خلفى نحو الغرفة ..

طرقات عنيفة.. الجسد يئن.. يئن..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

جررت المقعد بحمله الثقيل و دفعته داخل الغرفة.. العرق يسيل غزيراً على جذعى العارى.. بأصابع مرتعشة أشعل جواناً أخيراً.. إلى جوارى تستند إلى الحائط بندقيّة آليّة دفعت لرجالى مبلغاً طائلاً كى يجلبونها لى.. الطرقات تزداد عنفاً.. حقاً أحسنت التصرف بوضع المركتب الثقيل خلف باب الشقة ليدعمه..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

نفثـت دخـان الماريجوانـا.. نظـرت إلى إمـارات الهلـع الحيـوانى المرتسـمة عـلى وجـه الرجـل.. إبتسـمت.. رشـفة مـن البـلاك ليبـل.. ثـم رفعـت الزجاجـة وسـكبت مـا تبقـى فيهـا عـلى جسـده العـارى الجريـح..

الطرق شديد حقاً.. الأنين ينقلب إلى صراخ مكتوم..

نفـس طويـل مـن السـيجارة.. نفثـت الدخـان بعمـق ثـم نظـرت فى عينيـه مبـاشرة.. ربـتّ عـلى رأسـه الأصلـع، وقلـت بصـوتٍ عميـق:

- لا تقلق.. قليلٌ من الألم.. ثم سينتهى كل شئ..

وفى اللحظـة التاليـة، قذفـت مـا تبقـى مـن الجـوان المشـتعل عـلى جسـده الغـارق بالكحـول..

***

قال لى:

- لو أردت رأيى يا دكتور (حازم) فهذه الصفقة ليست ممتازة..

إلتقطت نفساً عميقاً وسألته:

- ماذا تعنى ..؟..

تراجع فى مقعده قائلاً :

- تلـك الفيـلا الّـتى كلفتـنى بشرائهـا مـن (ممتـاز خشـبة).. لقـد دفعنـا فيهـا مبلغـاً طائـلاً يفـوق قيمتهـا الفعليّـة بكثـير.. صغـيرة، وموقعهـا متطـرف بعيـد عـن الــ down town.. كمـا أنّهـا ليسـت مجهـزة و..

قاطعته بصوت مرتجف:

- أنا كلّفتك بشراء فـيلا..؟..

نظر إلىّ بحيرة وكأنّه لا يفهم تساؤلى، قبل أن يقول:

- الفيـلا يـا دكتـور (حـازم).. هـل نسـيت..؟!.. عندمـا هاتفتـنى الإسـبوع المـاضى، وطلبـت مـنى شراءهـا مـن (ممتـاز بـك) بـأى سـعر .. لقـد أرسـلت لـك العقـد الإبتـدائى منـذ يومـين.. ألـم يصلـك بعـد..؟..

تمالكت نفسى بمعجزة.. رسمت ابتسامة على شفتىّ بصعوبة وقلت:

- نعـم .. نعـم .. لا تؤاخـذنى.. إنهـا المشـاغل كمـا تعلـم.. لقـد وصلـنى العقـد بالفعـل..

إبتسم قائلاً:

- كان الله فى العون يا دكتور..

شعرت بالمكان يدور من حولى بينما هو يردف بزهو:
- لقد بذلنا مجهوداً ضخماً لإتمام هذه الصفقة، فالسيّدة (خشبة) زوجة (ممتاز بك) -كما علمت من وكيله القانونى- لم تكن ترغب فى بيع الفيلا لأنها تمثل لها ذكرى خاصة، ولولا السعر الضخم الّذى عرضناه لما قَبِل (ممتاز خشبة) -رجل الأعمال الفذ- البيع.. ودعنى أصارحك يا دكتور أننى لولا إصرارك على الحصول على تلك الفيلا لما دفعت فيها أكثر من نصف المبلغ الّذى دفعناه و.. و.......

***

قبضت بقوّة على البندقيّة الآليّة.. هرعت إلى مدخل الغرفة.. ثنيت إحدى ركبتىّ أمامى، وارتكزت على الأخرى على الأرض.. أسندت كعب البندقيّة إلى كتفى متخذاً وضع تصويب جيّد عند الباب.. الردهة تمتد أمامى مباشرة حتى باب الشقة الّذى بدأ ينهار أمام قوة الضربات..
الصراخ الشنيع يتصاعد من الجسد المشتعل إلى جوارى، ورائحة اللحم المشوى تفعم المكان.. الجسد يتلوى من الألم الرهيب، وينقلب بالمقعد ليسقط على الأرض..
قلبى ينبض بعنف .. أتنفس بصوتٍ مسموع.. لن يهضموننى -فكرت- بسهولة.. أزحت بجانب ساعدى خصلات شعرى الطويلة الملتصقة بفعل العرق على جبهتى.. رحت أدندن بصوت خفيض بالأمريكيّة..

احرق ابن السافلة..
احرق..
احرق..
احرق..

الباب والمكتب من خلفه يتهشمان أخيراً.. أجذب إبرة البندقيّة.. أرى الأردية السوداء والخوذات اللامعة..
تنقبض عضلاتى بقوّة.. أعتصر زناد البندقيّة..

***

الغبار يكسو كل شئ..

تحركت بخطوات وجلة على الأرضيّة الخشبيّة تاركاً آثار أقدامى مطبوعة على الغبار.. الهواء مكتوم.. لابد أنّ النوافذ مغلقة منذ مدة طويلة.. خطوت نحو النافذة العريضة فى الحائط المواجه.. أزحت الستائر الّتى تغطيها، فتصاعدت منها سحب الأتربة.. سعلت..

ضوء النهار يملأ المكان.. أمد يدى و أضغط مزلاج النافذة.. أسحب الضلفة المنزلقة، فيندفع الهواء النقى داخل الصالة..

أدرت عينىّ فى المكان.. ليست فيلا بالمعنى المفهوم.. هى أقرب إلى شاليه مكون من غرفتين وصالة وحمام وأوفيس.. الأثاث قليل مكسو بالتراب.. صورة كبيرة لـ (جيفارا) معلقة على أحد الحوائط، وأخرى لـ (جمال عبد الناصر) على حائط آخر..

بالرغم من أنى واثق من أنّها المرّة الأولى الّتى أرى فيها هذا المكان.. إلا أنه بدا لى مألوفاً.. مألوفاً لدرجة أثارت رعبى..

أنا أعرف هذا المكان جيّداً.. أعرفه وكلّفت وكيلى بشرائه..

***

المشهد لا يصدق بالفعل ..

أنا أصرخ بكل قوّتى بينما سبابتى تعتصر الزناد.. الطلقات تشق فراغ الردهة من الجانبين.. تتطاير من حولى.. كتلة النيران المجاورة لى تتلوى صارخة.. قطرات العرق واللعاب تتناثر من وجهى وفمى.. البندقيّة ترتد للخلف مراراً (و هو رد فعل خبرته جيداً)، ومظاريف الطلقات الفارغة تتساقط كالمطر بين قدمىّ..

كم عددهم..؟.. كم سقط منهم..؟.. لن أعرف أبداً..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

سمعت دوى زجاج يتحطم..

إلتفتّ يساراً بحركة حادة، لأرى أحدهم يخترق نافذة الغرفة مهشماً زجاجها .. يتدحرج على أرضيّة الغرفة.. ينهض واقفاً ويصوب سلاحه نحوى بسرعة لا تُصدق.. أدرت فوهة البندقيّة تجاهه.. أطلقت النار بلا تردد.. ورأيت جسده يثب إلى الوراء ليرتطم بالحائط قبل أن يسقط على وجهه.. جسد ثانى يعبرالنافذة فى نفس اللحظة.. أُدير البندقيّة نحوه.. أضغط الزناد.. لا شئ إلا تكة معدنية تعلن عن فراغ الطلقات.. أقذف البندقيّة الفارغة وأندفع نحو الجسد المتشح بالسواد.. يرفع سلاحه نحوى.. أقبض على ماسورة المدفع الآلى بأصابع من فولاذ.. أزيحها لأعلى.. الرصاصات تغادر فوهتها بعنف لتصنع خطاً من الثقوب ممتد رأسيّاً ثم أفقيّاً من الحائط للسقف.. أنزع السلاح بعنف من قبضته.. ثم ألتحم معه..

ما هذا الصوت..؟..

نتبادل الضربات.. أنا لاعب أيكيدو سابق، وتصعب هزيمتى فى قتال يدوى.. تمر ثوان قليلة قبل أن يفاجأ برأسه بين كفىّ.. أُديره بعنف لأسمع صوت قرقعة مخيفة لفقرات عنقه إذ تتحطم قبل أن يسكن جسده تماماً..

ألقيته أرضاً.. رفعت رأسى إلى مدخل الغرفة.. سحب من الدخان الأبيض قادمة من الردهة.. قنبلة دخان..؟.. إنحنيت لألتقط مسدساً من على الأرض، فوجدت الدماء تغرق بطنى وجانبى الأيمن.. !!.. متى أُصبت..؟.. وكيف لم أشعر..؟!.. الدوار ينتاب رأسى.. رفعت كفى الملوثة بدمائى.. أشعر بها تزن اطناناً.. نظرت إليها.. مسحتها بفمى ولحيتى..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

الغرفـة تـدور بى.. أنظـر إلى الأرض.. ثلاثـة جثـث إحداهـم متفحمـة تماماً.. شـظايا الزجـاج المكسـور متنـاثـرة مختلطـة بمظاريـف فـارغ الرصـاص.. المسـدس فى يـدى أقبـض عليـه بصعوبـة.. الدخـان الأبيـض يـزداد ويتكاثـف.. أكاد أراهـم يتقدمـون مـن خلالـه بحـذر.. أسـلحتهم مشـهرة.. الأقنـعة الواقيـة مـن الدخـان تغطـى وجوههـم..

تحركـت بخطـوات متثاقلـة بـين سـحب الدخـان.. رحـت أسـعل.. أسـعل.. غـادرت الحجـرة، وحاولـت اخـتراق السـحب البيضـاء ببـصرى لأرى أى شئ.. لا فائـدة..

أسعل.. الدماء تتناثر من فمى..

احرق ابن السافلة..

احرق..

احرق..

احرق..

الدخـان الأبيـض يخفـى كل شئ، ولكنـنى أراهــم أمامـى جميعـاً يصوّبـون أسـلحتهم نحـوى.. رجـال الشركـة.. قـوّات الشرطـة .. فـرق الكاراتيـه .. جيـش الدفـاع الإسرائيـلى.. الماريـنز الأمريـكان.. (لوسـيفر) نفسـه.... يالهـذا الـدوار..!!..

رفعـت المسـدس فى قبضـتى.. أطلقـت صرخـة مـن أعمـاق روحـى.. إندفعـت بـكل مـا تبقـى لى مـن قـوة مخترقـاً سـحب الدخـان وأنـا أصرخ..

ضغطت الزناد مرّة..

إثنتان..

ثلاثة..

إقتلعتـنى طلقاتهـم مـن عـلى الأرض.. جسـدى يطـير إلى الـوراء.. يشـق الهـواء.. يهـوى ليرتطـم بأرضيّـة الردهـة.. الغريـب أنـى لا أشـعر بـأى ألـم.. فقـط أشـعر بأنـى أغـوص فى الأرض.. أرى خيـوط العنكبـوت الـّتى تغطـى سـقف الردهـة تبتعـد.. تبتعـد..

وجـوه تطـل عـلىّ مـن أعـلى.. مازلـت أشـم رائحـة الشـواء.. ولكنـنى سـعيد لأن الأنـين قـد توقـف.....

***

لا لم يتوقف..

حــتى عندمــا اســتيقظت مفزوعــاً مــن نومــى.. ظــل يــتردد خافتــاً فى مســامعى...

تحسست جسدى بلهفة.. تنهدت..

الظـلام يخيّـم عـلى الغرفـة فى تلـك السـاعة المتأخـرة مـن الليـل.. أنفـاس منتظمـة تصـدر عـن زوجـتى النائمـة إلى جـوارى.. دقـات خافتـة قادمـة مـن سـاعة الحائـط.. صفـير الريـاح الّـتى تعـوى فى الخـارج.. أصـوات.. أصـوات..

آآآآآآآآآآآآه.... مممممممممم..

فـزع هائـل مـلأ نفـسى.. مـاذا أصابـنى..؟.. أيّـة قـوّة شـيطانيّة سـيطرت عـلىّ..؟.. أقـوم بأفعـال لا أدرى عنهـا شـيئاً، ولا أذكـر عنهـا شـيئاً.. مـصرع (أحمـد خشـبة) يـزورنى مـراراً فى كوابيـسى.. ثـم الأنـين الرهيـب..

مممممممممم ... مممممممممممممممم ....

أنين طويل متألّم تسلل إلى أُذنىّ..

عــشرات بــل مئــات التفاصيــل وجــدت نفــسى أعرفهــا وأتعايــش معهــا وكأنــنى مــررت بهــا مــن قبــل.. أوفلتقــل أنّهــا ذكريــات قديمــة مهملــة..

مممممممممم ... مممممممممممممممم ....

بالنسـبة للدكتـور (أوبرايـان)، توصـل العلمـاء إلى أنّ التلاحـم الّـذى تـم بـين سياله الحيـوى، والطاقـة النفسـيّة المنفصلـة عـن التيـار الكهـربى (والّتى هـى فى الأصـل جـزء مـن السـيال الحيـوى الّـذى تـم انتزاعـه مـن أحـد عينـات الإختبـار البشريّـة).. هـذا التلاحـم هـو السـبب فى حالـة الهيـاج الّـتى

أصابتـه والـرؤى الّـتى يراهـا.. تلـك الـرؤى الّـتى هـى عبـارة عـن ذكريـات مطبوعـة عـلى الطاقـة النفسـيّة الّـتى غـزت كيانـه..

مممممممممم ... ممممممممممممممم ....

ببـطءٍ مخيـف بـدأت قطـع اللغـز تـتراص وتنتظـم أمامـى مكونـة الصـورة الكليّـة للحقيقـة الرهيبـة..

بشـكلٍ أو بآخـر.. إنفصـل الإكتوبـلازم الخـاص بالباشـمهندس (أحمـد خشـبة) عنـه –مـع خـروج أنفاسـه الأخـيرة– وانتقـل إلىّ..!!!...

ثمـة جـزء مـا ظـل مـستعصياً عـلى التحـول إلى كهربـاء.. جـزءً روحيّـاً غـير منظـور إلا فى مجـال للأشـعة تحـت الحمـراء.. جـزء يظـل مرتبطـاً بالتيـار الكهـربى حـتى لحظـة تحولـه إلى طاقـة حركيّـة أو حراريّـة أو صـوتيّة حسـب الجهـاز الّـذى يُسـتخدم التيـار الكهـربى فى تشـغيله.. فى هـذه اللحظـة يتحـرر الجـزء النفسى مـن التيـار الكهـربى.. ينفصـل عنـه.. يخـترق الأسـلاك والموصـلات.. يسـبح فى الهـواء ليختلـط بأقـرب سـيال حيـوى لـه..

مممممممممم ... ممممممممممممممم ....

مممممممممم ... ممممممممممممممم ....

مممممممممم ... ممممممممممممممم ....

مممممممممم ... ممممممممممممممم ....

صرخـت وأنـا أسـد أذنىّ بكفـىّ.. هبـت زوجـتى مـن نومهـا مذعـورة.. هتفـت:

- (حازم).. ماذا حدث..؟..

دفنـت وجهـى بـين يـدىّ وانخرطـت فى بـكاءٍ حـار.. مـدت أصابعهـا تـضئ الأباجـورة المجـاورة لهـا عـلى الكومودينـو وهـى تهمـس:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

بمجـرد أن أضـاءت الأباجـورة شـعرت بالأنـين فى مسامعى يتحـوّل إلى صراخ مـدوّ.. شـهقت بفـزع.. عـدت أغطـى أذنىّ بكفـىّ وأنـا أصرخ:

- أطفئ النور..

***

برغـم أنّ هـذا الفـرض مستحيل مـن الناحيـة البيولوجيـة والفيزيائيّـة، إلا أنّـه بـدا لى التفسـير الأكـثر ملائمـة لتلـك الأعـراض غـير المسـبوقة الّـتى صرت أعـانى منهـا.. أثـار الأمـر رعـبى بحـق.. هـل هـذا ممكـن فعـلاً..؟.. مـا الّـذى يمنـع حدوثـه..؟.. ألـم يحـدث مـن قبـل مـع (أحمـد خشـبة)..؟.. بـلى.. ولكـن هـذا تـم مـن خـلال ظـروف معيّنـة لـم تتوافـر فى حالـتى.. ومن أدراك أنّ ظرفـاً آخـر لـم يتوافـر فيتسـبب فى إنتقـال إكتوبـلازم الفـتى إليـك بعـد مصرعـه..؟.. ظـرف مثـل مـاذا..؟.. أى ظـرف.. أليـس مـن المحتمـل أن يكـون للإكتوبـلازم المتحـرر إرادة ذاتيّـة وقـدرة عـلى الإنتقـال إلى شـخص بعينـه..؟.. ولكـن هـذا مسـتحيل.. مسـتحيل أو غـير مسـتحيل.. لـن يفيـدك بـشئ إطـلاق الأحـكام المجـردة.. دع العلـم يقـول كلمتـه..

كلام سـليم جـداً.. لـم أضـع وقتـاً.. مـن جديـد هرعـت -بمجـرد شروق الشـمس- إلى مستشـفاى الخـاص.. هـو كمـا قلـت لـك تخصـصى لعـلاج الأمـراض النفسـيّة والعصبيّـة، وبـه معمـل مـزوّد بأحـدث أجهـزة الفحـص والتحليـل والأشـعة.. جلسـت إلى نائـبى الشـاب الدكتـور (محسـن عبـد الفتّـاح) -وكانـت آثـار النـوم مازالـت ظاهـرة عـلى وجهـه بعـد أن أيقظتـه مبكـراً- وشرحـت لـه سلسـلة الفحـوص والتحاليـل الّـتى سـنقوم بهـا.. بـدا عليـه الغبـاء وهـو يسـألنى:

- أين الحالة الّذى سنجرى عليها هذه الفحوص..؟..

أجبته بنفاد صبر:

- لا توجد حالة.. سنجرى الفحوص علىّ أنا لإختبار الأجهزة..

أطلّـت الدهشـة مـن عينيـه، وفتـح فمـه ليسـأل فرفعـت كفـى مقاطعـاً بحـزم:

- لا أسئلة.. إبدأ من فضلك..

وبعـد سـاعة واحـدة كنـت جالسـاً أمـام المونيتـور أتابـع الفيلـم الّـذى تـم التقاطـه لى داخـل غرفـة الأشـعة خـلال مجـال للأشـعة تحـت الحمـراء..

المؤثـرات الّـتى تعرضـت لـهـا تتـوالى عـلى الشاشـة أمـام عيـنىّ، وسـيل البيانـات الّـتى تنقلهـا الأقطـاب الّـتى تـم توصيلها بجسـدى تتتابـع بانتظام..
النتيجـة: سـلبيّة تمامـاً.. لـون وشـكل وحركـة السـيال الحيـوى الخـاص بى طبيعـى جـداً.. لا أثـر لأى شئ غـير عـادى..
سألنى الدكتور (محسن) الواقف خلف مقعدى:
- هل هناك شئ ما يا دكتور..؟..
لـم أرد.. جـرت عينـاى بسرعـة عـلى النتائـج المطبوعـة للفحـوص الـتّى أجريتهـا خـلال السـاعة الماضيـة.. لا جديـد.. كل شئ عـلى مايـرام..
عاد الفتى يسألنى بإلحاح:
- هل هناك مشكلة ما يا دكتور..؟..
رفعت عينين زائغتين إليه مردداً:
- لا جديد.. كل شئ على ما يرام..

***

ممممممممم ... مممممممممممممم ....
ممممممممم ... مممممممممممممم ....
ممممممممم ... مممممممممممممم ....

***

الفـترة التاليـة كانـت عصيبـة بحـق.. مـرّت الأيـام بسرعـة، ثـم بـدأت عاصفـة إنتخابـات نـادى أعضـاء هيئـة التدريـس بجامعـة (الإسـكندريّة).. كانـت القائمـة الّـتى وضعتهـا مـع العميـد (السـمان) تضـم أسـماءً مرموقـة، ولكـن عـلى الجانـب الآخـر كانـت القائمـة المضـادة تشـمل العديـد مـن أسـاتذة (9 مـارس) والإخـوان، وأغلبهـم مـن ذوى الشـعبيّة الجارفـة بـين زملائهـم، وأعـترف بأنـى كنـت أميـل لبعضهـم بالفعـل.. ولكـن هـذا موضـوع آخـر..
إمتـلأت الجامعـة باللّافتـات الدعائيّـة، وتوالـت المؤتمـرات الإنتخابيّـة والسجالات بـين الفريقـين.. لـم يكـن الأمـر سـهلاً، لأنهـا ليسـت إنتخابـات اتحـادات الطـلاب.. التعامـل مـع الأسـاتـذة يختلـف كثـيراً فى الأسـاليب والمحاذيـر، وخاصـة أنّ هـؤلاء القـوم لهـم خبراتهـم الّـتى اكتسـبوها عـلى مـدى ثلاثـة عقـود سـابقة.. ومـن جانـبى، قمـت باختيـار أعضـاء اللجنـة

المشرفـة عـلى العمليّـة الإنتخابيّـة بنفـسى، وفتحـت حسـاباً خاصـاً مـن ميزانيّـة الجامعــة للإنفـاق عـلى الحملـة الدعائيّـة لقائمتنـا (بشـكل سرى طبعاً)..عمـل غـير أخـلاق..؟.. كـنت لأوافقـك لـو كانـت الظـروف عاديّـة، ولكـن الأمـر كان جـد خطـير.. القائمـة الأخـرى لديهـا أفـكار وسياسـات تنحـو إلى تسـييس الوسـط الجامعـى، وهـو مـا يتعـارض بشـدة مـع منهجـى كرئيـس للجامعـة، ولا منـاص عـن مقاومتـه بـأى وسـيلة، والـضرورات كمـا قلنـا تبيـح المحظـورات..

جـاء اليـوم الموعـود.. تدفـق الأسـاتذة والمدرسـون والمعيـدون عـلى مقـرّات الإنتخـاب بأعـدادٍ كبـيرة أثـارت دهشـتى.. لـم أر مـن قبـل إقبـالاً بهـذه الكثافـة.. رحـت أراقبهـم مـن خـلف زجـاج نافـذة مكتـبى (حيـث جعلـت أهـم المقـار الإنتخابيّـة فى مجمـع المبـانى الإداريّـة بشـارع الجيـش)، وقـد شـعرت بتوجـس.. لقـد بذلـت بالفعـل جهـوداً كبـيرة لضبـط هـذه الإنتخابـات، ولـم أدخـر جهـداً أو مـالاً فى الدعايـة لمرشـحى قائمتنـا، ولكـن مشـهد جمـوع الأسـاتذة والمدرسـين المتوجهـين لـلإدلاء بأصواتهـم جعلـنى أفكـر فى إحتماليّـة فـوز القائمـة المنافسـة.. هـل هـذا ممكـن حقـاً..؟.. أمـر وارد.. مـاذا سيكون مـن أمـرى إذن فى هـذه الحالـة..؟.. بالتأكـيد سـيعتبروننى مُقَصِراً فى عمـلى.. وفى أقـرب فرصـة سـأفقد منصـبى كمـا حـدث مـع سـلفى (ماجـد رسـلان).. وسـيضيع مـنّى وعـد الدكتـور (زكريّـا) بالـوزارة.. و.. و..

شـعرت بـرأسى يـكاد ينفجـر مـن حـدة الأفـكار.. الأنـين..؟.. لا يفارقـنى إلا لأوقـات متقطعـة، وأبـذل مجهـوداً جبـاراً لتجاهلـه.. جلسـت إلى مكتـبى، وطلبـت فنجانـاً مـن الكركديـه.. فككـت ربطـة عنقـى قليـلاً وأسـندت رأسى إلى مسـند الـرأس بمقعـدى الوثـير..

مممممممم ... ممممممممممممم ....

مممممممم ... ممممممممممممم ....

مممممممم ... ممممممممممممم ....

أول وأهـم وأخطـر أزمـة سـتواجهك هـى النشـاط الإخـوانى فى الجامعـة.. وهـو السـبب الحقيقـى فى إقـالة سـلفك الدكتـور (ماجـد)..

مممممممممم ... ممممممممممممممم ....
مممممممممم ... ممممممممممممممم ....
مممممممممم ... ممممممممممممممم ....

الإنتخابـات القادمـة لـن تكـون سـهلة ابـداً يـا دكتـور (حـازم).. نـادى أعضاء هيئـة تدريـس جامعـة (الإسـكندريّة) موقـع مهـم جـداً، لانريـده أن يضيـع مـن أيدينـا كمـا حـدث فى إنتخابـات نـادى جامعـة (القاهـرة) العـام المـاضى و..

مممممممممم ... ممممممممممممممم ....
مممممممممم ... ممممممممممممممم ....
مممممممممم ... ممممممممممممممم ....

بشـكل أو بآخـر.. إنفصـل الإكتوبـلازم الخـاص بالباشـمهندس (أحمـد خشـبة) عنـه - مـع خـروج أنفاسـه الأخـيرة - وانتقـل إلىّ ..!!!...

مممممممممم ... ممممممممممممممم ....
مممممممممم ... ممممممممممممممم ....
مممممممممم ... ممممممممممممممم ....

احرق ابن السافلة..
احرق..
احرق..
احرق..

***

عيناه متقدتان بالغضب.. قال بصوت يجمد الدم فى العروق:
- فسر لى ما حدث..
أطرافى باردة كالثلج .. قلت بحروف مرتعشة:

- مجرد خطأ يا (محمد بك).. خطأ بسيط قمت بتداركه على الفور..
ضرب بقبضته على سطح مكتبه صائحاً بصوت هادر:
- أعرف أنّه خطأ.. وأطلب تفسيراً له حالاً..
خفضت رأسى ولم أعرف بم أرد..
ماذا أقول له..؟.. أننى أمر بحالة ميتافيزيقيّة غير مفهومة..؟.. أخبره أننى لم أكن فى وعى عندما مزقت كشف النتيجة المزورة الّتى أرسلها لى العقيد (سليمان قنديل) -قائد الحرس الجامعى- كى أعتمدها..؟!!.. أننى لا أذكر شيئاً عن تلك المكالمة التليفونيّة الّتى سببت الرجل فيها وأخبرته أن يدس نتائجه المزورة فى مؤخرته..؟!!..
هل سيصدقنى عندما أخبره أننى لا أذكر شيئاً مما جرى، وأن مدير مكتبى هو الّذى روى لى هذه التفاصيل الصادمة..؟!!..
- (بغضب): أجبنى ولا تقف كالصنم هكذا..
قلت بصوتٍ خفيض:
- صدقنى يا سيادة العميد.. كنت أمر بظروف خاصة فى غاية الصعوبة و..
قاطعنى:
- طظ فى ظروفك كلها.. ما شأن الظروف الخاصة بالعمل..؟..
عدت أطرق برأسى أرضاً من جديد.. العرق يغمر جبينى، ويدى اليسرى ترتعش بصورة لا أسيطر عليها..
- (ثائراً): حينما هاتفنى العقيد (سليمان) وأخبرنى بِمَ فعلت لم أصدق.. هل جننت يا دكتور..؟.. هل نسيت كلامى لك عندما أتيت إلى مكتبى قبل توليك منصبك..؟..
رفعت رأسى هاتفاً بحرارة:
- الرحمة يا (محمد بك)..أعطنى فرصة أخرى بالله عليك.. أنا خادمكم المطيع.. لقد نفذت أوامرك بالحرف طيلة الفترة السابقة.. إعتمدت النتيجة المطلوبة، وذهبت إلى العقيد (سليمان) فى مكتبه واعتذرت له وقبلت رأسه.. أرجوك.. فرصة اخرى واحدة..
راح يحدجنى لثوان بنظرات مخيفة، قبل أن يشير بكفه نحو باب المكتب قائلاً:

- إذهب الآن وانتظر منّى تليفوناً..
هوى قلبى بين ضلوعى.. كدت أبكى وأنا أهتف مستعطفاً:
- لا تَقضِ علىّ يا (محمد بك).. أبوس يدك.. إمنحنى فرصة أخيرة.. أنا خادمك.. أنا رهن إشارتك.. أنا...
- (بلهجة قاطعة): تفضل...

***

لا أعرف كيف أصف لك كيف مرّت علىّ الأيّام الفائتة منذ خروجى من مكتب العقيد (السمّان) وحتى هذه اللحظة.. هل أنت معى..؟.. فى لحظة واحدة يتداعى الحلم، وينهار كل ما كافحت من أجله.. كيف..؟.. بأى منطق..؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم..

لم يتصل بى حتى الآن.. صرت أذهب كل يوم إلى الجامعة، وأتابع سير العمل فى المستشفى بآلية تامّة.. أرى وجوهاً.. أسمع كلاماً.. دون أن أعى شيئاً مما أرى أو أسمع.. كيانى كله يربض متحفزاً مترقباً رنين هاتفى المحمول.. منتظراً سماع صوت (السمّان) ليطمئننى أو ليخبرنى بنهاية أحلامى وطموحاتى..

من جديد أحاول تحليل الموقف.. كيف حدث هذا..؟.. الفحوص والأشعة تقطع بأننى سليم، وسيالى الحيوى خال من أى شئ غير عادى.. أى أن الخلل هنا ليس عضويّاً.. فهل من الممكن أن يكون نفسيّاً..؟..

حقاً لم أعد أدرى.. شيئاً فشئ أفقد قدرتى على التفكير العلمى المنظم.. وكيف لى أن أفكر أصلاً بينما الـ..

مممممممم ... ممممممممممممم ....
مممممممم ... ممممممممممممم ....
مممممممم ... ممممممممممممم ....

يملأ أذنىّ وعقلى وكيانى كله..؟..

لاحظت زوجتى فى دهشة أننى صرت عصبيّاً سريع الغضب.. سألتنى عن سبب غيابى المتكرر عن المنزل فى غير أوقات العمل، فلم أجد ما أرد به عليها.. أنا نفسى لا أدرى..

إستيقظت ذات ليلة من نومى لأجد نفسى فى مكان مجهول.. أصابنى الهلع.. إستغرقت وقتاً لأستوعب أنّ هذا المكان هو الفيلا الّتى إبتعتها -من دون أن أدرى- من (ممتاز خشبة).. أذكر جيّداً أننى أويت إلى فراشى فى فيلّتى.. كيف إذن جئت إلى هنا..؟.. ومتى..؟.. لا أعرف..

أثار رعبى أكثر ذلك الجسد المستلقى على الفراش الّذى نهضت من عليه لتوى.. هذا الشعر الطويل.. إنها امرأة.. إمرأة مغطاة بملاءة بيضاء مستغرقة فى النعاس بجوارى..!!.. من هى..؟!!.. وكيف جاءت إلى هنا..؟.. وكيف جئت أنا نفسى لأجدنى إلى جوارها..؟!!!..

لحظات من الحيرة والعجز عدت بعدها إلى الفراش، وأدرت ظهرى لها.. إمّا أن هذا حلم وسأستيقظ منه، وإما أننى أتيت إلى هنا حقاً بوسيلة شيطانيّة، وسأعود بذات الكيفيّة الّتى أتيت بها.. أغمضت عينىّ بقوة.. يا إلهى الرحيم.. لا تدعنى لهذا الجنون..

مممممممممم ... مممممممممممممممم ....
مممممممممم ... مممممممممممممممم ....
مممممممممم ... مممممممممممممممم ....

لاحظت (نشوى) -زوجتى- ما صارت إليه أحوالى من تدهور وعصبيّة وقلة التركيز والكوابيس المتواصلة طيلة الليل.. أدركت بذكاء الأنثى أننى أمر بمشاكل غير معتادة تختلف عن مشكلات العمل التقليديّة.. أتتنى فى التراس عقب صلاة فجر عليها غطفة الصلاة، تحمل صفحة عليها فنجانين من الشاى الأخضر بالنعناع يتصاعد منهما البخار.. جلست إلى جوارى وراحت تداعبنى بلطف، قبل أن تسألنى عمّ بى..

نظرت إليها وفكرت.. لِمَ لا..؟.. كنت أفضل عدم إقحامها فى الموضوع، ولكن الأزمة غير العاديّة الّتى أمر بها وصلت لدرجة لا تُحتمل.. وعقلين أفضل من عقلٍ واحد.. دعك من أننى بالفعل فقدت القدرة على التفكير السليم..

كانت خيوط أشعة الشمس تتسلل على استحياء من بين الغيوم الّتى تكسو السماء، عندما وضعت فنجان الشاى على المنضدة، وبدأت

أروى لهـا..
إسـتغرق الأمـر مـنّى مـا يقـرب مـن السـاعة، تناوبـت خلالهـا الإنفعـالات إيّاهـا عـلى وجههـا، حـتى انتهيـت.. (طبعـاً تجنبـت ذكـر بعـض التفاصيـل كقصـة تلـك المـرأة الّـتى صحـوت ليـلاً فوجدتهـا إلى جـوارى فى فيـلا خشـبة القديمـة).. صمـتت قليـلاً مفكـرة، قبـل أن ترفـع عينيهـا إلىّ متسـائلة بهـدوءٍ أدهشـنى:
- متى بدأت تسمع أصوات الأنين..؟..
- لا أذكر..
- حاول أن تفعل..
صـمتّ مفكراً للحظات قبل أن أهز رأسى قائلاً:
- لا أذكر..
- (بإلحاح): قبل أم بعد اتصال تلك الإعلاميّة بك..؟..
- بعد..
ظلّت تتطلّع إلىّ صامتة، فقلت بعصبيّة:
- فيم تفكرين..؟..
- (ببطء): التـشخيص واضح يا عزيزى..
نظرت إليها متسائلاً، فتابعت:
- بعيـداً عــن كل هــذا الــكلام عــن انتقــال الإكتوبــلازم مــن شــخص لآخـر.. هـذه حالـة إزدواج شـخصيّة double personality واضحـة جـداً.. ويدهشـنى أنـك (وأنـت أسـتاذ الطـب النفـسى) لـم تشـخصها..

***

إزدواج الشـخصيّة أو الــ double personality هــو مـرض نفـسى شـهير عبـارة عــن اضطـراب نفـسى يحـدث فيـه -فى ظـروف معينـة- انشـقاق جـزء مـن الشـخصيّة غالبـاً مـا يكـون جـزء مكبـوت أو كامـن ليمـارس قيـادة الشـخصيّة للحظـات أو سـاعات أو أيـام، فيفعـل خلالهـا مـا تعجـز عنـه أو تخجـل منـه الشـخصيّة الأساسـيّة فى سـياقها المعتـاد..
الحالـة مشـهورة للعامـة، وظهـرت فى أعمـال أدبيّـة وفنيّـة عديـدة كروايـة (سـتيفنسـون): (الحالــة الغريبــة لدكتــور جيــكل ومســتر هايــد) وروايــة (إحسـان عبـد القـدوس): (بـئر الحرمـان) الّـتى تحولـت لفيلـم شـهير.. وإن

كان هنـاك خلطـاً كبـيراً بـين هـذا المـرض وبـين مـرض آخـر هـو الفصـام (Schizophrenia) وهـو اضطـراب نفـسى شـديد ينتـج عـن خلـل عضـوى بالمـخ ناتـج بـدوره عـن اضطـراب فى الجينـات أو فى تركيبـة المـخ أو فى كيميـاء المـخ أو كل ذلـك معـاً.. ولكـن هـذا بعيـد عـن موضوعنـا..

يندرج إزدواج الشخصيّة تحت بند حـالات الإضطرابـات الإنشـقاقيّة (Dis-sociative disorders).. وهـى حـالات هيسـتيريّة تصيـب فئـة مـن النـاس يعجـزون عـن رؤيـة وقبـول مناطـق معينـة مـن أنفسـهم أو يتنكـرون لبعـض احتياجاتهـم أو يعجـزون عـن التعبـير عـن رغباتهـم ومخاوفهـم، فيلجـأ جهازهـم النفـسى إلى حيلـة الإنشـقاق، خاصـة أنّ هـذا الجهـاز لديهـم يكـون هشـاً وضعيفـاً، لذلـك يسـهل عـلى الجـزء المتمـرد داخـل النفـس أن يقـوم بانقـلاب مؤقـت فيسـتولى عـلى مركـز قيـادة الشـخصيّة لفـترة معينـة تطـول أو تقـصر، يمـارس خلالهـا كل مـا كان يتمنـاه مـن طيـش أو نـزق أو تحقيـق نـزوات أو إعـلان رغبـات أو التهـرب مـن مسـئوليات، إلى أن تفـرغ الشـحنة، فتعـود السـلطة مـرة أخـرى إلى القيـادة المعتـادة للشـخصيّة، تلك الخاضعـة تمامـاً للمعايـير الإجتماعيّـة السـائدة المكبلـة بقواعـد أخلاقيّـة أو عائليّـة ليسـت مقتنعـة بهـا، ولكنّهـا تخشـاها..

كل هذا جميل.. ولكن ما شأنى أنا به..؟!!..

***

مممممممممم ... مممممممممممممممم ....

مممممممممم ... مممممممممممممممم ....

مممممممممم ... مممممممممممممممم ....

***

قـالت بينمـا أصابعهـا تداعـب أغصـان شـجرة الياسـمين عطـرة الرائحـة القريبـة مـن حاجـز الـتراس:

- هـل تذكـر تشـخيصك الأول لحالـة (أحمـد ممتـاز خشـبة)..؟.. لقـد أخبرتـه -فيمـا أذكـر- أنّ مـا يمـر بـه مـن أعـراض كالأحـلام وسـماع أصوات الأنـين مـا هـو إلا محاولـة مـن عقلـه الباطـن لتأنيبـه بعـد تنصلـه مـن مسـؤليّاته كمعمـارى مثقـف، وتخلّيـه عـن قضيّـة العمـال المعتقلـين (تلـك الّـتى افترضـت أنـت أنّـه عـلى علـم بهـا بشـكل مـا).. طبعـاً الصـورة

اختلفت بعد معرفة موضوع (إيجى ـ نيرجى) وحقيقة إمكانيّة إنتقال الإكتوبلازم الحامل لذكريات وانفعالات صاحبه من جسدٍ لآخر.. ربما يكون إكتوبلازم ذلك العامل الصريع قد انتقل بالفعل إلى (أحمد خشبة)، غير أنّ الحال يختلف معك.. (أحمد خشبة) لقى مصرعه قتيلاً أى نعم، ولكن بشكل طبيعى.. أى أنّ سياله الحيوى غادره بشكل طبيعى كما يحدث لأى ميّت أو قتيل.. دون أن تستقبله أيّة أجهزة.. وبالتالى فلا مجال للقول بأنّه انتقل إليك بأى صورة بدليل أنّ نتائج الفحوص والأشعة أثبتت أنّك سليم تماماً من الناحية العضويّة.. وهذا يعود بنا إلى تشخيصك الّذى بدأت به سابقاً والّذى أجده ينطبق على حالتك بشكل يكاد يكون خال من الثغرات..

- (مشدوهاً): كيف..؟..

- رد فعلك الأول بمجرد معرفتك قصة (إيجى ـ نيرجى) كان -كرد فعل أى شخص فى موضعك- هو الذهول والاستبشاع الشديدين.. الأمر مريع بالفعل.. لدرجة أنّك أخفيته عنّى.. (تنظر لى نظرة لائمة).. وعندما حاورك الدكتور (زكريّا) وأقنعك بشرعيّة ومشروعيّة عمل الشركة، ظل جزء ما بداخلك معترضاً مستبشعاً.. هذا الجزء الّذى حرصت أنت على قمعه وكبته فى أعماقك لأنّ خروجه وتمرده سيجلب علينا وبالاً كبيراً كما حذرك الدكتور (زكريا)..

والتقطت أنفاسها للحظة قبل أن تتابع:

- الّذى حدث بعد ذلك أنّ الجزء المتمرد بداخلك بدأ يعلن عن نفسه بشكلٍ أقوى.. بدأت تسمع أصوات الأنين -أنين العمال المعذبين داخل ماكينات التعذيب- بشكلٍ مستمر.. ترى تفاصيل مصرع (أحمد خشبة) فى أحلامك، وهذا العَرَض الأخير بالذات له دلالة واضحة لأنّ الجزء المتمرد داخلك يرغب فى مقاومة (إيجى ـ نيرجى) على ذلك النحو الجذرى الّذى قام به (خشبة) من حرق (يوسف محيى الدين) مدير الشركة والصدام الدموى مع قواتها.. ومع تفاقم الصراع الداخلى فى أعماقك، بدأت تدخل فى طور من الإضطرابات الإنشقاقيّة..

ولمّا وجدتنى أتابعها بعينين خرساويّتين، سألتنى بقلق:

- هل تتابعنى..؟..

أومــأت بــرأسى مجيبــاً دون أن أنطــق بحــرف، فالتقطــت نفســاً عميقــاً وتابعــت:

- بــدأ ذلــك الجــزء المتمــرد مــن عقلــك الباطــن ينشــق عنــك.. يســيطر عــلى قيادتــك لأوقــات معيّنــة يغيــب فيهــا عقلــك الواعــى المؤمــن بدواعــى الحــرص وتجنــب الخطــر، ويقــوم -أى الجــزء المتمرد- بممارســة كل مــا تكبته وتكتمــه فى أعماقــك مــن ثــورة وغضــب.. ونظــراً لأن (أحمــد خشــبة) أصبــح بالنســبة لــه مثــلاً أعــلى بمــا قــام بــه مــن مقاومــة بطوليّــة للشركــة -مــن وجهــة نظــره طبعــاً- فإنّــه فى إنشــقاقه عنــك يميــل إلى تقمــص دور (خشــبة) وممارســة أفعالــه.. هــل تذكــر تلــك المــرّة الّــتى نمنــا فيهــا ســويّاً وتضاجعنــا طيلــة الليــل، ثــم فوجئــت فى الصبــاح بأنّــك لا تذكــر شــيئاً عنهــا..؟..

قلت بحيرة:

- نعم..

- هــذه واحــدة مــن المــرات الّــتى مــارس فيهــا الجــزء المتمــرد ســيطرته عــلى عقلــك الواعــى متقمصــاً دور (أحمــد خشــبة).. قمــت أنــت -فى غيبــةٍ مــن وعيــك- بــشراء تنــاول أقــراص (الفياجــرا) -تلــك الّــتى وجــدت بعــض منهــا فى درج الكومــود- وضاجعتــنى بقــدرة شــاب فى عمــر (خشــبة) بصــورة لــم تحــدث منــذ كنّــا شــباباً، وعندمــا عــادت الســيطرة إلى عقلــك الواعــى، نســيت كل هــذا، وأثــار ذهولــك أن ضاجعتــنى ووجــدت بقايــا أقــراص (الفياجــرا) بحوزتــك.. وليــس هــذا فقــط..

- ماذا أيضاً..؟..

إعتدلت مجيبة:

- هنــاك أيضــاً المخــدرات الّــتى عــثرت عليهــا فى درج الكومــود.. وشــم الثعابــين المطبــوع عــلى ذراعــك.. فيــلا (خشــبة) الّــتى قمــت بشراءهــا.. وربما أشــياء أخــرى فعلتهــا ولا تذكرهــا.. كل هــذا قمــت بــه ويشــير إلى تقمصــك لشــخصية (أحمــد خشــبة) تحــت تأثــير ســيطرة الجــزء المتمــرد منــك عــلى عقلــك الواعــى..

وتنهدت مردفة:

- والمخيف فعلاً أنّ كل هذه الأعراض مقدمة لما هو أخطر..

رددت بخوف:

- أخطر..!!..

راقبت للحظة يمامة رماديّة حطت على أغصان شجرة الياسمين، قبل أن تدير عينيها إلىّ قائلة:

- الجزء المتمرد مارس سيطرته على وعيك أثناء انتخابات مجلس إدارة النادى، وهو الّذى فجّر ثورتك على العقيد (سليمان قنديل) عندما طالبك بتعديل النتائج.. توارى الدكتور (حازم أبو زيد) الرصين العالم بحقائق الحياة وبمن يسيطر على مقاليد الأمور فى الجامعة وانفجر (أحمد خشبة) الشاب الطائش الثائر ليمارس نزقه وثورته فيسب الرجل ويكاد يفسد نتائج الإنتخابات تماماً لولا أن عادت السيطرة لعقلك الواعى قبل ضياع كل شئ.. وهذا أخطر ما فى الموضوع.. لو لم نبدأ فى معالجة حالة الإنشقاق الهيستيرى هذه، فستتكفل بضياع مستقبلك السياسى تماماً..

- (بيأس): هذا إن لم يكن ضاع بالفعل..

تشخيص -فكرت- منطقى جداً.. طبيبة نفسيّة بارعة هى حقاً وإنى بها لفخور..

همممففف (زفرة)..

مريضُ أنا إذن بالفعل.. ومرضى ليس بسيطاً.. يا أرحم الراحمين.. رغماً عنى إحتشدت الدموع فى عينىّ.. دفنت وجهى بين كفىّ هامساً بصوتٍ باك:

- يا إلهى..

نهضت لتجلس بجوارى.. إحتوتنى بين ذراعيها، وربتت على كتفى قائلةً بدفء:

- هَوِّن عليك يا عزيزى.. الأمور لم تفلت بعد من أيدينا.. يمكنك أن تكلم الدكتور (زكريّا).. الرجل يحبك.. سيدعمك ويقف إلى جوارك بإذن الله..

إستكنت بين ذراعيها.. تمتمت:

- وماذا عن الإضطراب الإنشقاقى..؟..

ضمتنى بقوّة إلى صدرها وهى تقول:

- سنبدأ برنامج العلاج على الفور.. برنامجنا سيقوم على الإستبصار

بالكيانـات والـذوات التحتيّـة بداخلـك بشـكلٍ أكـبر.. والتعـرف عـلى الرغبـات والإنفعـالات الّـتى تكبتهـا وتقهرهـا فى أعماقـكً.. سـنعمل عـلى التصالـح بـين الكيانـات المختلفـة، وتقويـة نفسـك للوصـول بهـا إلى درجـة مـن النضـج لتسـتطيع تجـاوز هـذه المحنـة.. هـل أنـت معـى..؟..

- (بخفوت): نعم..

أبعدتـنى بذراعيهـا.. حدقـت فى عيـنىّ مباشرة قائلـة بنـبرة جـادة (تسـتدعيها دومـاً فى مواقـف محـددة):

- ولكـن تذكـر.. قبـل أى شئ لابـد أن تؤمـن مـن أعماقـك أنّـه لا إثـم عليـك فيمـا فعلـت.. هـذا أمـر مؤكـد.. مـا تقـوم بـه (إيـجى ـ نيرجـى) سـليم تمامـاً مـن الناحيـة الشرعيّـة، وليـس فيـه شـيئاً ممـا يغضـب الله ويسـتدعى ثورتـك.. واجـه نفسـك بهـذه الحقيقـة واسـتمت فى ترسـيخها بداخلـك.. وفكـر فى المسـتقبل الرائـع الّـذى ينتظـرك، ومـا يمكـن أن يحيـق بـه مـن جـراء أى تهـور..

و عادت تضمنى إلى صدرها مرددة برقة:

- وستشفى إن شاء الله يا حبيبى..

***

أكـثر مـا أثـار دهشـتى هـو تلـك البسـاطة الّـتى تلقـت بهـا الحقيقـة الخفيّـة لشركـة (إيـجى ـ نـيرجى).. توقعـت أن تُصيبهـا صدمـة مـن الذهـول والألـم والخـوف، ولكنـى فوجئـت بتلـك الإنفعـالات تتـوالى عـلى وجههـا ثـم تتلاشى بـأسرع ممـا تولّـدت.. كأنـى كنـت أحـكى لهـا عـن أحـداث خياليّـة أو أحـداث حقيقيّـة تـدور فى مـكان آخـر.. نظـرت لهـا بحـيرة وكأنـى أراهـا للمـرّة الأولى.. هـل هـى إنسـانة قويّـة، أم بـلا قلـب..؟.. أم أنّهـا لـم تسـتوعب بالضبـط مـا أخبرتهـا بـه..؟.. أم أنـى أنـا الّـذى أبالـغ فى ردة فعـلى..؟.. تأملتهـا وهـى واقفـة أمامـى ترفـل فى عبـاءة الصـلاة وأشـجار الحديقـة الخـضراء الزاهيـة مـن خلفهـا.. إمـرأة طيبـة صالحـة هـى.. كافحـت معـى طيلـة السـنوات السـابقة بـلا كلـل أو تعـب، وكانـت مثـالاً للزوجـة حسـنة الدنيـا كمـا أخبرنـا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلّم.. ولكـن..

ثمـة شـعور.. شـعور بسـيط بالحنـق ينبثـق مـن قلـبى تجاههـا.. رغـم كل مزاياهـا إلا أنـى أشـعر أحيانـاً -قليلـة جـداً- وكأنّهـا لا تعبـأ بى.. كأنـى صرت

بالنسـبة لهـا أداة لجمـع المـال والإرتقـاء لمسـتوى إجتماعـى واقتصـادى أعـلى.. أتذكـر إصرارهـا عـلى بقـائى فى الخليـج لسـنوات طويلـة واعتراضهـا الشـديد عـلى عـودتى حـتى لا تضيـع فرصـة جـنى المزيـد مـن المـال.. المواقـف المتزمتـة الّـتى اتخذتهـا مـن أشـقائى أثنـاء توزيـع تركـة والـدى رحمـه الله (وقدرتهـا عـلى تقديـم الأدلـة الشرعيّـة لـكل مواقفهـا حـتى لـو تعارضـت)..

ما تقـوم بـه (إيـجى ـ نيرجـى) سـليم تمامـاً مـن الناحيـة الشرعيّـة، وليـس فيـه شـيئاً ممـا يغضـب الله ويسـتدعى ثورتـك.. واجـه نفسـك بهـذه الحقيقة واسـتمت فى ترسـيخها بداخلـك..

طموحهـا الجـارف وتطلعهـا المتنامـى للأعـلى كان دافعـاً قويّـاً لى دومـاً لتقديـم التنـازلات.. منـذ بـدء عمـلى بالجامعـة كانـت دومـاً حـاضرة.. تلـح وتضغـط عـلىّ لطاعـة ومجاملـة رؤسـائى ولـو عـلى حسـاب العمليّـة التعليميّـة .. فـلان إبـن الدكتـور عـلان لابـد أن يحـرز الترتيـب الأول عـلى الدفعـة حـتى يمكـن طلبـه كمعيـد.. ترتـان لـه موقـف سياسى، ومطلـوب حرمانـه مـن درجـات العمـلى.. مطلـوب عـدم تعيـين معيديـن -رغـم حاجـة القسـم- مـن هـذه الدفعـة لتبقـى أماكـن شـاغرة لعـدد مـن أبنـاء الأسـاتذة فى دفعـة العـام القـادم.. إلـخ.. تنـازلات.. تنـازلات..

همفففف (زفرة)......

أرجـو منـك أن تنـسى لحظـة المصارحـة هـذه.. ولنعـد إلى موضوعنـا.. (أمـل)..؟.. مـاذا عنهـا..؟.. ألـم أخـبرك بحكايتهـا..؟.. لـم أسـتكملها ..؟.. عجبـاً..!!.. ظننتـنى فعلـت..؟..

***

-٢٣-

أمل الشافعى

fine.. أبـدلى ثيابـك، وسـتجدين (لاندروفـر) سـوداء تحمـل رقمـاً مفـرداً بانتظـارك أمـام مدخـل بيتـك.. سـيكون المسـتر (فريـد شـهاب الديـن) المستشـار القانـونى لـ (Egy – Nergy) بانتظـارك داخلهـا.. سـيكون عليـكِ الذهـاب معـه ولا تنـسى الـلاب تـوب..

***

ألقيـت نظـرة حـذرة عـلى (اللاندروفـر) مـن أعـلى سـطح البيـت.. سيّارة فاخـرة بالفعـل تشـغل أكـثر مـن نصف عـرض شـارعنا الضيّـق.. نظـرة أخرى عـلى بقيّـة الشـارع.. كل شئ يبـدو طبيعيّـاً.. تراجعـت للخلـف..

....

....

....

مـا الّـذى سـأجنيه مـن انضمامـى إليهـم..؟.. الـثروة..؟.. النجـاح..؟.. النعيـم..؟.. الأمـان..؟.. حسـناً.. كـم سـأعيش إذن لأتمتـع بـكل هـذا..؟.. عـشر سـنوات مثـلاً..؟.. عشريـن..؟.. لنقـل أربعـين مثـلاً.. جميـل.. مـاذا بعـد إذن..؟.. مـا الّـذى سأحتفظ بـه معـى يـوم يضعـون جسـدى فى القـبر ويهيلـون عليـه الـتراب..؟..

كان (كمـال فـودة) يتكلـم ببـطء وثقـة كاسـحة كأنـه القـدر، بينمـا رأسى يمـوج بأفـكار محمومـة يرتجـف لهـا جسـدى.. سـأموت وأقـف أمـام خالقـى وخالقـه وخالـق السـماوات والأرض يـوم المشـهد العظيـم.. مذنبـة.. كـسيفة.. منكسـة الـرأس.. مرتعشـة البـدن.. مُحَمَلـة بالجرائـر.. سيسـألنى لِمَ شـاركت فى قتـل وتعذيـب عبـاده.. بـم سـأجيب..؟.. سـأقول: لـم أعـذب أحـداً يـا رب.. ولكنّـك شـاركت بالصمـت.. عرفـت الحـق ولـم تجهـرى بـه.. كان بوسـعك إنقاذهـم مـن الألـم والعـذاب، ولكنّـك آثـرت السـكوت.. كنـت

خائفة يا رب.. ولكن بِمَ سأجيب إذا سألنى لِمَ خفت منهم ولم أخف من خالقهم..؟..

هبّت نسائم باردة من الشرفة إقشعرّ لها جسدى وجعلت الستائر تطاير بقوة.. كنت واقفة وسماعة الهاتف المحمول فى أذنى.. (كمال فودة) يتكلّم ويتكلّم.. متى يمكن أن يحدث هذا..؟.. الآن..؟.. ما المانع..؟.. لربما كان ملك الموت يدنو منّى فى هذه اللحظة بالذات.. إرتجف جسدى لهول الفكرة..

قال (كمال فودة):

- أمامك مسز (أمل) الفرصة للقفز من خندق العناصر غير ذات المعنى فى معادلة العالم الجديد، إلى وضعٍ آخر.. حقيقى ومجسد.. ليس مجرد طنطنة وجعجعة بلا طحين..

Pleace.. كونى موضوعيّة وتحررى من أيّة شعارات بالية وحماقات عاطفيّة..

هلا أبلغتنى بقرارك..؟..

بدا لى صوته -على عكس ما كان منذ لحظات- ضعيفاً خافتاً مختنقاً، وكأنه صادر عن قزم قمئ.. إلتقطت نفساً عميقاً..

- (بصوت مبحوح): تريد قراراً يا مستر (كمال)..؟..

- Sure..

....

....

....

هَتفتَ بلوعة:

- ولماذا أنت بالذات وليس غيرك..؟..

تنهدت.. جذبتها برفق إلى باب الشرفة المفتوح.. أشرت إلى شجرة مجاورة لسورها.. إلى عصفور رائع الجمال يقف بين الأوراق الخضراء.. يمد منقاره القابض على بعض الطعام، ويسقطه -الطعام طبعاً- فى أفواه صغاره القابعين فى عِشّهم..

- هل ترين هذا العصفور الّذى يطعم صغاره..؟.. يغادر عشه

فجراً.. يظل يحلق فى السماء حتى يرجع بالطعام إلى الصغار.. ٥ذه هى مهمته المقدسة فى هذه الدنيا..

وربتّ على وجنتها وحاولت أن أبتسم وأنا أتابع:

- النار تحرق.. الماء يسقى.. الشمس تضئ وتدفئ.. الهواء.. الزهور.. القمر.. البحر.. الكل له دور جاء إلى الدنيا لأدائه.. ونحن بنو آدم لسنا إستثناءً.. ولا أحد له أن يقوم بدور آخر.. هل أنت معى..؟..

لم ترد.. خيطان من الدموع صنعا مجريين لامعين لهما على وجنتيها عصرا قلبى عصراً.. إحتضنتها بقوّة هامسة:

- إعتنى بنفسك جيداً..

قلتها وأسرعت أغادر الشقة.. سمعت صوتها الباكى من خلفى ينادينى، ولكننى لم أتوقف.. رحت أصعد الدرج بسرعة إلى السطح وأنا أكتم دموعى بصعوبة..

....

....

....

أخذت نفساً عميقاً لأتمالك نفسى.. خطوت بحذر على أرض السطح الملئ بالكراكيب ومخلّفات البناء.. صياح الدجاج القادم من العشّة الخشبيّة المجاورة يملأ المكان..

تشبتّ بأسياخ الحديد البارزة من بلاطة السطح، ومددت ساق لأنتقل إلى سطح البناية الملاصقة محاذرة السقوط فى المنور المشترك بين البنايتين.. هبطت سلالم البناية بسرعة.. نظرة من بين فراغات الزخارف الرديئة الّتى تملأ حديد باب المدخل.. اللاندروفر مازالت متوقفة فى موضعها.. إرتديت منظارى الشمسى ورفعت ياقتىّ معطفى.. أزحت الباب الثقيل ببطء، وانسللت من الفتحة بين الضلفتين.. مشيت بخطوات واسعة نحو مدخل الشارع المزدحم.. الخوف كل الخوف أن..

- (صوتٍ عال): إتفضلى يا دَكتورة..

هوى قلبى بين قدمىّ.. بالله عليك يا عم (حبشى).. دعنى وشأنى هذه المرّة.. تجاهلته وزدت من إتساع خطواتى و..

- (بصوتٍ أعلى): دكتورة (أمل).. إتفضلى نوّرينا..
الله يخرب بيتك.. إختلست نظرة من وراء كتفى كانت كافية جداً لألمح أبواب اللاندروفر تنفتح ويغادرها عملاقين يرتديان البذل و المناظير الداكنة..
- مدام (أمل)..
جاءت هذه بالطبع من أحدهما.. لم أتوقف طبعاً.. كان الرعب قد سرى فى كيانى كله كالكهرباء، فلم أدرِ بنفسى إلا وأنا أعدو بكل قوتى نحو مدخل الشارع.. لابد أنّ أهل الشارع وأصحاب الحوانيت المجاورة لن ينسوا منظر المدام المحترمة الّتى يعرفونها منذ سنوات وهى تعدو هاربة من مطاردة رجلين لها..
كانت سيّارتى مازالت فى موقع التصوير فى الساحل الشمالى (لا تنس أنّ ميخائيل هو من أقلّنى إلى هنا عقب سقوطى صباح أمس)..

هل كان هذا منذ أربعة وعشرين ساعة فقط..؟!!..

وحتى لو كانت هنا، فلم تكن لدىّ أى فرصة لبلوغها..
إخترقت الشارع المزدحم بصعوبة.. لم أتوقف لحظة أو ألتفت خلفى.. وصلت شارع (لاجيتيه).. الزحام هنا أخف قليلاً.. أجرى.. ألهث.. أكاد أنكفئ على وجهى.. أستعيد توازنى.. أجرى.. كنت بعيدة النظر عندما إرتديت حذائى الكاويتشوكى..
- مدام (أمل).. توقفى..
تضاعف رعبى.. هم مصرون على اصطيادى.. اللعب الآن صار مكشوفاً.. منّك لله يا عم (حبشى).. كانت لتكون مناورة ناجحة أربح بها وقتاً لأختفى وأرتب أوراقى، ولكنّك نسفتها تماماً بصوتك الجهورى هذا.. ألهث.. أنا فى الأربعين من عمرى.. جسدى صار ممتلئاً لا يسمح بهذه المغامرات.. أجرى.. أتنفس بصعوبة..
محطة ترام (الإبراهيميّة).. الترام أصفر اللون يغادر ببطء.. إلى أين..؟.. لا أعلم.. أجرى.. ألهث.. أجرى.. عربات الترام تزداد سرعة.. أثب درجات المحطة القليلة.. أعدو على الرصيف.. ألهث.. الناس تنظر

لى بدهشـة.. أسمـع خطـوات ركـض العملاقـين مـن خلفـى.. أكاد أشـعر بأطـراف أصابعهمـا الممـدودة تلمس طرحـتى.. بمـا تبقـى لى مـن قـوّة أثـب لأتعلّـق بالعمـود المعـدنى المثبـت بمدخـل عربـة الـترام الأخـيرة.. أتشـبت بـه.. آلام مبرحـة فى ذراعـى.. أسـمع شـهقة.. الـترام يتجـاوز المحطـة.. وجـوه الـركاب تحـدق بى فى دهشـة.. الأذرع تمتـد لتسـحبنى و..

هنـا شـعرت بالأصابـع القويّـة تلتـف حـول كاحـلى.. شـهقت برعـب.. أدرت رأسى فوجـدت أحـد العملاقـين يتشـبت بحافـة بـاب العربـة بيـد، ويقبـض عـلى كاحـلى بالأخـرى.. صرخـت بفـزع وأنـا أحـاول جـذب سـاقى مـن بـين أصابعـه الفولاذيّـة.. الـركاب متجمـدون فى أماكنهـم.. الوغـد متشـبت بقـوّة.. خصـلات شـعره تطايـر مـع اندفـاع الهـواء بسـبب سرعـة الـترام، وشـبح إبتسـامة يتلاعـب عـلى شـفتيه وكأنـه يقـول لى «لـن أتـركك فـلا تتعـبى نفسـك بالمقاومـة»..

بادج أحمر مستدير يحمل حرفىّ (E.N) مثَبت على صدر سترته..

يضـع قدمـه عـلى إحـدى درجـات سـلم المدخـل.. كيانـه يتضخـم أمـام عيـنىّ المذعورتـين حـتى ليـكاد يسـد فتحـة البـاب و..

وفى اللحظـة التاليـة سـمعت دوى إرتطـام هائـل.. تخلت الأصابـع الفولاذيّة عـن سـاقى، واختفـى العـملاق مـن أمامـى.. تعالـت صرخـات الـركاب.. إندفع كثـيرون منهـم ليطلـوا مـن الشـبابيك.. كلام كثـير.. إسـتغرقت وقتـاً لأفهـم أنّ جسـد العمـلاق (وكان نصفـه لا يـزال خـارج العربـة) إصطـدم بـأحـد أعمـدة الإنـارة المزروعـة عـلى جانـب قضبـان شريـط الـترام فأطـاح بـه..

كنـت مازلـت راقـدة عـلى الأرض.. صـدرى يعلـو ويهبـط، وقلـبى ينبـض بعنـف.. أنهضـونى وأجلسـونى عـلى أحـد المقاعـد.. التعليقـات والأسـئلة تنهمـر مـن حـولى كالمطـر.. لـم أجـد بى قـدرة عـلى التفـوه بحـرف مـن فـرط الإجهـاد والانفعـال.. بأصابـع مرتعشـة أشـعلت سـيجارة.. شـعرت بسرعـة العربـة تنخفـض، فأدركـت أن محطـة (كامـب شـيزار) قـد دنـت..

***

كـان إسمه أول من ورد على ذهنى عندما بدأت الأحداث الأخيرة..

إستغربت جداً.. كمّ مضى من الزمن على المرّة الأخيرة الّتى وقعت فيها عيناى عليه..؟.. عشر سنوات تقريباً.. لا أقل من هذا..
كان آنذاك شاباً نحيفاً.. طويل القامة.. ليست بملامحه وسامة زائدة أو قبح زائد.. ملامح عاديّة جداً تجد مثلها الكثير فى وجوه جيرانك أو زملائك بالعمل أو الجالسين قبالتك بالترام..
فقط تميّزه تلك النظرة المفعمة بالثقة والإصرار والتحدى.. نظرة شخص يعرف ما يريد.. ويعرف أنه سيحقق ما يريد.. أو على الأقل لن يهدأ له بال حتى يحقق ما يريد..
(أحمد بشير الهلالى).. طالب الحقوق المشاغب.. الثائر المتحمس.. الناصرى المخلص، وصداع الأمن بجامعة (الإسكندريّة).. كنت قد حدثتك عنه من قبل لو تذكر..

أذكر أنّ نوعاً من التنافس على قلبى إشتعل بينه وبين (بشير الهلالى) طالب الحقوق الشاب، وصاحب الميول السياسيّة الناصريّة الّتى جلبت على رأسه الكثير من المشاكل..

دعك من أنّ (بشير) كان يغادر المعتقل ليعود إليه مرّة أخرى، وانتهى من دراسة الحقوق فيما لا يقل عن التسع سنوات..

كم مرّة تحوّل للتحقيق..؟.. كم مرّة تعرّض للفصل..؟.. كم مرّة تعرض للإعتقال..؟..
مرّات عديدة.. سنوات ضاعت من عمره بين المعتقلات.. مِحَن عِدّة تعرض لها كوفاة والدته مثلاً وهو معتقل على ذمّة إحدى قضايا أمن الدولة (قُبض عليه أثناء قيادته لمظاهرة طلابيّة ضد التطبيع فيما أذكر).. الشلل الّذى أصاب ثلاثة من أصابع يده اليمنى من جراء التعذيب الوحشى.. ومآس غيرها خرج منها قويّاً متماسكاً بفضل صلابة نادرة إمتاز بها دوماً..
علاقتى به..؟.. بدأت مع عامى الدراسى الثانى بكليّة الإعلام.. فى ندوة نظمها مجلس الكليّة حول العلاقة بين الديمقراطيّة والإصلاح، وكان

رئيس الـوزراء ضيفـاً عـلى النـدوة.. فى مثـل هـذه الحـالات يتـم اختيـار أسـماء الحضـور مـن الأسـاتذة والطلبـة بدقـة شـديدة بحيـث لا يـُسمح بحضـور النـدوة إلا للعنـاصر المعروفـة للأمـن وإدارة الجامعـة بولاءهـا للحـزب أو عـلى الأقـل العنـاصر الغـير مثـيرة للمتاعـب.. وذلـك حـتى لا تحـدث أثنـاء النـدوة أيّـة منغصـات قـد تسـبب حرجـاً للضيـف العظيـم أو لإدارة الجامعـة..

لا أحـد يعـرف كيـف تمكـن (بشـير الهـلالى) -كـذا كنّـا نناديـه متجاوزيـن إسـمه الأوّل- مـن تجـاوز النطـاق الأمـنى المحكـم، والتسـلل إلى قاعـة النـدوات.. كنـت جالسـة بـين رفيقـاتى نسـتمع إلى حديـث سـيادة رئيـس الـوزراء المكـرر حـول الخطـوات الواسـعة الّتى قطعتهـا الحكومـة فى مسـيرة الإصلاح، عندمـا عـلا صـوت (الهـلالى) كالرعـد مـن بـين مدرجـات الفتيـان:

- عن أى إصلاح تتكلّم يا دكتور والبلد يحتضر منذ عقود..؟..

مازلـت حـتى الآن أذكـر تلـك اللحظـات القليلـة الصامتـة المشـحونة بالكثير مـن الإنفعـالات والّـتى مـرّت عقـب هتـاف (بشـير).. أذكـر امتقـاع وجـه رئيس الجامعـة واحتقـان وجـوه نوّابـه.. وحـده رئيـس الـوزراء هـو الّـذى تمالـك نفسـه بحنكـة إكتسـبها خـلال سـنوات بقائـه فى منصبـه (وكانـت آنـذاك قـد جـاوزت الخمـس سـنوات).. إكتـسى وجهـه بابتسـامة الرجـل الديمقراطـى الّـذى يرحـب بمناقشـة جميـع الآراء حـتى المعارضـة لرأيـه.. قـال:

- من الّذى يحدد ما إذا كان البلد ينمو أو يحتضر..؟..

بدا الفتى -آنذاك- قوياً واثقاً وهو يجيب:

- أحوال الناس..

- (مبتسـماً): أحـوال النـاس مـن الحسـن إلى الأحسـن.. الدخـول فى إزديـاد دائـم .. العـلاوات فى إرتفـاع مستمر.. الغـذاء مدعـوم.. الكسـاء مدعـوم.. العـلاج مدعـوم.. الكهربـاء مدعومـة.. معـدل النمـو يرتفـع عـاماً بعـد عـام.. النـاس مرتاحـة ومبسـوطة.. مـا الّـذى يضايقـك أنـت..؟..

قالهـا وهـو يفتـح كفيّـه ويتلفـت حولـه بحركـة مسرحيّـة المقصـود بهـا اسـتجلاب السـخرية مـن كلام (الهـلالى) الّـذى هـدر صوتـه:

- النـاس المرتاحـة المبسـوطة هـم فقـط المسـئولين أمثـال سـعادتك يـا دكتـور.. أمـا أهـل البلـد الحقيقيّـون فيعيشـون حيـاة إلى المـوت أقـرب..

إهبـط يـا دكتـور إلى الأحيـاء والحـوارى وشـاهد النـاس وهـم ينبشـون القمامـة بحثـاً عمّا يسـد رَمَقهـم.. وهـم يحفـرون الأرض بأظافرهـم بحثـاً عـن المـاء.. وهـم يذبحـون بعضهـم البعـض للظفـر برغيـف عيـش.. رغيف عيـش يـا دكتـور..

مـع آخـر حـروف كلماتـه إندلـع التصفيـق مدويـاً مـن بـين أكـف الحاضريـن مـن الطلبـة والأسـاتذة، وقـد إنتشـوا لوجـود مـن يـصرخ بمـا يرونـه ويعلمونـه وتمتـلئ بـه صدورهـم، وكنـت أنـا أكثرهـم حماسـة.. وبـدا لى (الهـلالى) لحظتهـا بـطـلاً شـامخاً قادمـاً مـن عالـم الأسـاطير.. شـجاعاً لا يـتردد فى البـوح بـكل مـا يمـلأ صـدور الجالسـين العاجزيـن عـن الفعـل مثلـه.. إنتقلـت عينـاى إلى رئيـس الـوزراء الّـذى ظـل محتفظـاً بالإبتسـامة إياهـا، وقـال (بعـد أن انتهـى التصفيـق طبعـاً):

- أنـت شـاب متحمـس، ولكـن تنقصـك الموضوعيّـة.. بالتأكيـد هنـاك مشـاكل وسـلبيّات عـدة، ولكـن مـن الجيّـد أن تنظـر أيضـاً إلى النصـف المملـوء مـن الكـوب.. مشـكلتك أنـت وأمثالـك مـن الشـباب أنكـم تأخـذون ثقافتكـم مـن صحـف المعارضـة الّـتى لا تبغـى سـوى الإثـارة والتحريـض.. ولكـن لـو هبطتـم إلى الواقـع ونظرتـم حولكـم بحياديّـة لوجدتـم إنجـازات كبـيرة تحققـت وتتحقـق..

- إذا كنـت تتحـدث عـن الواقـع الخيـالى المصنـوع عـلى شاشـات التليفزيون الحكومـى، فلـك كل الحـق فيمـا تقـول وأكـثر.. أمـا الواقـع الحقيقـى فنحـن مغموسـون فيـه حـتى شـعورنا.. نعـانى ونشـقى ونتعـذب..

بـدأت الإبتسـامة المسـتفزة تتـلاشى مـن عـلى شـفتىّ الرجـل، وهـو يقـول بنـبرة تحمـل الغضـب:

- هنـاك برلمـان منتخـب يدافـع عـن حقـوق المواطنـين ويحاسـب الحكومـة إذا قـصَّرت فى أداء واجبهـا..

- (متهكمـاً): ذاك برلمـان يعـرف القـاصى والـدانى كيـف تـم انتخابـه.. أقصـد تعيينـه بواسـطة ضبـاط الشرطـة وأمـن الدولـة وتحـت إشراف لجنـة السياسـات بالحـزب..

إحتقن وجه الرجل وهو يقول غاضباً:

- لا تردد كلاماً لا دليل عليه.. هذا يعرضك للمساءلة القانونيّة..

- الأدلة ملء الأسماع والأبصار لمن يريدها يا دكتور..
هنا تدخل رئيس الجامعة.. أمسك بالميكروفون وصاح:
- أخرجوا هذا الوقح..
تحرك رجال الأمن وكأنّما تم توصيلهم بقابس كهربى.. هرعوا يجذبون الفتى من ملابسه ويدفعونه خارج قاعة المؤتمرات وهو يردد بصوتٍ مدو:
- كفى غشاً وخداعاً.. إنكم تعتصرون أرواح النّاس عصراً بينما ألسنتكم لا تتوقف عن ترديد الأكاذيب.. لو كنت صادقاً أخبرنا ماذا حدث لصاحب العبّارة والوزير الّذى سرطن الناس والمليارديرات الّذين نهبوا ثروة الشعب وفرّوا إلى الخارج و.. و..
ظل يهتف ويهتف بينما الأمن يجرّه من ثيابه حتى تلاشى صوته تماماً مع خروجه من القاعة..

إنكم تعتصرون أرواح النّاس عصراً بينما ألسنتكم لا تتوقف عن ترديد الأكاذيب..

يالله.. هل كنت تقرأ المستقبل حقاً يا (بشير)..؟!.. هل كنت تعلم شيئاً عن مشروع (إيجى ـ نيرجى)..؟!.. لكم كنت دقيقاً صائِباً.. ولكم كنت قويّاً عندما دفعت ثمن نضالك من صحتك وسنوات عمرك الّتى ضاعت فى المعتقلات..
أين صرت يا (بشير)..؟.. وماذا فعلت بك الأيّام..؟.. ما سمعته عنك منذ سنوات أنّك نزحت إلى (القاهرة) وافتتحت مكتباً للمحاماة هناك.. أمازلت معارضاً متحمساً كما كنت..؟.. أم أنّ اليأس تملّكك ومرور الزمن أنهكك..؟.. هل تذكرنى..؟..
آخر لقاء تم بيننا عندما حضرت لتعزيتى فى وفاة (مجدى).. طلبت منّى آنذاك أن أوكلك لترفع قضيّة تعويض تختصم فيها إدارة المستشفى الّتى تسببت فى موت طفلى ووزير الصحة، بل ورئيس الجمهوريّة ذاته.. ساعتها رفضت أنا الأمر تماماً، ولم تُجد محاولاتك معى محاولاتك لإقناعى فتيلاً.. كنت أرى أنّه ما من فائدة أجنيها من وراء كل هذا بعد

أن خسرت ما هو أغلى وأثمن من أى شئ.. أسرتى.. بل على العكس.. ستنفتح أبواب الجحيم فوق رأسى ورأس أهلى من وراء تحدى الكبار، حتى لو كان ذلك قانونيّاً، ولن يغفروا لى أبداً ما سيصيبهم جراء هذا.. أمّا أنت فكنت متحمساً كعادتك..

- حالة طفلك الراحل ليست الوحيدة.. هناك المئات يلقون نحبهم سنويّاً فى المستشفيات بسبب الإهمال وقلة الخبرة.. وينبغى محاسبة جميع المسئولين عن هذه الجرائم البشعة، حتى نضع حداً لها..

- محاسبة الطبيب أو مدير المستشفى أو حتى عميد كليّة الطب ممكن.. و لكن رئيس الجمهوريّة..؟!!..

- أولهم رئيس الجمهوريّة لأنّه هو ونظامه المسئولين ولا أحد سواهم عن وضع هؤلاء الفشلة على مقاعدهم..

وإزاء إصرارى على الرفض، غادرت أنت غاضباً.. أذكر جيّداً كلماتك الأخيرة الّتى ألقيتها على مسامعى أثناء توديعى لك على درج البناية..

- تذكرى جيّداً أنّ نقطة الخلاف بينى وبين (مجدى) رحمه الله كانت فى أنّه يتجاهل السبب الأصلى للمشكلة، ويفضل الدوران حولها وإحتوائها كما تفعلين أنت الآن.. كان ينادى بالإصلاح ويتجاهل دعاوى الثورة والتغيير الّتى صرخ بها شرفاء كثيرون.. وصدقينى وفاة طفلك وزوجك من بعده ما هما إلا آثار ذلك الفساد الّذى نخر أعمدة البلد، والّذى تجاهل زوجك وتتجاهلين أنت الآن أنّ منبعه هو الرأس وليس القاعدة..

قد نتفق أو نختلف أنا وأنت و(مجدى) رحمه الله فى الأساليب، ولكن كل منّا يعرف أنّ الآخر ليس وغداً ولا أفّاقاً.. فرغم خلافكما، كان (مجدى) يردد دائماً أنّكما تتحدثان بلغتين مختلفتين ولكنّكما تقولا نفس الكلام، وكان احترامه لك لا يهتز..

(بشير).. هل تسمعنى..؟..

أنا فى ورطة يا (بشير).. البلد كلها كذلك.. ستقول لى أنها كذلك منذ دهر، ولكننى أحمل لك تفاصيل مرعبة أثق أنّها ستصيبك بالذهول.. لا أعرف أحداً سواك يمكننى اللجوء إليه والإعتماد عليه..

أين أنت يا (بشير) ..؟..

***

غـادرت الـترام مسرعـة وسـط نظـرات الـركاب مـن محطـة (كامـب شـيزار).. حالـة مـن التوجـس والخـوف إنتابتهـم فلـم يجـرؤ أحدهـم عـلى اسـتيقافى، حـتى الكمسـارى لـم يطالبـنى بقطـع تذكـرة.. الشـارع الرئيـسى مزدحـم.. لـو كانـت اللاندروفـر ورائى، فلـن تسـتطيع اللحـاق بى وسـط هـذا الزحـام.. جسـدى لا يـزال يرتعـش مـن انفعـال المواجهـة السـابقة.. أسـمع رنـين هاتفـى المحمـول..

- هل تعرفين ما فعلت بنفسك أيّتها العاهرة..؟..

قالها بالأمريكيّة وبصوتٍ بارد مشحون بغضب هائل..

- ....

- هـل تظنـين أنّـك بوسـعك عمـل شئ..؟.. هـل تعتقديـن أنّـك قـادرة عـلى تحـدىّ..؟.. ألا تعرفـين يـا سـافلة أنّـكِ سـتكونين فى قبضـتى خـلال دقائق..؟..

إلتقطت نفساً عميقاً لأتمالك نفسى، وقلت:

- مسـتر (كمـال).. لا رد عنـدى عـلى أسـئلتك.. ولكـن لى تعليـق واحـد يـردده أحيانـاً المصريـون الّذيـن ترغـب أنـت فى إمتصـاص أرواحهـم.. هـل تحـب سـماعه..؟..

- ما هو..؟..

- يحموك فـ كنكة..

وفى اللحظـة التاليـة كان الهاتـف المحمـول يسـبح فى الهـواء، ثـم يهـوى ليتهشـم عـلى أسـفلت الشـارع قبـل أن تسـحقه عجـلات السـيّارات، وهـى خطـوة تأخـرت عليهـا كثـيراً، لأنـى أعلـم أن تكنولوجيـا التتبـع عـبر الأقمـار الصناعيّـة تسـتطيع بسـهولة التوصـل إلى مـكانى عـن طريـق هاتفـى المحمـول..

رحـت أجـد السـير مسرعـة بـين الشـوارع والطرقـات.. فى تلـك اللحظـات مـلأنى شـعور غريـب.. لـكأنّ حمـلاً ثقيـلاً كان يجثـم عـلى صـدرى ويخنـق أنفـاسى إنـزاح لتـوّه.. شـعرت بنفـسى خفيفـة تـكاد قدمـاى لا تلمسـان الأرض.. شـعور عـارم بالثقـة أفعمـنى.. أنـا قويّـة.. وقويـة جـداً كذلـك.. وسـأغلب هـؤلاء السـفلة بـإذن الله..

دلفـت إلى مكتـب إتصـالات.. وطلبـت رقمـاً مـن الفتـاة السـمراء المحجبـة الواقفـة خلـف الكاونـتر الخشـبى.. أشـارت لى بدخـول إحـدى الكبائـن

ففعلـت..
- (بغضب): أين ذهبت يا هانم..؟..
(محمـود) -شـقيقى الأكـبر- عصـبى جـداً.. لاريـب أنّ أمـى اتصلـت بـه مولولـة وأخبرتـه بمـا كان مـنّى..
- إسمعنى..
- أمّـك منهـارة تمامـاً.. مَـن هـؤلاء النـاس الّذيـن كنـت تجريـن منهـم فى الشـارع..؟..
بهـذه السرعـة..؟!!.. طبعـاً.. بالتأكيـد صـدم منظـرى -وأنـا أعـدو فى الشـارع- الكثيريـن ممـن يعرفونـى وممـن لا يفعلـون.. ولابـد أنّ العديـد منهـم هرعـوا إلى بيتنـا ليسـتفسروا..
- سأخبرك فيما بعد.. فقـ..
قاطعنى غاضباً:
- بل ستخبريننى الآن..
- إسـمعنى..
قلتها بصـوتٍ عـال ولهجـة حـادة لـم يألفهـا مـنّى.. بُهِـتَ للحظـة فأسرعت بكلمـات سريعـة أخـبره بأنـى أعـانى مشـكلة ضخمـة فى عمـلى سـتضطرنى للسـفر لفـترة قـد تطـول، وطلبـت منـه أن يبـذل مجهـوداً مـع أمـى لإقناعهـا بالسـفر معـه إلى (جـدة) حـتى لا تبقـى بمفردهـا فى البيـت..
بان القلق واضحاً فى صوته وهو يقول:
- ما الأمر بالضبط يا (أمل)..؟.. ومن الّذين كانوا يطاردونك..؟..
تنهدت قائلة:
- ثـق أنـى بخـير وأمـان.. هـو تحقيـق صحفـى أقـوم بـه لا مجـال لـسرد تفاصيلـه الآن.. إدع الله أن يوفقـنى..
- وكيف سأعرف أخبارك..؟..
- إن شـاء الله سـأكون عـلى اتصـال مسـتمر بـك.. إتفقنـا..؟.. أسـتودعك الله..
- إنتظرى.. ماذا عن (إيهاب)..؟..
شـعرت مـع سـؤاله بغصـة فى حلقـى.. صمـتّ للحظـات، ثـم أجبتـه بصـوت مبحـوح:

- أخـبره بأنـى لـن أجـد مـن هـو أفضـل منـه.. ولكنـى لسـت مسـتعدة الآن للـزواج..
- لماذا يا (أمل)..؟.. أخبريني بما يجرى..
- الوقت لن يسمح.. إلى اللقاء..
- إنتظرى.. ماما تريد محادثتك..
- لن أستطيع.. إلى اللقاء..
أنهيت الإتصال وأسندت رأسى إلى جدار الكابينة الخشبى.. دمعة باردة سالت على وجنتى.. لم أكن مستعدة لسماع صوتها الحبيب الملتاع فى هذا التوقيت.. أنا بحاجة إلى كل مؤازرة ودعم للحرب القادمة، وتوسلات أمى لى بالعودة هى آخر ما ينقصنى.. أزحت باب الكابينة وقلت للفتاة الجالسة خلف الكاونتر:
- رقم آخر من فضلك يا آنسة..

_***

- أين أنت يا ريّسة..؟.. طلبتك أكثر من مرّة ووجدت هاتفك مغلق.. كيف حال صحتك الآن..؟.. وكـ..؟..
قاطعته وأنا أبتسم رغماً عنّى:
- توقف عن الثرثرة واسمعنى..
- تحت أمرك..
- أين أنت الآن..؟..
- خرجت لتوى من القدّاس بـ (مار جرجس).. سأذهب إلى المكتب على الفور..
- إسمعنى جيّداً.. لدىّ مرصلحة عاجلة سأضطر للسفر من أجلها.. ستتولى إدارة المكتب بنفسك وتقوم بتنفيذ الحلقتين المتبقيتين من البرنامج، وإستلام ما تبقى من دفعات حسابنا من المحطة.. وسيكون بيننا اتصال مستمر إن شاء الله..
- هل ستتغيّبين كثيراً..؟..
- العلم عند الله.. هناك شئ آخر..
- (باهتمام): ما هو..؟..
صمتّ للحظة ثم قلت:

- الأعمار بيد الله.. لو قدّر لى الله ألا أرجع، فسيكون المكتب مسئوليتك.. سأرسل لك بإذن الله توكيل رسمى بالبيع والتصرف فى الأملاك.. إنقل ملكّية نصف المكتب إلى حوزتك، والنصف الآخر ستبحث عن مشترٍ له.. هل أنت معى..؟..

- (منزعجاً): لِمَ تقولين هذا الكلام يا ريّسة..؟..

- قيمة النصف المباع ستوزع على ورثتى وفقاً للشرع.. وأنا واثقة تماماً من أنّك ستتصرّف بأمانة..

فوجئت بصوته يتهدج بالبكاء وهو يقول بحرارة:

- أنا لا أريد شيئاً يا ريّسة.. فقط عودى لنا بالسلامة..

إنهمرت الدموع من عينىّ وأنا أقول:

- تَمنّ لى التوفيق يا (ميخائيل)..

- سأصلى من أجلك.. وستعودين سالمة إن شاء الله..

- شكراً يا صديقى العزيز..

***

- (مصر).. (مصر).. اللى نازل (مصر).. اللى نازل (مصر)..

إتخذت موضعى فى الميكروباص إلى جوار النافذة فى الصف قبل الأخير.. أنظر عبر زجاج النافذة.. المَوقف مزدحم بالرائحين والغادين.. الكل يتحدث.. الكل يدخن.. الكل يتعارك.. الكل يضحك..

تتششششش..

أنظر إلى يمينى عبر النافذة الأخرى، فأرى ذلك الفتى النحيف الأسمر يقذف -بسرعة البرق- قطع العجينة الخضراء فى وعاء الزيت المغلى، وبعدها بثوان يمد المغرفة فيلتقط بها أقراص الفلافل ذهبيّة اللون رائعة الجمال شهية الرائحة تلتمع بالزيت..

- (مصر).. (مصر).. اللى نازل (مصر)..

الشمس متوارية كعادتها فى ذلك الوقت من السنة خلف الغيوم.. عربات الميكروباص لا تتوقف عن الحركة جيئةً وذهاباً.. إلى جوارى سيّدة عجوز بدينة ترتدى السواد وتحمل كيساً بلاستيكيّاً تفوح منه

رائحـة رنجـة واضحـة.. تسـألنى وهـى تلهـث:
- هِىّ العربيّة دى بِتنَزِّل فين فـ (مصر) يا بنتى..؟..
فتحـت فمـى لأجيـب عندمـا تطـوع رجـل أصلـع كـث الشـارب يجلـس فى المقعـد الّـذى يسـبقنا بالإجابـة:
- (عبود) إن شاء الله يا حاجة..
- (مصر).. (مصر).. اللى نازل (مصر).. اللى نازل (مصر)..

الجـو بـارد.. مـن تليفزيـون المقهـى القريـب أسـمع (تامر حسـنى) يـردد أن «كل مـرّة أشـوفك فيهـا.. بابقـى نفسى آ.. آ..».. العربـة تتمايـل وتتأرجـح إذ يدخلهـا رجـل ملتـح ضخـم يرتـدى الجلبـاب الأبيـض.. يحـنى رأسـه ويتحـرّك بصعوبـة حـتى يسـتقر عـلى الأريكـة الخلفيّـة ورائى.. رائحـة المسـك الّـتى تفـوح منـه تفعـم أنفـى فتطـرد منهـا رائحـة الرنجـة..

- (مرسى مطروح).. واحد (مرسى مطروح)..
- و(المـرسى ابـو العـباس) مـا انـت محمـل نفـر واحـد قبـل مـا أطلـع انـا يـا بـن الوسـخة..
شخرة مجلجلة تدوى فى الفضاء ثم..
- عشـنا وشـفنا اليـوم اللـى ولاد الـ «.....» بتـوع (غيـط العنـب) طلـع لهـم فـيه صـوت.. طـب ورحمـة شرف أمـك مـا انـت محمـل النهـاردة نفـر واحـد يـا «...» يـا بن الـ «.....»..
«أجيلـك أقولـك إنّـك كلـك عـلى بعضـك عــندى بالحيـاة.. طـب آ.. آ..».. الرجـل الملتحـى مـن خلفـى يزفـر بضيـق مـردداً: «أسـتغفر الله العظيـم».. أصـوات الصفعـات واللكمـات والسـباب البـذئ المنهمـر كطلقـات المدفـع.. الأجسـاد تتدافـع والأذرع تمتـد لتحـول بـين المتعاركـين..
- (عامريّة).. (عامريّة).. اللى نازل (العامريّة).. (عامريّة)..

ياللتفاصيـل الحبيبــة الّــتى تحيـط بنـا طيلـة الوقــت دون أن ننتبـه إلى حميميّتهـا .. فقـط نستشـعر مذاقهـا عندمـا نفتقدهـا.. تنهـدت.. لو اسـتمرت (إيجـى ـ نيرجـى) -فكـرت- فى عملهـا، فسـتتلاشى كل هـذه التفاصيل

فى غضـون السـنوات القليلـة المقبلـة..

أتنقـل مـا بـين فيـس بـوك وتويـتر و(مـصراوى) و(الدسـتور الأصـلى) والجزيـرة عـلى محمـول جديـد -ابتعتـه قبـل سـاعة- دون أدنى تركـيز.. طويت الجريـدة وأسـبلت جفنـىّ.. العربـة تتحـرّك أخـيراً لتغـادر الموقـف.. المسـافة مـن (الإسـكندريّة) إلى (القاهـرة) تسـتغرق ثـلاث سـاعات تقريبـاً.. منـذ عـودتى إلى بيـت أسرتى فى (الإسـكندريّة) وأنـا لا أطيـق البقـاء فى (القاهـرة) ولا أسـافر إليهـا إلا عندمـا يتطلـب عمـلى ذلـك.. غـير أنـى الآن أجدهـا المـلاذ الآمـن لى بعـد كل مـا حـدث..

هـل كنـت حمقـاء بالفعـل عندمـا رفضـت عـرض (كمـال فـودة) وتحديتـه هـو ومـن خلفـه..؟..

(عـرض لا يمكـن رفضـه) بلغـة (المافيـا).. لأن قبولـه يعـنى أن تربحـى كل شئ، ورفضـه ليـس فقـط أن تخـسرى حياتـك (فهـى لا تمثـل شـيئاً).. بـل سـتتحوّلين إلى ناتـج قسـمة المجمـوع عـلى الصفـر.. لا معـنى لهـا..

لا أعتقـد أنـّه صـادق تمامـاً فى عرضـه يـا دكتـور (حـازم).. هـو فـقـط يريـد أن يضمـن أنّ دليـل إدانتـه لـن يتـسرّب إلى أى جهـة.. دعـك مـن أنهـم مَحُـوا الفيديـو الّـذى يحمـل إعترافـات (يوسـف محـيى الديـن) مـن عـلى بريـدى الأليكـترونى، فمـن الممكـن جـداً أن أكـون قـد صنعـت منـه نسـخة أو أكـثر، وأرسـلته إلى أى أحـد مـن خـلال صنـدوق بريـد أليكـترونى آخـر (وهـو للأسـف مـا لـم أجـد فرصـة لفعلـه بسـبب الإنهيـار العصـبى الّـذى أصابـنى).. هـو إذن يريـد التأكـد مـن إخفـاء سرّه، وبمجـرد أن يفعـل، تنتفـى حاجتـه إلىّ - دعـك مـن مسرحيّـة حاجتـه إلى خدمـاتى الإعلاميّـة- وبالتـالى يصبـح التخلـص منّى هـو الحـل الأمثـل..

كـم تسـاوى قـدرة فـرد واحـد أمـام كيـان قـارّى كـ (هاليبرتـون)..؟.. الإجابـة: غـير ذات معـنى، كحاصـل قسـمة أى رقـم عـلى الصفـر..

لا يـا سـيد (كمـال).. كذبـت فى هــذه أيضـاً.. سـواء أنـت.. سـواء والـدك..

أو حـتى (هاليبرتـون) هـذه.. لسـتم آلهـة ولا حـتى أنصـاف آلهـة.. برغـم قدراتكـم الخرافيّـة إلا أنـى أشـعر بأنـى أقـوى منكـم جميعـاً.. لأنّ الله معـى وهـو نعـم المـولى ونعـم المصـير..

لـم أدر مـتى ولا كيـف غفـوت.. ولكنـنى وجـدت نفـسى أسـير حافيـة القدمـين عـلى رمـال الشـاطئ البيضـاء.. السـماء صافيـة.. الأمـواج تداعـب أصابـع قدمـى ّبرقـة.. مـن بعيـد أرى جسـدين يقتربـا.. راحـا يدنـوان مـنّى بينمـا تفاصيلهمـا تتضـح أكـثر فأكـثر..

- (بدهشة وفرح): (أحـــــمد)..؟؟!!..

وجهـه ناصـع وسـيم كمـا لـم أره مـن قبـل.. إبتسـم فظهـرت سـنته الأماميّـة المكسـورة وقـد اكتملـت.. قـال وهـو يصافحـنى:

- وحشتينى..

صافحته بحرارة وأنا أقول: وانت كمان..

أشار إلى رفيقه قائلاً:

- مش هاتسلمى على صاحبى..؟..

نظـرت إلى الرجـل الأسـمر.. متوسـط القامـة متـين البنيـان.. وقعـت عينـاى عـلى سـاعده الأيمـن فوجدتـه مبتـوراً.. هتفـت بدهشـة:

- إنتَ..؟!!..

قال (أحمد):

- الأسطى (عمّار)..

صافحنى الرجل بيسراه وهو يبتسم..

- إزّى حالك يا مدام ..؟..

رددت عليه بتمتمة غير مفهومة، وأنا أحدق فيهما بانبهار..

قال (أحمد) بجديّة:

- أنا قلقان عليكى يا (أمل)..

- ليه..؟..

- الطريق أدامك طويل وخطير..

قلت بثبات:

- هامشيه لآخره إن شاء الله..

نظر لى بإعجاب للحظة قبل أن يقول:

- مهمتـك مـش سـهلة أبـداً.. عارفـة إيـه الـلى هايحصـل لـو فشـلتى أو عرفــوا يوصلولِــك..؟..

نظـرت لـه مسـتفسرة، فأشـار بسـبابته جهـة الـبر.. أدرت رأسى حيث يشـير، فلفحتـنى موجـة حـارة لاهبـة جعلتـنى أشـهق.. رأيـت نـاراً هائلـة مشـتعلة عـلى مرمـى البـصر.. سـمعت صراخـاً وأنينـاً وعويلاً.. سـحابة سـوداء عظيمة مـن الدخـان تمـلأ السـماء.. ملايـين الأطيـاف الصارخـة المتألمـة تنبعـث مـن بـين ألسـنة النـيران.. تتصاعـد لأعـلى.. تـُشفط بواسـطة أنبـوب عملاق شـفاف.. أرى مـن بـين الأطيـاف وجـه أمـى وأبى الراحـل.. أشـقائى وأزواجهـم وأبناءهــم .. (مجــدى) و(ميــدو).. (ميخائيــل).. عــم (حبــشى).. كل مــن أعرفهــم ومــن لا أعرفهــم يتعذبــون ويصرخــون بألــمٍ رهيــب.. الأنبــوب العمـلاق ممتـد مـن الـبر إلى البحـر.. إلى هنـاك إلى (بارادايـس هايتـس)..

السـماء صـارت حمـراء قانيـة بلـون الـدم.. الرمـال برتقاليّـة.. الأمـواج سـوداء كالحــة..

أصـوات الأنـين تتصاعـد لتمـلأ رأسى.. يـا أرحـم الراحمـين.. ياللحـرارة.. أغمضـت عيـنىّ بقـوة، وسـددت أذنىّ بكفـىّ..

رحت أئِن.. أئِن...

سألتنى السيّدة العجوز الجالسة إلى جوارى بحنانٍ فطرى:

- فيه حاجة يا بنتى..؟..

فتحت عينىّ.. نظرت إليها بعينين متسعتين.. زفرت بعمق وقلت:

- لا أبداً يا أمى.. ده بس كان حلم وحش..

إسـتعاذت بـالله مـن الشـيطان الرجيـم وطلبـت مـنّى أن أفعـل بالمثـل ففعلـت..

كانـت الشـمس قـد مالـت إلى الغـروب، واصطبـغ الشـفق بلـونٍ أحمـر قـان.. تسـاءلت:

- فاضل كتير على (مصر)..؟..

أجابنى أحدهم:

- إحنا خلاص على وصول..

سـاد الصمـت بعدهـا إلا مـن صـوت أزيـز المحـرّك، وصفـير الريـاح بالخـارج.. أخرجـت مصحفـاً مـن حقيبـتى.. وعـلى مـا تبقـى مـن نـور الشـمس

الغاربـة بـدأت أقـرأ بصـوت خفيـض..

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألم .. أحسِب النـّاس أن يـُتركوا أن يقولوا آمـنّا و هم لا يـُفتَنون)

***

في (القاهـرة) حاولـت الإتصـال بــ (ميخائيل)..أخبرتـنى خطيبتـه (مـيران) - بلهجـة تفـوح منهـا رائحـة الإتهـام- أنّ المباحـث ألقـت القبـض عليـه.. لا بسـبب الدعـوة الـّتى رفعهـا (رأفـت عابديـن) -مالـك محطـة (ASC)- عـلى مكتبنـا يتهمنـا فيهـا بالتربـح مـن وراء البرنامـج الـّذى ننفـذه لحسـاب محطتـه مـن خـلال عمـل دعايـة غـير مبـاشرة لأحـد توكيـلات الملابـس الجاهـزة بمـا لا يتفـق والعقـد المـبرم بيننـا وبينـه..

ألقـت المباحـث القبـض عـلى (ميخائيـل) بتهمـة التهـرب مـن الضرائـب باعتبـاره مديـر المكـتب فى غيـابى.. صعقـنى الخـبر أول الأمـر، لأنـنى أدفـع ضرائـبى بانتظـام، ولـدىّ أوراق تثبـت هـذا.. ثم فطنـت إلى أنّ الأمـر يتجـاوز ذلـك..

ولكنّك لا تستطيعين تخيّل مدى ما أستطيع القيام به..

إذن فقـد بـدأت (إيجـى ـ نيرجـى) تتحـرّك.. هاهـو (ميخائيـل) بـين براثـن الأمـن.. ويعلـم الله مـا الوسـائل الـّتي سيسـتخدمونها لإجبـاره عـلى البـوح بمـكانى (وهـو مـالا يعـرف عنـه شـيئاً).. ياللفـتى البائـس.. طمأنـت الفتـاة الباكيـة بـأنّ الأمـر لا يعـدو كونـه خطـأ قانـونى لأنّ موقفنـا المـالى سـليم تمامـاً.. وبعـد أن أنهيـت إتصـالى بهـا، حاولـت الإتصـال بــ (محمـود) أخـى سـواء عـلى هاتفـه المحمول أو هاتـف منزله بـ (جـدّة).. لا مجيـب.. تقلصت أحشـائى.. أَمِـنَ الممكـن أن ..؟..

أنا -سيدتى- ملك (مصر) الغير متوج..

جرّبت الإتصال بمنزلنا فى (الإبراهيميّة).. نفس النتيجة.. منزل شقيقتى فى (سموحة).. نفس النتيجة..

أعدت السمّاعة إلى موضعها.. غادرت مكتب الإتصالات وأنا أكاد لا أرى أمامى شيئاً.. لا يحتاج الأمر لعبقريّة خاصة.. لقد سقط أهلى كلهم فى قبضة الشركة..

بل ستتحوّلين إلى ناتج قسمة المجموع على الصفر.. لا معنى لها..

إعتصرت قبضة باردة قلبى.. أمى.. إخوتى.. يا الله.. كيف أنتم الآن..؟.. ومضت بذهنى صور خاطفة لهم وهم قابعون فى أقبية كالحة الجدران عارية من الأثاث يتعرضون لأبشع ألوان التعذيب.. بل لربما هم -فى هذه اللحظة بالذات- داخل ماكينات (إيجى- نيرجى)..

أغمضت عينىّ بقوّة.. ورحت أمشى بخطوات أسرع.. أسرع..

....

....

....

....

سامحنى يا دكتور (حازم) إذ لن أخبرك عن مكانى الحالى.. أنا فى مكان ما من قلب (القاهرة).. لا تحاول التخمين.. لربما كنت فى باحة (الأزهر الشريف).. ولربما كنت أسير فى شوارع وسط البلد أو أقف أمام مذبح (سانت تيريز) بـ (شبرا).. أنتظر الأوتوبيس فى الحىّ السابع أو أعبر ميدان التحرير.. سنترال (ألماظة) أو محطة (كوتسيكا).. (القاهرة) شاسعة جداً وسيصعب عليهم الإيقاع بى فيها.. أما أنا فلن يصعب علىّ العثور على (بشير الهلالى).. سأجده وأحكى له كل ما أعرف عن (إيجى ـ نيرجى).. أنا أعرفه جيّداً.. ستثور ثائرته وينتابه جنون أنا فى أشد الحاجة إليه لينزع الخوف من قلبى.. ستتشابك أصابعنا، وسنتحرك معاً لنفضح هذه الجريمة غير المسبوقة.. ولسوف ننقذ أبناء وطننا من الفناء فى آلات هؤلاء المجرمين بإذن الله..

سنكون بحاجة لعونك وعون كل شريف فى هذا البلد يا دكتور (حازم) فى حربنا القادمة ضد (كمال فودة) ومن معه..

أعلم أنّ التحدى ليس سهلاً، ولكننى أثق كثيراً فى عقلك وأخلاقك وتقواك برغم أى خلاف سابق بيننا.. وأتوقع منك المساندة عندما أطلبها منك..

إنتظر مكالمتى التالية وتأهب للحرب القادمة يا دكتور (حازم).. فهى لن تكون هيّنة على الإطلاق.. ولكن خوضها بأى حال أهون من نتائج تجاهلها والفرار منها..

***

لم تتصل بى منذ ذلك الحين.. ولم أسمع عنها أيّة أخبار..

كنت غارقاً حتى النخاع فى مشكلتى الجديدة.. وحاولت بإخلاص إتباع خطة العلاج الّتى وضعتها زوجتى.. سافرت معها فى رحلة قصيرة لأداء العمرة.. وعدت لأعتكف فى بيتى.. أُصلى وأقرأ القرآن وأستمتع بجمال الطبيعة من حولى.. أفادتنى هذه الفترة جداً فى التقرب من الله عز وجل.. عملى بالجامعة..؟.. أباشره هاتفيّاً مع نوّابى..

تجلس (نشوى) معى يوميّاً.. تناقشنى فى موضوعات مختلفة، تؤدى كلها بنا فى النهاية إلى موضوع شركة (إيجى ـ نيرجى).. تمارس طريقتها فى الإلحاح والإقناع بضرورة التفكير بمنطقيّة والنظر إلى الأمام والسعى لمستقبل أفضل و.. و.. وكم كانت سعادتها عندما أخبرتها أننى تحسّنت، وأنّ الكوابيس وأصوات الأنين زالت عنّى..

كنت أكذب بالطبع للخلاص من إلحاحها.. الأنين لم يفارق أذنىّ يوماً.. وأكثر من مرّة آوى إلى فراشى، ثم أستيقظ لأجد نفسى فى ملهى ليلى.. أو مستلقياً على الفراش فى فيلا (أحمد خشبة) - الّتى ابتعتها من دون أن أدرى- وبجوارى نسوة لا أعرفهنّ.. أو أوضاع غريبة شاذة أخرى لا داع لذكرها...

أنا إنسان ملعون.. أتتنى الفرصة لأداء رسالتى فى الحياة، فتخاذلت مع أول عقبة.. كذا فعلت بلا مداراة.. وما أصابنى هو لعنة الصمت على الظلم والبؤس.. ومالم أقم بدورى، ستظل هذه اللعنة ملتصقة بى، وهو ما أفضل الموت عليه..

كذا يرى (أحمد خشبة).. ولكننى لا أفعل..

لماذا تصيبنى أى لعنة من دون أن أرتكب ما يستوجبها..؟.. كنت طيلة عمرى نموذجاً للإستقامة والنجاح ومراقبة الله فى السر والعلن.. لم

أقصر يوماً ولم أرتكب ما يغضب الله.. حتى فى هذا القصة.. لم أفعل ما يخالف الشرع أو القانون.. مجرمون يُحَاسَبون على جرائمهم كما يقضى الشرع الحنيف.. فائدة تعم على الأمة من وراء ذلك سواء فى صورة طاقة أو استثمارات أو أموال سائلة.. ما الخطأ فى هذا..؟.. بل ما شأنى أنا به أصلاً..؟..

لابد أن تؤمن من أعماقك أنّه لا إثم عليك فيما فعلت.. هذا أمر مؤكد..

سليم أنا إذن.. لا غبار علىّ.. ضميرى مستريح ويداى نظيفتان تماماً.. صدقنى.. أنا مقتنع بهذا تماماً.. أقسم بالله العظيم أنا مؤمن بكل هذا من صميم قلبى.. ولكن...

مممممممممم ... مممممممممممممممم ....
مممممممممم ... مممممممممممممممم ....
مممممممممم ... مممممممممممممممم ....

الأنين لا ينقطع.. والكوابيس لا تتوقف.. وأعصابى لم تعد تحتمل.. فى الليلة السابقة لإتصالى بك، بدأت فكرة الإنتحار تلح علىّ بشكل مستفز.. الخلاص من كل هذا العذاب بشكل جذرى سريع.. ها هى الفرصة -فكرت- قد جاءت للشيطان على طبق من ذهب للإيقاع بى..
....
....
....

همففففففف (زفرة)..
....
....
....

إسمعنى جيّداً..

أنت عرفت القصة بكامل تفاصيلها.. لا أظننى نسيت شيئاً..

إن كنت ترى أننى محق فى موقفى فبالله عليك أخبرنى بذلك.. أريد أن يطمئننى أحد أننى سليم لا غبار علىّ.. أحتاج أن أسمع هذا من شخص أثق به..

وإن كنت والعياذ بالله لا ترى هذا فافعل ما تجده صواباً.. أنت حر الحركة عنّى ولا يتهددك ما يتهددنى.. خياراتك مفتوحة ومجالك واسع.. يمكنك البحث عن (أمل) و(بشير).. يمكنك أن تجمع الأدلة.. يمكنك إثارة القضية وفضح أسرارها.. يمكنك ان تفعل الكثير والكثير لأنّ ما يكبلني لا يكبلك.. فقط -وهذا أهم ما فى الموضوع- ليكن كل ذلك بعيداً عنّى..

خذ وقتك فى التفكير يا صديقى، ولكن بالله عليك لا تتأخر علىّ..

رجائى لك أيّاً كان موقفك أو رد فعلك أن تسرع لأنّ الأنين بالفعل يكاد يقتلنى.. ولا أرانى قادراً على تحمل المزيد..

***

خاتمة

أنــا

من أنا..؟..

لا أعتقـد أنّ إسـمى أو هويـتى مهمـين أو يمكـن أن يفيـدا أحـداً.. أنـا مواطـن مـصرى وكفـى.. لى كل مـا للمصريـين وعـلىّ مـا عليهـم.. وليـس بى أى شئ يمـيّزنى عنهـم، اللهـم إلا ذلـك الـسر الرهيـب الّـذى أخبرنيـه الدكتـور (حـازم أبـو زيـد) قبيـل وفاتـه بعـدة أيّـام..

كـيف تُـوفىَ..؟.. غريـب هـذا..!!.. ألـم يبلغكـم الخـبر..؟.. لقـد عُـثر عـلى جثتـه العاريـة مهشـمة أسـفل ذلـك الجـرف العمـلاق شرق (بارادايـس هايتـس) الّـذى تقـع عليـه تلـك الفيـلا الّـتى ابتاعهـا مـن (ممتـاز خــشبة) رجـل الأعمـال الشـهير..

حــادث مـدوٍ بالفعـل نظـراً لأنّ الراحـل كان شـخصيّة مرموقـة تشـغل منصبـاً هامـاً، وكانـت مرشـحة لتـولى منصبـاً وزاريّـاً فى التعديـل القـادم.. قـرأت النعـىّ فى (الأهـرام)، وشـعرت بالحـزن..

تذكـرت نظرتـه الصامتـة المنكـسرة وهـو يصافحـنى عـلى رصيـف ميـناء (بارادايـس هايتـس) عنـد مغـادرتى.. نـوع مـن الرجـاء يطـل مـن عينيـه الكسـيرتين وهـو يقـول بخفـوت:

- (يتصاعـد البخـار مـن فمـه): طبعـاً لا داعـى لأن أذكـرك بـأن يَظَـل إسـمى بعيـداً عـن هـذا الموضـوع..

ربـتّ عـلى كتفـه مطمئنـاً، قبـل أن أخطـو عـلى رصيـف المرفـأ، وأهبـط إلى الـزورق البخـارى الخـاص بـه -بالدكتـور (حـازم)- المسـتقر بـين أقرانـه مـن الـزوارق الفاخـرة الخاصـة بسـكان الجزيـرة، والّـذى إنطلـق بى عـلى الفـور صـوب (الإسـكندريّة).. وبينمـا هـو يشـق الأمـواج المظلمـة وأنـا أفـرك كفـىّ مـن الـبرد رغـم دفء الكابينـة الّـتى أجلـس فيهـا.. حانـت مـنّى نظـرة إلى الـوراء.. رأيـت الرجـل يقـف عـلى رصيـف المرفـأ الخـالى.. وحيـداً.. نحيفـاً.. بائسـاً.. ومـن خلفـه تتألـق بشـدة أضـواء (بارادايـس هايتـس) بقصورهـا وأنديتهـا وملاهيهـا و مراقصهـا كأنّهـا شـعلة مـن النـار لتحيـل الليـل المظلـم

نهـاراً، وتنعكـس أنوارهـا عـلى سـطح الأمـواج لمسـافات بعيـدة..

النعـى يحتـل صفحـة كاملـة.. تتوسـطه صـورة كبـيرة للراحـل، تعلوهـا آيـة قرآنيّـة، وأسـفلها حشـد مـن أسـماء عائلتـه وإعـلان عـن موعـد ومـكان تلقـى العـزاء وهـو قاعـة المناسـبات الملحقـة بمسـجد (مبارك) بــ (بارادايس هايتـس)..

هل أنا واهم أم أنّ ثمة حزن دفين يطل من عـينيه فى الصورة..؟..

تناولـت الصحـف حـادث الوفـاة الغامـض بمعالجـات تنوعـت مـا بـين الرغبـة فى دفـن الموضـوع، والرغبـة فى نبشـه للوصـول إلى الحقيقـة، لأن الراحـل كمـا أسـلفت لـم يكـن شـخصاً عاديّـاً..

تـرى مـا هـى ملابسـات وفاتـه..؟.. هـل زلـت قدمـه مثـلاً فهـوى مـن النافـذة..؟.. أم قتلـه رجـال الشركـة بعـد أن عرفـوا بشـكلٍ أو بآخـر صلتـه بنشـاطهم..؟.. أم أنّـه قـرر الانتحـار فوثـب مـن النافـذة بكامـل إرادتـه..؟.. وإن كانـت الأخـيرة فهـل كانـت لشـعوره بالذنـب أم أنّ الشـخصيّة المنشـقة المتمـرّدة بداخلـه سـيطرت عليـه ودفعتـه لقتـل نفسـه..؟..

أثـار انتباهـى تحقيـق عـن هـذا الموضـوع نشرتـه (الـشروق)، ذكـر فيـه أنّ الشـاهدة الرئيسـيّة فى القضيّـة وهـى أخصائيّـة تدليـك (الإسـم الرسـمى لفتيـات الليـل فى بارادايـس هايتـس) نَفَـت معرفتهـا بشـخصية الراحـل، وبكونـه رئيسـاً لجامعـة (الإسـكندريّة)، وادّعـت بـأنّ الإسـم الـّذى أخبرهـا بـه هـو (أحمـد خشـبة) -إسـم مالـك الفيـلا السـابق- وذكـرت أنّـه كان غريـب الأطـوار كثـير الـشرود، وأنّـه كان يعتمـد عـلى مولـد خـاص لتوليـد الكهربـاء بعيـداً عـن مصـدر التغذيـة الـّذى يغـذى (بارادايـس هايتـس) كلّهـا بالكهربـاء..!!..

أكاد أراه وهـــو يقـف عاريـاً أمـام النافـذة المفتوحـة.. السـتائر تتطايـر مـن حولـه.. القمـر فـضى كامـل الإسـتدارة.. صفحـة البحـر الزرقـاء اللامعـة

ممتـدة إلى مالانهايـة.. يتنفـس بعمـق.. إبتسـامة ارتيـاح وخّـلاص ترتسـم على شـفتيه..

وفى صفحـة أخـرى مـن ذات الجريـدة لفـت انتباهـى خـبر جانـبى صغـير عـن تكرار إصابـة بعـض الشباب فى (بارادايـس هايتـس) بنوبـات مـن الهيـاج الغـير مـبرر، عـزاه أطبـاء إلى إدمـان المخـدرات وعقاقـير الهلوسـة..
طويـت الجريـدة وأنـا أبتسـم بمـرارة.. برغـم كل شئ.. هاهـم أولاء ضحايـا (إيجـى - نيرجـى) يعـودون بعـد موتهـم لينتقمـوا مـن قاتليهـم بطرقهـم الخاصـة.. وإنى لواجـد فى هـذا عدالـة مـن نـوع خـاص جـداً لـم يكـن يخطـر ببـال أحـد مـن القائمـين عـلى هـذا المـشروع الرهيـب..
لو فكرنا إذن بموضوعيّة لوجدنا أنفسنا أمام إحتمالين:
١ - الدكتـور (حـازم أبـو زيـد) يكـذب أو يختلـق أوهـام وأكاذيـب كعَـرَض لمـرض نفـسى يؤكـد هـو إصابتـه بـه، بغـض النظـر عـن أسـبابه..

العينـان لامعتـان مفعمتـان بالراحـة.. يفـرد سـاقيه.. يقـف عـلى حاجـز النافـذة.. يظـل ثابتـاً فى هـذا الوضـع للحظـات ثـم..

٢ - الرجـل صـادق بالفعـل، وهـو الإحتمـال المرعـب الّـذى أتمـنى نفيـه، وإن كنـت أميـل إلى تصديقـه لأن الحكايـة معقـدة جـداً، ويصعـب إختلاقها..

يهـوى لأسـفل مـن هـذا الارتفـاع الشـاهق.. مفـرود الذراعـين.. مسـبل الجفنـين.. إبتسـامة حالمـة تتلاعـب عـلى شـفتيه.. وكأنـه يحلـق فى السـماء بنشـوة واسـتمتاع لا مثيـل لهمـا..

والمصير الّـذى ينتظرنـا جميعـاً فى هـذه الحالـة أشـنع مـن أى كابـوس حلم بـه فيلسـوف أو شـاعر أو أديـب أو مفكـر أو أى إنسـان، ولـم يكـن -عـلى حـد علمـى- مـن نصيـب أى من شـعوب الأرض حـتى الآن..
أبـتلع ريقى بصعوبة..
أيـن أنـت الآن يـا (أمـل)..؟.. هـل عثرت عـلى "بشـيرك" هـذا، أم كانوا هم

أسبق في العثور عليكِ..؟..

واقفاً على المكعبات الحجريّة العملاقة بمحاذاة سور الكورنيش .. البحر هائج و رذاذ الأمواج العالية يغرق وجهي و ثيابي .. مذاق الماء المالح يداعب فمي ، بينما رائحة يود البحر تفعم أنفي .. أسمع حديث رجلين يسيران من خلفي على الكورنيش:

- باين عليها نوّة شديدة..

- أمّال.. أشد نوّة.. دى اللى هاتغرّق البلد كلها..

يمن

من بعيد.. أرى أمواجاً سوداء عاتية كالجبال تعلو وتدنو أكثر فأكثر.. أرفع رأسي لأعلى فألمح أسراب النوارس تحلق فارّة نحو البر على خلفيّة من سماء ملبدة بغيوم غليظة داكنة تذكرني بلوحات (ألجريكو)..

خائف..؟.. نعم.. أنا خائف.. الخوف جزء منّي.. رضعته من صدر أمي وتنفسته مع الهواء طوال حياتي حتى صار جزء من تكويني.. لست بأفضل من الدكتور (حازم) رحمه الله ولا أشجع.. خائف أنا طيلة الوقت على نفسي وأهلي وبيتي وعملي..

همممفففف (زفرة)..

مشادّة عنيفة تنشب بين مجموعة من الشباب على الرصيف المقابل للكورنيش.. يتبادلون الشتائم بأقذع الألفاظ، قبل أن تنهمر اللكمات والركلات كالمطر من وإلى الطرفين.. لِمَ يتعاركون..؟.. لا أعرف.. لربما بسبب طوابير الخبز.. أو لركوب الحافلة.. أو بسبب معاكسة الفتيات..

الأسباب مختلفة وكلّها واهية.. ولكنّها شحنة الغضب المكبوتة في أعماق كل منهم والّتي جعلتهم أقرب إلى براميل من البارود يكفي عود ثقاب واحد لإشعالها..

الرايات السوداء تخفق بقوّة على امتداد الساحل.. النوّة قادمة ولا شك.. وستكتسح كل ما أمامها.. ماذا سأفعل..؟.. لقد فعلت.. كتبت هذه الأوراق الّتي تقرأونها.. أنتم الآن تعرفون السر مثلي تماماً..

والواجب الملقى على عاتقى على عاتقى صار على عاتقكم أنتم أيضاً.. نعم أنا خائف.. ولكنى بينكم لست كذلك..

المشادة الّتى تحولت إلى معركة تكاد تتحول إلى مجزرة.. الأسلحة البيضاء تلمع.. قطرات الدماء تتناثر.. الصرخات تتعالى..

والأمواج السوداء تعلو فى الأفق أكثر وأكثر..

تمّت بفضل الله

شريف ثابت

القاهرة - ٢٠٠٩

(*)- فكـرة إسـتخلاص السـيال الحيـوى عـن طريـق التعذيـب هـى نظريّـة متخيّلـة للدكتـور (أحمـد خالـد توفيـق) فى روايتيـه (كليمنجـاور) و(الظاهـرة)..

كتب أخرى للمؤلف

- الطيار- رواية عن (دار ليلى)- ٢٠٠٨
- مزاج صباحى- مجموعة قصصيّة عن (بوك هاوس)- ٢٠١٠
- حزب الكنبة - مجموعة قصصيّة عن (دار كيان) - ٢٠١١
- تحت الأرض- رواية عن (دار دَوّن)- ٢٠١١
- عالم أفضل : الميلاد - رواية عن (دار كيان) - ٢٠١٥

للتواصل مع الكاتب:
Sherif-thabet@hotmail.com

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..

بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..

بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..

هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب ..

لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450

أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

وتابعنا :

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing